الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصري

كتاب

الاستقصا

لأخبار دول المغرب الاقصى

الجزء الثانى

٢

تحقيق وتعليق ولدى المؤلف صاحبي السعادة :
الاستاذ جعفر الناصري — والاستاذ محمد الناصري

دار الكتاب
الدار البيضاء
١٩٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الدولة المرابطية

الخبر عن الدولة الصنهاجية اللمتونية المرابطية وأوليتها

قد تقدم لنا عند الكلام على نسب البربر وشعوبها أن صنهاجة احدى قبائل البرانس من البربر ، وانهم أعظم قبائلها بالمغرب ، لايكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم فى جبل أو بسيط ، حتى زعم كثير من الناس انهم ثلث البربر .

وتقدم لنا ان النسابين من العرب زعموا ان صنهاجة وكتامة من حمير ، خلفهم الملك افريقيش بالمغرب ، فاستحالت لغتهم الى البربرية . والتحقيق خلاف ذلك وأنهم من كنعان بن حام كسائر البربر ، وتحت صنهاجة قبائل كثيرة تنتهى الى السبعين ، منهم : لمتونة و كدالة ومسوفة ومسراتة ومداسة وبنو وارث وبنو دخير وبنو زياد وبنو موسى وبنو فشتال وغير ذلك ، وتحت هذه القبائل بطون وأفخاذ تفوت الحصر .

وكانت لهم بالمغرب دولتان عظيمتان احداهما : دولة بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين بافريقية ، ورثوا ملكها من يد الشيعة العبيديين والاخرى . دولة الملثمين بالمغرب الاقصى والاوسط والاندلس كما سيأتى .

وموطن هؤلاء الملثمين أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان . ومساحة أرضهم نحو سبعة أشهر طولا فى أربعة عرضا ، وفيهم قوم لايعرفون حرثا ولا زرعا ولا فاكهة ، وانما أموالهم الانعام ، وعيشهم اللحم واللبن ، يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزا إلّا أن يمر ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق ، وانما قيل لهم الملثمون لانهم يتلثمون ، ولايكشفون وجوههم أصلا .

قال ابن خلكان : « اللثام سنة لهم يتوارثونها خلفا عن سلف ، وسبب ذلك على ما

قيـــل ان حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد تفعله الخواص منهم ، وكثر ذلك حتى صار تفعله عامتهم . وقيــل كان سببه ان قوما من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم اذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحى فيأخذون المال والحريم ، فأشار عليهم بعض مشايخهم ان يبعثوا النساء فى زى الرجال الى ناحية ، ويقعدوا هم فى البيوت متلثمين فى زى النساء . فاذا أتاهم العـــدو وظنوهم نساء خرجوا عليهم ، ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم ، فلزموا اللثام تبركا به بما حصل لهم من الظفر بالعدو » .

وقال عز الدين ابن الاثير فى كامله ما مثاله . وقيل ان سبب تلثمهم ان طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم فخالفهم العدو الى بيوتهم . ولم يكن بها إلّا المشايخ والصبيان والنساء ، فلما تحقق المشايخ انه العــدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن ويضيقنه حتى لا يعرفن ، ويلبسن السلاح ففعلن ذلك وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن واستدار النساء بالبيوت ، فلما أشرف العدو رأى جمعا عظيما فظنه رجالا وقالوا هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن قتال الموت ، والرأى ان نسوق النعم ونمضى فان اتبعونا قاتلناهم خارجا عن حريمهم ، فبينما هم فى جمع النعم من المراعى اذ أقبـــل رجال الحى ، فبقى العدو بينهم وبين النساء ، فقتلوا من العدو خلقا كثيرا وكان من قتل النساء أكثر . فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه . فلا يعرف الشيخ من الشاب ، ولا يزيلونه ليلا ولا نهارا .

وفى ذلك يقول أبو محمد بن حامد الكاتب

قوم لهم شرف العلا من حمير * واذا انتموا صنهاجة . فهم هم
لما حووا احراز كل فضيلة * غلب الحياء عليهم ، فتلثموا

وقال ابن خلدون « كان دين صنهاجة أهل اللثام المجوسية شأن برابرة المغرب ، ولم يزالوا مستقرين بتلك المجالات الصحراوية حتى كان اسلامهم بعد فتح الاندلس ، وكانت الرياسة فيهم للمتونة واستوسق (١) لهم ملك ضخم عند دخول عبد الرحمـــن بن

---

١) راجـــع نص ابن خلدون فى صحيفة ٢٣٥ من الجزء الاول طبـــع الجزائر ففيه بعض تقديم وتأخير وزيادة بيان .

معاوية الى الاندلس ، توارثه ملوك منهم من بنى ورتنطو (١) وطالت أعمارهم فيه الى الثمانين ونحوها ودوخوا تلك البلاد الصحراوية ، وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الاسلام فدان به كثير منهم واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم ، ثم افترق أمرهم من بعد ذلك وصار ملكهم طوائف ورياستهم شيعا ، واستمروا على ذلك مائة وعشرين سنة . الى ان قام فيهم الامير أبو عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف بتاسرت (٢) اللمتونى فاجتمعوا عليه وأحبوه وبايعوه ، وكان من أهل الفضل والدين والجهاد والحج فلبث فيهم ثلاث سنين ثم استشهد في بعض غزواته . »

الخبر عن رياسة يحيى بن ابراهيم الكدالى

وما كان من أمره مع الشيخ أبى عمران الفاسى رحمهما الله

لما توفى أبو عبد الله بن تيفاوت قام بامر صنهاجة من بعده يحيى بن ابراهيم الكدالى ، — وكدالة ولمتونة اخوان يجتمعان فى أب واحد ، وكل منهما قبيل كبير يسكنون الصحراء التى تلى بلاد السودان ويليهم من جهة المغرب البحر المحيط — فاستمر الامير يحيى ابن ابراهيم على رياسة صنهاجة وحربهم لاعدائهم الى ان كانت سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، فاستخلف على صنهاجة ابنه ابراهيم بن يحيى وارتحل الى المشرق برسم الحج . فلما قضى حجه وزيارته قفل الى بلاده ، فمر فى عوده بالقيروان فلقى بها الشيخ الفقيه أبا عمران الفاسى ، وحضر مجلس درسه وتأثر بوعظه . فرآه الشيخ أبو عمران محبا فى الخير فأعجبه حاله ، وسأله عن اسمه ونسبه وبلده فأخبره بذلك كله وأعلمه بسعة بلاده وما فيها من كثرة الخلق ، فقال له الشيخ . «وما ينتحلون من المذاهب؟» قال: «انهم

---

١) الذى فى نسخ ابن خلدون انه ورتنطق بالقاف .

٢) الذى فى ابن خلدون صحيفة ٢٣٦ طبع الجزائر جزء أول انه تارشت ونسخة مطبعة مصر صحيفة ١٨٢ من الجزء السادس انه ناشرت وفى القرطاس طبع فاس تارشنا أو تارشت .

قوم غلب عليهم الجهل وليس لهم كبير علم !» فاختبره الشيخ وسأله عن فروض دينه فلم يجده يعرف منها شيأ ! إلّا انه حريص على التعلم صحيح النية والعقيدة ! فقال له الشيخ : « وما يمنعك من تعلم العلم ؟ » فقال : « يا سيدى عدم وجود عالم بارضى ، وليس فى بلادى من يقرأ القرآن فصلا عن العلم ! ومع ذلك فأهل أرضى يحبون الخير ويرغبون فيه لو وجدوا من يقرئهم القرآن ، ويدرس لهم العلم ويفقههم فى دينهم ويعلمهم الكتاب والسنة وشرائع الاسلام ، فلو رغبت فى الثواب من الله تعالى لبعثت معى بعض طلبتك يقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين فينتفعون به ويكون لك وله الاجر العظيم عند الله تعالى اذ كنت سبب هدايتهم » فندب الشيخ أبو عمران تلامذته الى ذلك فاستصعبوا دخول أرض الصحراء وأشفقوا منها ، فقال الشيخ أبو عمران ليحيى بن ابراهيم :« انى أعرف ببلد نفيس (١) من أرض المصامدة فقيها حاذقا ورعا أخذ عنى علما كثيرا — واسمه واجاج بن زلو اللمطى من أهل السوس الاقصى — اكتب له كتابا لينظر فى تلامذته من يبعثه معك فسر اليه لعلك تجد حاجتك عنده » فكتب اليه الشيخ أبو عمران كتابا يقول فيه:« أما بعد اذا وصلك حامل كتابى هذا وهو : يحيى بن ابراهيم الكدالى فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن . ويعلمهم شرائع الاسلام ويفقههم فى دين الله ، ولك وله فى ذلك الثواب والاجر العظيم ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا . »

وأبو محمد واجاج هذا من رجال التشوف قال فيه : « ومنهم واجاج بن زلو اللمطى من أهل السوس الاقصى رحل الى القيروان ، وأخذ عن أبى عمران الفاسى ثم عاد الى السوس ، فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه واذا أصابهم قحط استسقوا به » اه

فسار يحيى بن ابراهيم بكتاب الشيخ أبى عمران حتى وصل الى الفقيه واجاج بمدينة نفيس ، فسلم عليه ودفع اليه الكتاب ، وكان ذلك فى رجب سنة ثلاثين وأربعمائة

---

١) بلد نفيس قرب أغمات كانت موجودة زمان البكرى وقد ذكرها في مسالكه وراجع ما ذكره فى حقها فى صحيفة ١٦٠ طبع الجزائر وراجع ما كتب عليها فى الجزء الاول من هذه الطبعة صحيفة ١٥٣ تعليق عدد ٢ .

فنظر الفقيه واجاج فى الكتاب ، ثم جمع تلامذته فقرأه عليهم وندبهم لما أمر به الشيخ أبو عمران ، فانتدب لذلك رجل منهم يقال له عبد الله بن ياسين الجزولى ، وكان من حذاق الطلبة ومن أهل الفضل والدين والورع والسياسة ، مشاركا فى العلوم ، فخرج مع يحيى بن ابراهيم الى الصحراء ، وكان من أمره ما نقصه عليك .

الخبر عن دخول عبد الله بن ياسين أرض الصحراء وابتداء أمره بها

لما انتهى يحيى بن ابراهيم الى بلاده – ومعه الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولى – تلقاه قبائل كُدالة ولمتونة وفرحوا بمقدمهما ، وتيمنوا بالفقيه وبالغوا فى اكرامه وبره ، فشرع يعلمهم القرآن ويقيم لهم رسم الدين ويسوسهم بآداب الشرع ، وألفاهم يتزوجون أكثر من أربع حرائر ، فقال لهم : « ليس هذا من السنة ، وانما سنة الاسلام أن يجمع الرجل بين أربع نسوة حرائر فقط ، وله فيما شاء من ملك اليمين سعة »

وجعل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وكبحهم عن كثير من مألوفاتهم الفاسدة وشدد فى ذلك ، فاطرحوه واستصعبوا علمه ، وتركوا الاخذ عنه لما جشمهم من مشاق التكليف .

فلما رأى عبد الله بن ياسين اعراضهم عنه واتباعهم لاهوائهم عزم على الرحيل عنهم الى بلاد السودان الذين دخلوا فى دين الاسلام يومئذ ، فلم يتركه يحيى بن ابراهيم لذلك ، وقال له : إنما أتيت بك لانتفع بعلمك فى خاصة نفسى وما عليّ فيمن ضل من قومى . وكان قومه ليس عندهم من الاسلام إلّا الشهادة دون ماعداها من أركان الاسلام وشرائعه .

ثم قال يحيى بن ابراهيم لعبد الله بن ياسين : « هل لك فى رأى أشير به عليك ان كنت تريد الآخرة ؟ » قال : « وماهو ؟ » قال : « ان ههنا جزيرة فى البحر » . قال ابن خلدون : « هو بحر النيل يحيط بها من جهاتها يكون ضحضاحا فى المصيف يخاض بالاقدام وغمرا فى الشتاء يعبر بالزوارق » قال يحيى بن ابراهيم : وفيها الحلال المحض من شجر البرية

وصيد البر والبحر ، ندخل فيها ونقتات من حلالها ونعبد الله تعالى حتى نموت . » فقال عبد الله بن ياسين : « ان هذا الرأى حسن ! فهلم بنا فلندخلها على اسم الله ! فدخلاها ودخل معهما سبعة نفر من كدالة ، وابتنى عبد الله رابطة هناك ، وأقام فى أصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة أشهر ، فتسامع الناس بهم وانهم اعتزلوا بدينهم يطلبون الجنة والنجاة من النار ! فكثر الواردون عليهم ، والتوابون لديهم ، فأخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن ويستميلهم الى الخير ، ويرغبهم فى ثواب الله ويحذرهم ألم عقابه حتى تمكن حبه من قلوبهم ، فلم تمر عليه إلّا مدة يسيرة حتى اجتمع له من التلامذة نحو ألف رجل ! وكان من أمرهم ما تسمعه عن قريب

شروع عبد الله بن ياسين فى الجهاد

واعلانه بالدعوة وما كان من أمره فى ذلك

لما اجتمـع الى عبد الله بن ياسين من أشراف صنهاجة نحو ألف رجل سماهم المرابطين للزومهم رابطته ،

ولما تفقهوا ورسخ فيهم الدين قام فيهم خطيبا فوعظهم وشوقهم الى الجنة وخوفهم من النار ، وأمرهم بتقوى الله والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأخبرهم بما فى ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم جزائه ، ثم ندبهم الى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة وقال لهم : « معشر المرابطين ، انكم اليوم جمع كثير نحو ألف رجل ! ولن يغلب ألف من قلة ! وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم الى صراطه المستقيم ، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم بان تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا فى الله حق جهاده ! » فقالوا له : « أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين لك مطيعين ! ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا ! » فقال لهم : « اخرجوا على بركة الله ، وانذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وابلغوهم حجته فان تابوا فخلوا سبيلهم وان أبوا من ذلك وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم استعنا

بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . » فسار كل رجل منهم الى قومه وعشيرته فوعظهم وأنذرهم ودعاهم الى الاقلاع عماهم بسبيله ، فلم يرفعوا بذلك رأسا .

فخرج اليهم عبد الله بن ياسين بنفسه وجمع أشياخ قبائلهم ووجوهها وقرأ عليهم حجة الله ! ودعاهم الى التوبة ! ورغبهم فى الجنة ! وخوفهم من النار ! وأقام ينذرهم سبعة أيام ! وهم فى ذلك كله لايلتفتون الى قوله ! ولا يزدادون الافسادا ! فلما يئس منهم قال لاصحابه : « قد أبلغنا فى الحجة ، وأنذرنا وأعذرنا . وقد وجب علينا الآن جهادهم ، فاغزوهم على بركة الله » فبدأ أولا بقبيلة كدالة فغزاهم فى ثلاثة آلاف رجل من المرابطين فانهزموا بين يديه ، وقتل منهم خلقا كثيرا . وأسلم الباقون إسلاما جديدا ، وحسنت حالهم ، وأدوا ما يلزمهم من كل ما فرض الله عليهم . وكان ذلك فى صفر سنة أربع وثلاثين وأربعمائة .

ثم سار الى قبيلة لمتونة فنزل عليها وقاتلهم حتى أظهره الله عليهم ، وأذعنوا الى الطاعة ، وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة .

ثم سار الى قبيلة مسوفة فقاتلهم حتى أذعنوا له ، وبايعوه على ما بايعته لمتونة وكدالة .

فلما رأى ذلك سائر صنهاجة سارعوا الى التوبة والمبايعة ، وأقروا له بالسمع والطاعة . فكان كل من أتاه تائبا منهم يطهره بان يضربه مائة سوط ثم يعلمه القرآن وشرائع الاسلام ، وكان يأمرهم بالصلاة والزكاة وأداء العشر ، واتخذ لذلك بيت مال يجمع فيه مايرفع اليه من ذلك .

ثم أخذ فى اشتراء السلاح وإركاب الجيوش من ذلك المال ، وجعل يغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء وذلل قبائلها .

ثم جمع أسلاب القتلى فى تلك المغازى وجعلها فيئا للمرابطين ، وبعث بمال دثر مما اجتمع لديه من الزكوات والاعشار والاخماس الى طلبة العلم ببلاد المصامدة ، فاشتهر أمره فى جميع بلاد الصحراء وما والاها ، من بلاد السودان وبلاد القبلة وبلاد المصامدة

وسائر أقطار المغرب، وانه قام رجل بكدالة يدعو الى الله تعالى والى الصراط المستقيم ويحكم بما أنزل الله، وأنه متواضع زاهد فى الدنيا، وطار له ذكر فى العالم، وتمكن ناموسه من القلوب وأحبته الناس.

ثم توفى يحيى بن ابراهيم الكدالى على أثر ذلك. وحكى ابن خلدون ان وفاة يحيى ابن ابراهيم كانت قبل اعتزال عبد الله بن ياسين وأصحابه فى الجزيرة. والله أعلم.

الخبر عن رياسة يحيى بن عمر بن تكلاكين اللمتونى

لما توفى يحيى بن ابراهيم الكدالى عزم عبد الله بن ياسين على تقديم رجل يقوم بأمر المرابطين فى حربهم وجهادهم لعدوهم.

وكانت قبيلة لمتونة من بين قبائل صنهاجة أكثر طاعة لله تعالى ودينا وصلاحا، فكان عبد الله بن ياسين يكرمهم ويقدمهم على غيرهم، وذلك لما أراده الله تعالى من ظهور أمرهم وتملكهم على الخلق، فجمع عبد الله بن ياسين رؤوس القبائل من صنهاجة وولى عليهم يحيى بن عمر اللمتونى - وعبد الله بن ياسين هو الامير على الحقيقة لانه هو الذى يأمر وينهى ويعطى ويمنع، وعن رأيه يصدرون - فكان يحيى بن عمر يتولى النظر فى أمر الحرب وعبد الله بن ياسين ينظر فى أمر الدين وأحكام الشرع ويأخذ الزكوات والاعشار.

وكان يحيى شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين، واقفا عند أمره ونهيه. فمن حسن طاعته له انه قال له يوما: «قد وجب عليك أدب» قال يحيى «فيماذا يا سيدى؟» قال: «لاأعرفك به حتى آخذه منك!» فكشف له يحيى عن بشرته فضربه عشرين سوطا! ثم قال له: «إنما ضربتك لانك باشرت القتال! واصطليت بنار الحرب بنفسك! وذلك خطأ منك! فان الامير لا يقاتل، وانما يقف ويحرض الناس، ويقوى نفوسهم، فان حياة الجند بحياة أميره، وهلاكه بهلاكه.»

واستقام الامر ليحيى بن عمر، وملك جميع بلاد الصحراء، وغزا بلاد السودان ففتح كثيرا منها، وكان من أهل الزهد والدين والصلاح.

الخبر عن غزو عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر سجلماسة والسبب في ذلك

قد تقدم لنا عند الكلام على بنى مدرار المكناسيين أصحاب سجلماسة ان انقراض دولتهم كان على يد خزرون بن فلفل بن خزر المغراوى، وانه رحف الى سجلماسة سنة ست وستين وثلاثمائة، وبرز اليه صاحبها أبو محمد المعتز بالله ـ آخر ملوك بنى مدرار الصفرية ـ فهزمه خزرون وقتله، واستولى على بلده وذخيرته، وبعث برأسه الى قرطبة ـ وكان ذلك لأول حجابة المنصور بن أبى عامر ـ واستمر خزرون بن فلفل واليا على سجلماسة الى ان هلك وولى بعده ابنه وانودين بن خزرون الى ان هلك أيضا وولى بعده ابنه مسعود بن وانودين.

ولما انقرضت الدولة الاموية بالاندلس وافترق أمر الجماعة بها وصار الملك طوائف، استبد أمراء الاطراف وملوك زناتة بالمغرب كل بما فى يده، وعدم الوازع وتصرفوا فى الرعايا بمقتضى أغراضهم وشهواتهم فنال فاسا وأعمالها من جور بنى عطية المغراويين ما حكينا بعضه قبل، ونال أهل سجلماسة ودرعة من بنى خزرون بن فلفل ـ المغراويين مثل ذلك أو أكثر.

فلما كانت سنة سبع وأربعين وأربعمائة ـ وقد انتشر ذكر عبد الله بن ياسين وأصحابه المرابطين فى العالم ـ اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وكتبوا الى عبد الله بن ياسين ويحيى ابن عمر وأشياخ المرابطين كتابا يرغبون اليهم فى الوصول الى بلادهم، ليطهروها مما هى فيه من المنكرات وشدة العسف من الامراء، وعرفوهم بما هم فيه أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار مع أميرهم مسعود بن وانودين المغراوى

فلما وصل الكتاب الى عبد الله بن ياسين جمع رؤساء المرابطين وقرأه عليهم وشاورهم فى الامر. فقالوا: «أيها الفقيه هذا مما يلزمنا ويلزمك! فسر بنا على بركة الله» فدعا لهم بخير وحضهم على الجهاد.

وخرج بهم فى عشرين من صفر سنة سبع وأربعين وأربعمائة فى جيش كثيف من المرابطين ـ وقيل كان خروجه سنة خمس وأربعين وأربعمائة ـ فسار حتى وصل الى

بلاد درعة فوجد بها عامل مسعود بن وانودين فنفاه عنها ، ووجد بها خمسين ألف ناقة لمسعود المذكور - وكانت ترعى فى حمى حماه لها هنالك - فاكتسحها عبد الله بن ياسين . واتصل الخبر بمسعود فجمع جيوشه وخرج نحوه ، فالتقى الجمعان فيما بين درعة وسجلماسة . فكانت بينهما حرب فظيعة منح الله فيها المرابطين النصر على مغراوة ، فقتل أميرهم مسعود وأكثر جيشه وفر الباقون .

واستولى عبد الله بن ياسين على دوابهم وأسلحتهم وأموالهم مع الابل التى كان اكتسحها فى درعة ، فاخرج الخمس من ذلك كله وفرقه على فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهما وقسم الاربعة أخماس على المرابطين

وارتحل من فوره الى سجلماسة فدخلها وقتل من وجد بها من مغراوة وأقام بها حتى أصلح شأنها وغير ما وجد بها من المنكرات وقطع المزامير وآلة اللهو وأحرق الدور التى كانت تباع بها الخمور وأزال المكوس وأسقط المغارم المخزنية ومحا ما أوجب الكتاب والسنة محوه . واستعمل على سجلماسة عاملا من لمتونة وانصرف الى الصحراء .

ثم توفى الامير أبو زكرياء يحيى بن عمر فى بعض غزواته ببلاد السودان سنة سبع وأربعين وأربعمائة .

الخبر عن رياسة أبى بكر بن عمر اللمتونى وفتح بلاد السوس

لما توفى الامير يحيى بن عمر اللمتونى ولى عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر بن عمر . وذلك فى محرم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ، وقلده أمر الحرب والجهاد ، ثم ندب المرابطين الى غزو بلاد السوس والمصامدة . فزحف اليها فى جيش عظيم فى ربيع الثانى من السنة المذكورة .

وكان أبو بكر بن عمر رجلا صالحا ورعا فجعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتونى ، ثم سار حتى انتهى الى بلاد السوس فغزا جزولة من قبائلها وفتح

مدينة ماسة (١) ، وتارودانت ـ قاعدة بلاد السوس ـ وكان بها قوم من الرافضة يقال لهم البجلية (٢) نسبة الى على بن عبد الله البجلى الرافضى ـ كان سقط الى بلاد السوس أيام قيام عبيد الله الشيعى بافريقية ـ فأشاع هنالك مذهب الرافضة فتوارثوه عنه جيلا بعد جيل وعضوا عليه فكانوا لايرون الحق إلّا ما فى يدهم . فقاتلهم عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر حتى فتحوا مدينة تارودانت عنوة وقتلوا بها خلقا كثيرا ورجع من بقى منهم الى مذهب السنة والجماعة .

وحاز عبد الله بن ياسين أسلاب القتلى منهم فجعلها فيئا وأظهر الله المرابطين على من عداهم ففتحوا معاقل السوس وخضعت لهم قبائله ، وفرق عبد الله بن ياسين عماله بنواحيه وأمرهم باقامة العدل واظهار السنة وأخذ الزكوات والاعشار واسقاط ما سوى ذلك من المغارم المحدثة

فتح بلاد المصامدة وما يتبع ذلك من جهاد برغواطة
وفتح بلادهم وذكر نسبهم

ثم ارتحل عبد الله بن ياسين الى بلاد المصامدة ففتح جبل دَرَن ، وبلاد رودة ، ومدينة شفشاوة بالسيف . ثم فتح مدينة نفيس وسائر بلاد كدميوة ووفدت عليه قبائل رجراجة وحاحة فبايعوه ثم ارتحل الى مدينة أغمات ـ وبها يومئذ أميرها لقوط ابن يوسف بن على المغراوى ـ فنزل عليها وحاصرها حصارا شديدا .

ولما رأى لقوط مالا طاقة له به أسلمها وفر عنها ليلا هو وجميع حشمه الى تادلا فاستجار ببنى يفرن ملوك سلا وتادلا .

---

(١) مدينة ماسة ذكرها البكرى فى مسالكه فقال انها قرب السوس ويضاف اليها الوادى المنصب فى المحيط صحيفة ١٦١ طبع الجزائر .

(٢) انظر بسط الكلام على البجليين فى مسالك البكرى صفحة ١٦٢ طبع الجزائر وراجع القرطاس ايضا .

ودخل المرابطون مدينة أغمات سنة تسع وأربعين وأربعمائة فاقام بها عبد الله بن ياسين نحو الشهرين ريثما استراح الجند ، ثم خرج الى تادلا ففتحها وقتل من وجد بها من بنى يفرن ملوكها وظفر بلقوط المغراوى فقتله .

وكان للقوط هذا امرأة اسمها زينب بنت اسحق النفزاوية . قال ابن خلدون : وكانت من احدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة وكانت قبل لقوط عند يوسف بن على ابن عبد الرحمن بن وطاس شيخ وريكة فلما قتل المرابطون لقوط بن يوسف المغراوى خلفه أبو بكر بن عمر على امرأته زينب بنت اسحق المذكورة الى ان كان من أمرها ما نذكره .

ثم تقدم عبد الله بن ياسين الى بلاد تامسنا ففتحها واستولى عليها ثم أخبر بان بساحل تامسنا قبائل برغواطة فى عدد كثير وجمع عظيم .

ولنذكرها كلاما ملخصا فى برغواطة ودولتهم ثم نرجع الى ما نحن بصدده فنقول : اختلف الناس فى نسب برغواطة هؤلاء الى أى شىء يرجع ، فبعضهم يلحقهم بزناتة وبعضهم يقول فى متنبئهم صالح بن طريف البرغواطى : انه يهودى الاصل من سبط شمعون بن يعقوب عليه السلام نشأ ببرباط ـ حصن من عمل شذونة من بلاد الاندلس ـ ثم رحل الى المشرق وقرأ على عبيد الله المعتزلى ، واشتغل بالسحر وجمع منه فنونا وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا ، فوجد بها قبائل جهالا من البربر فأظهر لهم الصلاح والزهد وموّه عليهم وخلبهم بلسانه وسحرهم بنيرنجاته فصدقوه واتبعوه فادعى النبوة وشرع لهم شرائع ووضع لهم قرآنا ـ حسبما تقدم الخبر عنه مستوفى ـ فكان يقال لمن تبعه ودخل فى دينه برباطى ثم عربته العرب فقالوا برغواطى فسموا برغواطة .

قال ابن خلدون : « وهذا من الاغاليط البينة ! » وصحح ان القوم من المصامدة بشهادة الموطن والجوار وغير ذلك . والتحقيق ان برغواطة قبائل شتى ليس يجمعهم أب واحد وانما هم أخلاط من البربر اجتمعوا الى صالح بن طريف الذى ادعى النبوة بتامسنا سنة خمس وعشرين ومائة من الهجرة فى خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان وتسمى بصالح المؤمنين . وشرع لاتباعه الديانة التى أخذوها عنه وكان صالح قد شهد مع أبيه طريف حروب ميسرة المضغرى كبير الصفرية لعهده وكان طريف يكنى

أبا صبيح ومن كبار أصحاب ميسرة المذكور ويقال انه ادعى النبوة أيضا وشرع لقومه الشرائع ! ثم هلك سنة سبع وعشرين ومائة ، وقام بامره ابنه صالح بن طريف المذكور فعفت مخارقه على مخارق أبيه ! وكان أولا من أهل العلم والدين ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة وأتى من البهتان بما أوضحناه قبل فى ولاية حنظلة ابن صفوان الكلبى على المغرب .

ثم خرج صالح بن طريف الى المشرق سنة أربع وسبعين ومائة بعد أن ملك أمرهم سبعا وأربعين سنة ووعدهم انه يرجع اليهم فى دولة السابع منهم وأوصى بشريعته الى ابنه إلياس بن صالح . ولم يزل إلياس مظهرا للاسلام مصرا على ما أوصاه به أبوه من كلمة كفرهم وكان متظاهرا بالعفاف والزهد الى ان هلك سنة أربع وعشرين ومائتين لمضى خمسين سنة من ولايته . ثم ولى من بعده ابنه يونس بن الياس فاظهر دينهم ودعا الى كفرهم، وقتل من لم يدخل فى أمره حتى حرق مدائن تامسنا وما والاها يقال انه حرق منها ثلاثمائة وثمانين مدينة واستلحم اهلها بالسيف لمخالفتهم اياه وقتل منهم بموضع يقال له تاملوكالات (وهو حجر عال نابت وسط الطريق) سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين نفسا .

قال زمور بن صالح (١) : ثم رحل يونس بن الياس الى المشرق وحج ، ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده . وهلك سنة ثمان وستين ومائتين لاربع وأربعين سنة من ملكه . وانتقل الامر عن بنيه إلى غيرهم من قرابته ، فولى أمرهم أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف فاستولى على ملك برغواطة وأخذ بدين آبائه واشتدت شوكته وعظم أمره ، وكانت له فى البربر وقائع مشهورة وأيام مذكورة أشار إلى شىء منها سعيد بن هشام المصمودى فى أبيات منها قوله :

وهذى أمة هلكوا وضلوا * وعاروا ، لا سقوا ماء معينا
يقولون النبى أبو غفير * فأخزى الله أم الكاذبينا

---

(١) الذى فى النسخة المطبوعة بمدينة الجزائر أبو صالح زمور بن موسى بن هشام صفحة ١٣٤ مسالك البكرى .

سيعلم أهــل تامسنا إذا مـا * أتوا يـوم القيامة مفظعينا
هنالـك يونس وبنـو أبيه * يقودون البرابر حائرينـا

واتخذ أبو غفير من الزوجات أربعا وأربعين - لانهم يبيحون فى ديانتهم الخسيسة أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء - وكان له من الولد مثل ذلك أو أكثر . وهلك أواخر المائة الثالثة لتسع وعشرين سنة من ملكه .

ثم ولى بعده ابنه أبو الانصار عبد الله بن أبى غفير فاقتفى سننه ، وكان كبير الدعوة مهيبا عند ملوك عصره يهادونه ويدافعونه بالمواصلة ، وكان يلبس الملحفة والسراويل ويلبس المخيط من الثياب ولا يعتم أحـد فى بلاده إلا الغرباء ، وكان حافظا للجار وافيا بالعهد ، وتوفى سنة احدى وأربعين وثلاثمائة لاربع وأربعين سنة من ملكه ودفن بتاسلاخت وبها قبره .

وولى بعده ابنه أبو منصور عيسى بن أبى الانصار - وهو ابن اثنتين وعشرين سنة - فسار سيرة آبائــه وادعى النبوة واشتد أمره وعلا سلطانه ، ودانت له قبائل المغرب قال زمور بن صالح : « كان عسكره يناهز الثلاثة آلاف من برغواطــة وعشرة آلاف من سواهم » .

وقـد كان للملوك العدوتين فى غزو برغواطة هؤلاء وجهادهم آثار عظيمة من الادارسة والاموية والشيعة وغيرهم .

ولما زحف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى إلى المغرب زحفه المشهور وأجفلت قبائل زناتة وملوكها بين يديه وانحازوا إلى سبتة وأطل عليهم من جبل تطوان وعاين جمعهم الكثيف رجع عنهم إلى جهاد برغواطة ، فأوقع بهم وقتل أميرهم أبا منصور عيسى بن أبى الانصار ، وبعث بسبيهم إلى القيروان وذلك سنة تسع وستين وثلاثمائة .

ثم حاربتهم أيضا جنود المنصور بن أبى عامر لـما عقد ابنه عبد الملك المظفر لمولاه واضح على جهاد برغواطة ، فعظم أثره فيهم بالقتل والسبى .

ثم حاربهم أيضا بنو يفرن لـمـا استقل بنو يعلى بن محمد بن صالح منهم بناحية سلا واقتطعوها عن عمل زيرى بن عطية المغراوى صاحب فاس .

وكان لابى الكمال تميم بن زيرى اليفرنى فيهم جهاد كبير حسبما تقدم التنبيه عليه

وذلك أعـوام العشرين وأربعمائة فغلبهم على تامسنا وولى عليها من قبله بعد أن أثخن فيهم سبيا وقتـلا .

ثم تراجعوا من بعده إلى أن جاءت دولة المرابطين ودخلـوا أرض المغرب دخلتهم الثانية وفتحوا بلاد المصامدة وبلاد تادلا وتامسنا ، فأخبر عبد الله بن ياسين بأن بساحلها قبائل برغواطة فى عدد كثير وجمع عظيم وانهم مجوس أهل ضلالة وكفر ، وأخبر بما تمسكوا به من ديانتهم الخبيثة . وقيل له إن برغواطة قبائـل كثيرة وأخلاط شتى ، اجتمعوا فى أول أمرهم على صالح بن طريف المتنبئ الكـذاب ، واستمر حالهم على الضلالة والكفر إلى الآن . فلما سمع عبد الله بن ياسين بحال برغواطة وما هم عليه من الكفر رأى أن الواجب تقديم جهادهم على جهاد غيرهم فسار إليهم فى جيوش المرابطين - والامير يومئذ على برغواطة هو أبو حفص عبد الله من ذرية أبى منصور عيسى بن أبى الانصار عبد الله بن أبى عفير محمـد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف - فكانت بينه وبين عبد الله بن ياسين ملاحم عظام ، مـات فيها من الفريقين خلق كثير وأصيب فيها عبد الله بن ياسين الجزولي – مهدى المرابطين – فكان فيها شهادته رحمه الله .

ولما حضرته الوفاة قال لهم : « يا معشر المرابطين إنى ميت من يومى هذا لامحالة ! وانكم فى بلاد عدوكم فإياكم أن تجبنوا أو تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وكونوا أعوانا على الحق واخوانا فى ذات الله ، وإياكم والتحاسد على الرياسة فإن الله يؤتى ملكه من يشاء من خلقه ، ويستخلف فى أرضه من أراد من عباده » فى كلام غير هـذا .

وتوفى عبد الله بن ياسين عشية ذلك اليوم ، وهو يوم الاحد الرابع والعشرين من جمدى الاولى سنة احدى وخمسين وأربعمائة ، ودفن بموضع يعرف بكريفلة ، وبنى على قبره مسجد وهو مشهور بها الى الآن .

وكان عبد الله بن ياسين رحمه الله شديد الورع فى المطعم والمشرب انما يتعيش من لحوم الصيد ونحوها لم يأكل شيئا من لحوم صنهاجة ولا من ألبانها مدة اقامته فيهم .

وكان مـع ذلك كثير النكاح يتزوج فى كل شهر عددا من النساء ثم يطلقهن ولا يسمع بامرأة جميلة إلّا خطبهـا . ومن حسن سياسته انه أقام فى صنهاجة السنة والجماعة

حتى انه ألزمهم ان من فاتته صلاة فى جماعة ضرب عشرين سوطا ومن فاتته ركعة منها ضرب خمسة أسواط .

ومن كراماته أن المرابطين خرجوا معه فى بعض غزواته ببلاد السودان فنفد ما معهم من الماء حتى أشرفوا على الهلاك فقام عبد الله فتيمم وصلى ركعتين ودعا الله تعالى وأمن المرابطون على دعائه فلما فرغ من الدعاء قال لهم : « احفروا تحت مصلاى هذا ! » فحفروا فصادفوا الماء على نحو شبر من الارض عذبا باردا ! فشربوا واستقوا وملأوا أوعيتهم . ومن تقواه وورعه أنه لم يزل صائما من يوم دخل بلاد صنهاجة الى أن توفى رحمه الله .

واستمر الامير أبو بكر بن عمر على رياسته وجددت له البيعة بعد وفاة عبد الله ابن ياسين ، فكان أول ما فعله بعد تجهيزه اياه ودفنه ان زحف الى برغواطة مصمما فى حربهم ، متوكلا على الله فى جهادهم ، فأثخن فيهم قتلا وسبيا حتى تفرقوا فى المكامن والغياض ، واستأصل شافتهم وأسلم الباقون اسلاما جديدا ، ومحا أبو بكر بن عمر أثر دعوتهم من المغرب وجمع غنائمهم وقسمها بين المرابطين وعاد الى مدينة أغمات .

غزو أبى بكر بن عمر بلاد المغرب سوى ما تقدم وفتحه اياها

لما استقر الامير أبو بكر بن عمر بأغمات ، أقام بها الى صفر من سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة . وخرج غازيا بلاد المغرب فى أمم لا تحصى من صنهاجة وجزولة والمصامدة . ففتح جبال فازاز وسائر بلاد زناتة وفتح مدائن مكناسة ثم نزل على مدينة لواتة فحاصرها حتى اقتحمها عنوة بالسيف وقتل بها خلقا كثيرا من بنى يفرن وخربها فلم تعمر بعد الى الآن .

وكان تخريبه إياها فى آخر يوم من ربيع الثانى من السنة المذكورة ثم رجع الى مدينة اغمات .

عود أبى بكر بن عمر إلى بلاد الصحراء والسبب فى ذلك

كان الامير أبو بكر بن عمر اللمتونى قد تزوج زينب بنت اسحق النفزاوية وكانت بارعة الجمال والحسن كما قلنا وكانت مع ذلك حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأى متين ومعرفة بادارة الامور حتى كان يقال لها الساحرة ، فأقام الامير أبو بكر عندها باغمات نحو ثلاثة أشهر ، ثم ورد عليه رسول من بلاد القبلة فأخبره باختلال أمر الصحراء ، ووقوع الخلاف بين أهلها .

وكان الامير أبو بكر رجلا متورعا فعظم عليه أن يقتل المسلمون بعضهم بعضا ، وهو قادر على كفهم ، ولم ير أنه فى سعة من ذلك وهو متولى أمرهم ومسؤول عنهم، فعزم على الخروج الى بلاد الصحراء ليصلح أمرها ، ويقيم رسم الجهاد بها .

ولما عزم على السفر طلق امرأته زينب وقال لها عند فراقه اياها : « يازينب انى ذاهب الى الصحراء وأنت امرأة جميلة بضة لاطاقة لك على حرارتها ! وانى مطلقك ، فاذا انقضت عدتك فانكحى ابن عمى يوسف بن تاشفين فهو خليفتى على بلاد المغرب ! » فطلقها ، ثم سافر عن اغمات وجعل طريقه على بلاد تادلا ، حتى أتى سجلماسة فدخلها وأقام بها أياما حتى أصلح أحوالها ثم سافر الى الصحراء .

ونقل ابن خلكان عن كتاب « المعرب عن سيرة ملوك المغرب » فى سبب رجوع الامير أبى بكر بن عمر إلى الصحراء ما مثاله قال : « كان أبو بكر بن عمر رجلا ساذجا خير الطباع مؤثرا لبلاده على بلاد المغرب غير ميال إلى الرفاهية . وكانت ولاة المغرب من زناتة ضعفاء لم يقاوموا الملثمين فأخذوا البلاد من أيديهم من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط . فلماحصلت البلاد لابى بكر بن عمر سمع ان عجوزا فى الصحراء ذهبت لها ناقة فى غداة فبكت وقالت : ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب ! فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب رجلا من اصحابه اسمه يوسف بن تاشفين ! ورجع إلى بلاده الجنوبية ! » اه

وكان سفر أبى بكر بن عمر إلى الصحراء فى ذى القعدة سنة ثلاث وخمسين

وأربعمائة ، ولما وصل إليها أصلح شأنها ورتب أحوالها وجمع جيشا كثيفا وغزا به بلاد السودان فاستولى منها على نحو تسعين مرحلة .

وكان يوسف بن تاشفين قد استفحل أمره أيضا بالمغرب ، واستولى على أكثر بلاده . فلما سمع الامير أبو بكر بن عمر بما آل اليه أمر يوسف بن تاشفين وما منحه الله من النصر أقبل من الصحراء ليختبر أحواله . ويقال : انه كان مضمرا لعزله وتولية غيره . فأحس يوسف بذلك فشاور زوجته زينب بنت اسحق ـ وكان قد تزوجها بعد أبي بكر بن عمر ـ فقالت له : « ان ابن عمك متورع عن سفك الدماء . فاذا لقيته فاترك ما كان يعهده منك من الادب والتواضع معه ! وأظهر أثر الترفع والاستبداد حتى كأنك مساوله ، ثم لاطفه مع ذلك بالهدايا من الاموال والخلع وسائر طرف المغرب واستكثر من ذلك ، فانه بأرض صحراء وكل ما جلب اليه من هنا فهو مستطرف لديه »

فلما قرب أبو بكر بن عمر من أعمال المغرب خرج اليه يوسف بن تاشفين فلقيه على بعد ، وسلم عليه وهو راكب سلاما مختصرا ، ولم ينزل له ولا تأدب معه الادب المعتاد ! فنظر أبو بكر الى كثرة جيوشه فقال له : « يا يوسف ماتصنع بهذه الجيوش ؟ » قال : « أستعين بها على من خالفني ! » فارتاب أبو بكر به ثم نظر الى ألف بعير قد أقبلت موقرة وقال: « ماهذه الابل الموقرة ؟ » قال : « أيها الامير انى قد جئتك بكل مامعى من مال وأثاث وطعام وإدام لتستعين به على بلاد الصحراء ! » فازداد أبوبكر تعرفا من حاله وعلم انه لايتخلى له عن الامر فقال له يا ابن عم : « انزل أوصيك » فنزلا معا وجلسا فقال أبو بكر : « انى قد وليتك هذا الامر وانى مسؤل عنه فاتق الله تعالى في المسلمين وأعتقنى وأعتق نفسك من النار ولا تضيع من أمور رعيتك شيئا فانك مسؤول عنه . والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل فى رعيتك وهو خليفتى عليك وعليهم » ثم ودعه وانصرف إلى الصحراء فأقام بها مواظبا على الجهاد فى كفار السودان إلى أن استشهد من سهم مسموم أصابه فى شعبان سنة ثمانين وأربعمائة بعد أن استقام له أمر الصحراء كافة إلى جبال الذهب من بلاد السودان والله غالب على أمره .

الخبر عن دولة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى

لما عزم الامير أبو بكر بن عمر على السفر إلى بلاد الصحراء دعا ابن عمه يوسف ابن تاشفين بن ابراهيم اللمتونى ، فعقد لـه على بلاد المغرب وفوض إليه أمره وأمره بالرجوع إلى قتال من بـه من مغراوة وبنى يفرن وسائر زناتة والبربر . واتفق على تقديمه أشياخ المرابطين لما يعلمون من فضله ودينه وشجاعته ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته . فعاد يوسف من سجلماسة بنصف جيش المرابطين بعد ارتحال أبى بكر بن عمر بالنصف الآخر وذلك فى ذى القعدة سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة .

ولما انتهى يوسف بن تاشفين إلى ملوية ميز جيوشه فوجدها أربعين ألفا من المرابطين فاختار منهم أربعة من القواد وهم سير بن أبى بكر اللمتونى ، ومحمد بن تميم الكدالى ، وعمر بن سليمان المسوفى ، ومدرك التلكانى ، وعقد لكل قائد منهم على خمسة آلاف من قبيلته وجعلهم مقدمة بين يديه لقتال من بالمغرب من مغراوة وبنى يفرن وسائر قبائل البربر القائمين به . ثم سار هو فى أثرهم يتقرى المغرب بلدا بلدا ويتتبع أهله قبيلة قبيلة ، فقوم يقاتلونه ثم يظفر بهم ، وقوم يفرون بين يديه ، وقوم يلقون إليه السلم ويبذلون الطاعة حتى دوّخ بلاد المغرب . ثم سار حتى دخل مدينة أغمات . ولما استقر بها تزوج زينب بنت اسحق النفزاوية — التى كانت تحت أبى بكر ابن عمر — فكانت عنوان سعده ، والقائمة بملكه ، والمدبرة لأمره ، والفاتحة عليه بحسن سياستها لأكثر بلاد المغرب ، ومن ذلك اشارتها عليه فى أمر أبى بكر بن عمر وكيفية ملاقاته حسبما ذكرناه آنفا . وهكذا كان أمرها فى كل ما تحاوله رحمها الله .

ومما يستطاب من حديثها ما حكاه ابن الاثير فى كامله وقد تكلم على يوسف بن تاشفين هذا فقال : « كان حسن السيرة خيرا عادلا يميل الى أهل العلم والدين يكرمهم ويحكمهم فى بلاده ، ويصدر عن رأيهم ، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام ، من ذلك ان ثلاثة نفر اجتمعوا فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها ، وتمنى الآخر عملا يعمل فيه لامير المسلمين ، وتمنى الآخر زوجته — وكانت من أحسن النساء ولها الحكم

فى بلاده ـ فبلغه الخبر فأحضرهم و أعطى متمنى المـال ألف دينار ، واستعمل الآخر وقال للذى تمنى زوجته : « ياجاهل! ماحملك على هذا الذى لاتصل إليه ! ? » ثم أرسله الى زوجته فتركته فى خيمة ثلاثة أيام ، ثم أمرت بان يحمل اليه فى كل يوم طعام واحـد ثم أحضرته وقالت له : « ما أكلت فى هذه الثلاثة الايام ? » قـال : « طعاما واحدا » فقالت له : « كل النساء شيء واحد !» وأمرت له بمال و كسوة وسرحته الى حال سبيله وكانت وفاتها سنة أربع وستين وأربعمائة .

بناء مدينة مراكش

لمـا دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة كان أمر يوسف بن تاشفين قد استفحل بالمغرب جدا ورسخت قدمه فى الملك وعظم صيته فسمت همته إلى بناء مدينة يأوى إليها بحشمه وجنده ، وتكون حصنا له ولارباب دولته فاشترى موضع مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة . وقال صاحب المعرب : « كان ملكا لعجوز منهم » ثم نزل الموضع المذكور بخيام الشعر وبنى مسجدا لصلاته وقصبة صغيرة لاختزان ماله وسلاحه ولم يبن على ذلك سورا » . وقال أبو الخطاب بن دحية فى كتاب النبراس : « إن موضع مدينة مراكش كان مزرعة لاهل نفيس فاشتراه يوسف منهم بماله الذى خرج بـه من الصحراء» . وفى كتاب المعرب : « ان يوسف بن تاشفين اختط مدينة مراكش بموضع كان يسمى بذلك الاسم ـ ومعناه بلغة المصامدة امش مسرعا ـ وكان ذلك الموضع مكمنا للصوص فكان المارون فيه يقولون لرفقائهم تلك الكلمة فعرف الموضع بهـا وضبط هذه الكلمة بضم الميم وفتح الراء المشددة بعدها ألف وبعد الالف كاف مكسورة ثم شين معجمة (١) ويقال كان فى موضعها قرية صغيرة فى غابة من الشجر وبها قوم من

(١) كذا ضبطها صاحب كشف الظنون الامام القسطنطينى رحمـه الله .

البربر فاختطها يوسف وبنى بها القصور والمساكن الانيقة .[وهى في مرج فسيح وحولها جبال على فراسخ منها ، وبالقرب منها جبل لايزال عليه الثلج وهو الذى يعدل مزاجها وحرها . »

وقال ابن خلدون : « اتخذ يوسف بن تاشفين مدينة مراكش لنزوله ونزول عسكره وللتمرس بقبائل المصامدة المقيمة بمواطنهم منها في جبل درن ، إذ لم يكن فى قبائل المغرب أشد منهم قوة ولا أكثر جمعا » وفى القرطاس : « لما شرع يوسف بن تاشفين فى بناء مسجد مراكش كان يحتزم ويعمل فى الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعا منه لله تعالى » قال : « والذى بناه يوسف من ذلك هو الموضع المعروف الآن بسور الحجر من مدينة مراكش جوفا من جامع الكتبيين منها ، ويعرف اليوم بالسجينة . ولم يكن بالموضع ماء فحفر الناس آبارا فظهر لهم الماء على قرب فاستوطنوها وبنوا بها » قالوا : ولم تزل مدينة مراكش لا سور لها الى ان توفى يوسف بن تاشفين رحمه الله وولى بعده ابنه على بن يوسف ومضى معظم دولته ، فأدار عليها السور سنة ست وعشرين وخمسمائة يقال كان ذلك باشارة القاضى أبى الوليد محمد بن رشد الفقيه المشهور ، فانه كان قد قدم على السلطان بمراكش فأشار عليه بذلك عند ما نبغ محمد بن تومرت مهدى الموحدين بجبال المصامدة .

وكانت مدة البناء ثمانية أشهر ، وكان الانفاق على السور سبعين ألف دينار ، وبنى على بن يوسف أيضا الجامع الاعظم المنسوب اليه الى اليوم والمنار الذى عليه وأنفق عليه ستين ألف دينار أخرى .

ورأيت فى كتاب ابن عبد العظيم الازمورى الموضوع فى مناقب بنى امغار رضى الله عنهم ان امير المسلمين على بن يوسف اللمتونى لما عزم على ادارة السور على مراكش شاور الفقهاء وأهل الخير فى ذلك فمنهم من ثبطه ، ومنهم من ندبه اليه ، وكان من جملة من ندبه القاضى أبو الوليد بن رشد . ثم شاور أبا عبد الله محمد بن اسحق المعروف بامغار ــ صاحب عين الفطر ــ فأشار ببنائه وبعث اليه من ماله الحلال وأمره ان يجعله فى صندوق صائر البناء ، ويتولى الانفاق فى ذلك رجل فاضل فقبل السلطان اشارته وعمل برأيه فسهل الله أمر البناء .

ثم لما جاءت دولة الموحدين وكان منهم يعقوب المنصور الشهير الذكر اعتنى بمدينة مراكش واحتفل في تشييدها وبالغ في تنميق مساجدها وتنجيد مصانعها ومعاهدها على ما نذكر البعض منه في محله ان شاء الله .

ولم تزل مراكش دار مملكة المرابطين ثم الموحدين من بعدهم سائر أيامهم

ثم لما جاءت دولة بني مرين من بعدهم اتخذوا كرسي مملكتهم بمدينة فاس وبنوا بها المدينة البيضاء .

ثم جاءت الدولة السعدية من بعدهم فنقلوا الكرسي إلى مراكش وبنوا بها قصر البديع المشهور

ثم جاءت الدولة الشريفة العلوية فاتخذ المولى اسمعيل بن الشريف كرسي ملكه بمكناسة الزيتون ، واحتفل في بنائها احتفالا عظيما على ما نذكره ان شاء الله .

ثم لما كانت دولة المولى محمد بن عبد الله رد كرسي الملك الى مراكش وبنى بها قصوره ومصانعه واستمرت كرسيا لمملكتهم الى الآن .

وفضل مراكش أشهر من أن يذكر لا سيما ما اشتملت عليه من مزارات الاولياء ومدافن الصلحاء الكبار والائمة الاخيار ، حتى قال الوزير ابن الخطيب في مقامات البلدان عند ذكره مدينة مراكش : « هي تربة الولي وحضرة الملك الاول » وعبر عنها أبو العباس المقري في نفح الطيب (ببغداد المغرب) حرسها الله وصانها من ريب الزمان ، وطوارق الحدثان .

فتح مدينة فاس وغيرها من سائر بلاد المغرب

وفى سنة أربع وخمسين وأربعمائة المذكورة جند يوسف بن تاشفين الاجناد، واستكثر القواد، وفتح كثيرا من البلاد، واتخذ الطبول والبنود، ورتب العمال وكتب العهود، وجعل فى جيشه الاغزاز (١) والرماة كل ذلك ارهابا لقبائل المغرب، فكمل له من الجيش فى تلك السنة أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة والاغزاز والرماة، فخرج بهم من حضرة مراكش قاصدا مدينة فاس فتلقته قبائلها من زواغة ولماية ولواتة وصدينة وسدراتة ومغيلة وبهلولة ومديونة وغيرهم فى خلق عظيم، فقاتلوه فكانت بينه وبينهم ملاحم عظام انهزموا فيها من بين يديه، وانحصروا بمدينة صدينة فدخلها عليهم بالسيف عنوة وهدم أسوارها، وقتل بها ما يزيد على أربعة آلاف!

ثم رحل الى فاس فنازلها بعد ان فتح جميع أحوازها وذلك فى آخر سنة أربع وخمسين وأربعمائة. وقال ابن خلدون: « ان يوسف بن تاشفين نازل أولا قلعة فازاز وبها مهدى بن تولى اليحفشى - وبنو يحفش بطن من زناتة - وكان أبوه تولى صاحب تلك القلعة ووليها هو من بعده فنازله يوسف بن تاشفين ثم استجاش به على فاس مهدى بن يوسف الكزنائى صاحب مكناسة لانه كان عدوا المعنصر المغراوى صاحب فاس فزحف فى عساكر المرابطين الى فاس وجمع اليه معنصر ففض جموعه » اه والله أعلم.

ثم أقام يوسف على فاس أياما فظفر بعاملها بكار بن ابراهيم فقتله وارتحل عنها الى مدينة صفرو. فدخلها من يومه عنوة، وقتل ملوكها أولاد مسعود بن وانودين المغراوى صاحب سجلماسة وكانوا قد استولوا عليها.

---

(١) الاغزاز جمع غز جنس من الترك كما فى القاموس، وهم هنا قسم من جيش المرتزقة وقد عدهم صاحب صبح الاعشى من جملة طوائف الاجناد انظر صحيفة ٤٨٢ منه فى الجزء الثالث المطبوع بالمطبعة الاميرية بمصر سنة ١٣٣٢ هـ.

ثم رجع يوسف الى فاس فحاصرها حتى فتحها وهو الفتح الاول وذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة فاقام بها أياما واستعمل عليها عاملا من لمتونة وخرج الى بلاد غمارة ففتح الكثير منها حتى أشرف على طنجة وبها يومئذ الحاجب سكّوت البرغواطى من موالى بنى حمود .

ثم رجع الى منازلة قلعة فازاز فخالفه بنو معنصر بن حماد المغراوى الى فاس فدخلوها وقتلوا عامل يوسف الذى كان بها .

وكان مهدى بن يوسف الكزنائى - صاحب بلاد مكناسة - قد بايع يوسف بن تاشفين ودخل في طاعة المرابطين فأقره يوسف على عمله وأمره أن يخرج بين يديه بجيشه لفتح بلاد المغرب ، فجمع مهدى بن يوسف جيشه وخرج من مدينة عوسجة يريد الاجتماع بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة فازاز فسمع بذلك تميم بن معنصر المغراوى صاحب فاس فعاجله فى أنجاد مغراوة وقبائل زناتة وأدركه ببعض الطريق وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله ، وبعث برأسه الى الحاجب سكّوت صاحب سبتة وطنجة .

ولما قتل مهدى بن يوسف بعث أهل مدائن مكناسة الى ابن تاشفين بالخبر وبذلوا له الطاعة فملك بلادهم .

ثم توالت عساكر المرابطين على تميم بن معنصر بالغارات والنهب ، واشتد عليه الحصار وعدمت الاقوات بفاس ، فلما رأى ما نزل به من المرابطين جمع مغراوة وبنى يفرن وخرج اليهم لاحدى الراحتين فكانت عليه الهزيمة ، فقتل تميم وجماعة من عشيرته ، وتقدم مكانه بفاس القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم بن موسى بن أبى العافية المكناسى ، فجمع قبائل زناتة وخرج بهم الى المرابطين فالتقى معهم على وادى صيفير ، فكانت بينهم حرب شديدة انهزم فيها المرابطون وقتل جماعة من فرسانهم

واتصل الخبر بيوسف بن تاشفين وهو على قلعة فازاز فارتحل عنها وخلف جيشا من المرابطين لحصارها فاقاموا عليها تسع سنين ثم دخلوها صلحا سنة خمس وستين وأربعمائة .

ولما رحل يوسف عن قلعة فازاز وذلك سنة ست وخمسين سار الى بنى مراسن

ـ وأميرهم يومئذ يعلى بن يوسف ـ فغزاهم وقتل منهم خلقا وفتح بلادهم . ثم سار الى بلاد فندلاوة فغزاها وفتح جميع تلك الجهات . ثم سار منها الى بلاد ورغة ففتحها وذلك فى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة .

وفى سنة ستين فتح جميع بلاد غمارة وجبالها من الريف الى طنجة .

وفى سنة اثنتين وستين أقبل الى فاس فنزل عليها بجميع جيوشه بعد ان فرغ من جميع بلاد المغرب سوى سبتة ، وشدد الحصار على فاس حتى دخلها عنوة بالسيف فقتل بها من مغراوة وبنى يفرن ومكناسة وغيرهم خلقا كثيرا حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى وقتل منهم بجامع القرويين وجامع الاندلس ما يزيد على ثلاثة آلاف ! وفر من بقى منهم إلى احواز تلمسان وهذا هو الفتح الثانى لمدينة فاس وكان يوم الخميس ثانى جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين وأربعمائة وفى هذا الخبر بعض مخالفة لما قدمناه فى أخبار مغراوة وذلك نقلناه عن ابن خلدون وهذا عن ابن أبى زرع « وربك أعلم بمن هو اهدى سبيلا ».

فلما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس أمر بهدم الاسوار التى كانت فاصلة بين المدينتين عدوة القرويين وعدوة الاندلس وصيرهما مصرا واحدا وحصنها وأمر ببنيان المساجد فى شوارعها وأزقتها وأى زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب اهله وأمر ببناء الحمامات والفنادق والارحاء وأصلح بناءها ورتب أسواقها وأقام بها الى صفر من سنة ثلاث وستين وأربعمائة ثم خرج الى بلاد ملوية ففتح حصون وطاط .

وفى سنة أربع وستين بعدها استدعى يوسف أمراء المغرب وأشياخ القبائل من زناتة وغمارة والمصامدة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبايعوه وكساهم ووصلهم بالاموال ثم خرج للطواف على أعمال المغرب وتفقد أحوال الرعية والنظر فى سيرة ولاته وعماله فيها ـ وهم فى صحبته ـ فصلح على يده الكثير من أمور الناس .

وفى سنة خمس وستين بعدها غزا يوسف مدينة الدمنة من بلاد طنجة فدخلها عنوة وفتح جبل علودان .

وفى سنة سبع وستين وأربعمائة فتح يوسف جبال غياثة وبنى مكود وبنى رهينة وقتل منهم خلقا كثيرا . وفيها فرق عماله على بلاد المغرب فولى سير بن أبى بكر على

مدائن مكناسة وبلاد مكلاثة وفازاز ، وولى عمر بن سليمان على فاس وأحوازها ، وداود بن عائشة على سجلماسة ودرعة ، وولى ابنه تميم بن يوسف على مدينة مراكش واغمات وبلاد السوس والمصامدة وتادلا وتامسنا ، وصفا ملك المغرب ليوسف بن تاشفين سوى سبتة وطنجة وكان من خبرهما ما نذكره .

فتح سبتة (١) وطنجة وما ترتب عليه من الجهاد بالاندلس

كانت سبتة وطنجة لبنى حمود الادريسيين من لدن دولة الامويين بالاندلس ، ولما انقرضت دولتهم وخلفهم بنو حمود المذكورون بها استنابوا على سبتة وطنجة من وثقوا به من مواليهم الصقالبة ولم يزل أمر المدينتين الى نظر هؤلاء الدواب واحدا بعد واحد الى ان استقل بهما الحاجب سكوت البرغواطى .

وكان عبدا لشيخ حداد من موالى الحموديين اشتراه من سبى برغواطة فى بعض أيام جهادهم ، ثم صار الى على بن حمود فاحدث النجابة بصبعيه الى ان استقل بالامر واقتعد كرسى عملهم بطنجة وسبتة ، وأطاعته قبائل عمارة ، واتصلت أيام ولايته الى ان كانت دولة المرابطين وتغلب يوسف بن تاشفين على بلاد المغرب ، ونازل بلاد عمارة فدعا الحاجب سكوت الى مظاهرته عليهم ، فهم بالاجلاب معه ومظاهرته على عدوه ثم ثناه عن ذلك ابنه الفائل الرأى .

فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة وانقاد المغرب لطاعته صرف عزمه الى الحاجب سكوت .

وكان المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية قد كتب الى يوسف بن تاشفين يستدعيه للجواز برسم الجهاد ونصر البلاد فأجابه يوسف بقوله : « لا يمكنني ذلك إلّا اذا ملكت طنجة وسبتة ! » فراجعه ابن عباد يشير عليه بان يسير هو إليها بعسا كره فى البر فينازلها

---

(١) لم يذكر المؤلف داخل هذه الترجمة فتح سبتة وساقه فى الترجمة الموالية لها .

ويبعث ابن عباد قطائعه فى البحر فينازلوها أيضا حتى يتملكها. فأخذ يوسف فى محاولة ذلك وصرف عزمه إليه. ثم دخلت سنة سبعين وأربعمائة فجهز اليها قائده صالح بن عمران فى اثنى عشر ألف فارس من المرابطين وعشرين ألفا من سائر قبائل المغرب فلما قربوا من طنجة برز اليهم الحاجب سكوت بجموعه ــ وهو شيخ كبير قد ناهز التسعين سنة ــ وقال. « والله لا يسمع أهل سبتة طبول اللمتونى وأنا حى أبدا ! » فالتقى الجمعان بوادى منى من احواز طنجة والتحم القتال فقتل سكوت وفضت جموعه وسار المرابطون الى طنجة فدخلوها واستولوا عليها.

ولحق ضياء الدولة يحيى بن سكوت بسبتة فاعتصم بها وكتب القائد صالح بن عمران بالفتح الى يوسف.

وفى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلى بن تيلكان اللمتونى لغزو تلمسان والمغرب الاوسط فسار اليها فى عشرين ألفا من المرابطين. وكان بتلمسان يومئذ العباس بن بختى (١) من ولد يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر المغراوى فدوخوا المغرب الاوسط وتقروا بلاد زناتة وظفروا بيعلى بن الامير العباس ابن بختى فقتلوه، وانكفأوا راجعين إلى يوسف فألفوه بمراكش.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين فيها غير يوسف بن تاشفين السكة فى جميع عمله وكتب عليها اسمه.

وفيها فتح مدينة آكرسيف ومدينة مليلة وجميع بلاد الريف وفتح مدينة نكور وخربها فلم تعمر بعد.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وأربعمائة فيها زحف يوسف بن تاشفين الى مدينة وجدة ففتحها وفتح بلاد بنى يزناسن وما والاها. ثم سار الى تلمسان ففتحها واستلحم من كان بها من مغراوة وقتل أميرها العباس بن بختى المغراوى، وأنزل بها عامله محمد بن تينعمر المسوفى فى عساكر المرابطين فصارت ثغرا لمملكته، واختط بها مدينة تاكرارت

---

(١) الذى فى النسخة الصحيحة من ابن خلدون المطبوعة بالجزائر سنة ١٨٤٧ ميلادية فى صحيفة ٢٤٢ من الجزء الاول أنه يحيى بالياء والحاء المهملة.

بمكان محلته ـ وهو اسم المحلة بلسان البربر ـ ثم افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس وجميع أعمال شلف الى الجزائر وانكفأ راجعا الى المغرب فدخل مراكش فى ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وأربعمائة .

ثم ورد عليه بها كتاب المعتمد بن عباد يعلمه بحال بلاد الاندلس وما آل اليه أمرها من تغلب العدو على أكثر ثغورها ويسأله النصر والاعانة فأجابه يوسف بقوله : « اذا فتح الله على سبتة اتصلت بكم وبذلت جهدى فى جهاد العدو ! » وكان الفنس قد تحرك فى هذه السنة فى جيوش لا تحصى من الافرنج والبشكنس والجلالقة وغيرهم فشق بلاد الاندلس شقا يقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرب ويقتل ويسبى ثم يرتحل الى غيرها . ونزل على اشبيلية فاقام عليها ثلاثة أيام فافسد وخرب وكذلك فعل فى شدونة وأحوازها ، وخرب بشرق الاندلس قرى كثيرة ثم سار حتى وصل الى جزيرة طريف فادخل قوائم فرسه فى البحر وقال : « هذا آخر بلاد الاندلس قد وطئته ! » ثم رجع إلى مدينة سرقسطة فنزل عليها وحاصرها وحلف أن لا يرتحل عنها حتى يدخلها أو يحول الموت دونها ، وأراد أن يقدمها بالفتح على غيرها فبذل اليه أميرها المستعين بن هود مالا عظيما فلم يقبله منه وقال « المال والبلاد لى ! » وبعث الى كل قاعدة من قواعد الاندلس جيشا لحصارها والتضييق عليها ثم ملك مدينة طليطلة من يد صاحبها القادر بن ذى النون سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، فكان ذلك من أقوى الاسباب المحركة لعزائم المسلمين بالاندلس والمغرب على الجهاد .

الخبر عن الغزوة الكبرى بالزلاقة من أرض الاندلس

لما انقرضت دولة بنى أمية بالاندلس صدر المائة الخامسة بعد نزاع بين أعياصها شديد ، وقتال منهم عريض مديد ، وخلفتها الدولة الحمودية فلم يطل أمدها حتى اقتسمت رؤساء الاندلس مملكتها ، وتوزعوا أعمالها وصارت الحال إلى ما قال ابن الخطيب :

حتى إذا سلك الخلافة انتثر * وذهب العين جميعا والاثر
قام بكل بقعة مليك ! * وصاح فوق كل غصن ديك !!

فوجد العدو السبيل إلى الاستيلاء على ثغور المسلمين ، وانتهاز الفرصة فيها بالتضريب بين ملوكها واغراء بعضهم ببعض ، وكان منهم ابن عباد باشبيلية ، وابن الافطس ببطليوس ، وابن ذى النون بطليطلة ، وابن هود بسرقسطة ، ومجاهد العامرى بدانية ، وغير هؤلاء ، وكلهم يدارى الطاغية ويتقيه بالجزية إلى أن كان من أمر الادفونش ما كان من تخريب بلاد المسلمين ، واستيلائه على طليطلة بعد حصاره اياها سبع سنين ، ثم حصاره سرقسطة .

فلما رأى رؤساء الاندلس ما نزل بهم من مضايقة عدو الدين ، واستطالته على ثغور المسلمين ، أجمع رأيهم على اجازة يوسف بن تاشفين فكاتبه أهل الاندلس كافة من الخاصة والعلماء يستصرخونه فى تنفيس العدو عن مخنقهم ، ويكونوا معه يدا واحدة عليه .

فلما تواترت رسلهم وكتبهم عليه بعث ابنه المعز بن يوسف فى عساكر المرابطين الى سبتة فرضة المجاز فنازلها برا وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحرا فاقتحموها عنوة فى ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وأربعمائة وقبض على صاحبها ضياء الدولة يحيى بن سكوت البرغواطى وجىء به الى المعز أسيرا فقتله صبرا ، وبعث بكتاب الفتح الى أبيه وهو بفاس ينظر فى أمر الجهاد ويستعدله ، ففرح يوسف بفتح سبتة وخرج من حينه قاصدا نحوها ليعبر منها إلى الاندلس .

ولما سمع المعتمد بن عباد بفتح سبتة ركب البحر الى المغرب لاستنفار يوسف الى الجهاد ، فلقيه مقبلا ببلاد طنجة بموضع يعرف ببليطة على ثلاث مراحل من سبتة ، وقال ابن خلدون : لقيه بفاس ، فأخبره بحال الاندلس وماهى عليه من الضعف وشدة الخوف والاضطراب ، وما يلقاه المسلمون من عدوهم من القتل والاسر والحصار كل يوم . فقال له يوسف : « ارجع الى بلادك وخذ فى أمرك فانى على أثرك » فرجع ابن عباد الى الاندلس ونزل ليوسف عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجهاده ، ودخل يوسف سبتة فنظر فى أمرها وأصلح سفنها ، وقدمت عليه بها جنود الله من المغرب والصحراء والقبلة والزاب ، فشرع فى اجازتها الى الاندلس .

ولما تكاملت بساحل الخضراء عبر هو فى أثرها فى موكب عظيم من قواد المرابطين وانجادهم وصلحائهم، فلما استوى على ظهر السفينة رفع يديه وقال : « اللهم ان كنت تعلم ان فى جوازنا هذا صلاحا للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره وان كان غير ذلك فصعبه حتى لا نعبره » فسهل الله عليهم العبور فى أسرع وقت. وكان ذلك يوم الخميس عند الزوال، منتصف ربيع الاول سنة تسع وسبعين وأربعمائة، ونزل بالخضراء فصلى بها الظهر من يومه ذلك ولقيه المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية، وابن الافطس صاحب بطليوس وغيرهما من ملوك الاندلس.

واتصل الخبر بالادفونش وهو محاصر لسرقسطه فارتحل عنها وقصد نحو أمير المسلمين، وبعث الى ابن ردمير والبرهانس وغيرهما من كبار النصرانية، واستنفر أهل قشتالة وجليقية وسائر المجاورين له من أمم النصرانية، فاجتمع له منهم ما يفوت الحصر وصمد الى ابن تاشفين والمسلمين. هكذا وقع مساق هذه الغزوة عند ابن خلدون وابن أبى زرع وغيرهما.

وساقها ابن الاثير وابن خلكان وابن عبد المنعم الحميرى مساقا غير هذا. ولنذكر بعض ما نقلوه من ذلك فنقول : لما ملك يوسف بن تاشفين المغرب وبنى مراكش وتلمسان الجديدة، وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة، وتمهدت له الاقطار العريضة المديدة، تاقت نفسه إلى العبور لجزيرة الاندلس فهم بذلك وأخذ فى انشاء السفن والمراكب ليعبر فيها. فلما علم بذلك ملوك الاندلس كرهوا إلمامه بجزيرتهم، وأعدوا له العدة والعدد الا انهم استهولوا جمعه واستصعبوا مدافعته، وكرهوا أن يصبحوا بين عدوين : الفرنج عن شمالهم، والملثمين عن جنوبهم. وكانت الفرنج قد اشتدت وطأتها عليهم فتغير وتنهب وربما يقع بينهم صلح على شىء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين، والفرنج مع ذلك ترهب جانب ملك المغرب يوسف بن تاشفين اذ كان له اسم كبير وصيت عظيم، لنفاذ أمره ونقله دولة زناتة وملك المغرب اليه فى أسرع وقت، مع ما ظهر لابطال الملثمين ومشايخ صنهاجة فى المعارك من ضربات السيوف التى تقد الفارس، والطعنات التى تنظم الكلى، فكان لهم بذلك ناموس ورعب فى قلوب المتدبين لقتالهم.

وكان ملوك الاندلس يفيئون الى ظل يوسف ويحذرونه خوفا على ملكهم مهما عبر

إليهم وعاين بلادهم . فلما رأوا عزيمته متوفرة على العبور راسل بعضهم بعضا يستنجدون آراءهم فى أمره ، وكان فزعهم فى ذلك الى المعتمد بن عباد لانه أشجع القوم وأكبرهم مملكة . فوقع اتفاقهم على مكاتبته ـ وقد تحققوا أنه يقصدهم ـ يسألونه الاعراض عنهم وانهم تحت طاعته ، فكتب عنهم كاتب من أهل الاندلس يقول :

« أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز ، وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن ، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا فاختر لنفسك أكرم نسبتيك ! فإنك بالمحل الذى لايجوز ان تسبق فيه إلى مكرمة ! وان في استبقائك ذوى البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت ! والسلام . » فوصله الكتاب مع تحف وهدايا ـ وكان يوسف لايعرف اللسان العربى لكنه كان ذكى الطبع يجيد فهم المقاصد ـ وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية فقال له : « أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الاندلس يعظمونك فيه ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ويلتمسون منك أن لاتجعلهم في منزلة الاعادى فإنهم مسلمون ! وهم من ذوى البيوتات فلا تغير بهم وكف بهم من وراءهم من الاعداء الكفار ، وبلدهم ضيق لايحتمل العساكر ، فأعرض عنهم إعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب » فقال يوسف ابن تاشفين لكاتبه : « فما ترى أنت ؟ » فقال . « أيها الملك اعلم أن تاج الملك وبهجته وشاهده الذى لايرد بأنه خليق بما حصل فى يده من الملك أن يعفو إذا استعفى وان يهب إذا استوهب وكلما وهب جزيلا كان أعظم لقدره ! فإذا عظم قدره تأصل ملكه وإذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته ! وإذا كانت طاعته شرفا جاءه الناس ولم يتجشم المشقة إليهم ! وكان وارث الملك من غير اهلاك لآخرته ! واعلم ان بعض الملوك الاكابر والحكماء البصراء بطريق تحصيل الملك قال : « من جاد ساد ، ومن ساد قاد ، ومن قاد ملك البلاد ! » فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف فهمه وعلم صحته ، فقال للكاتب : « أجب القوم واكتب بما يجب فى ذلك واقرأ عليّ كتابك » فكتب الكاتب : « بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . تحية من سالمكم وسلم إليكم وحكمه التأييد والنصر فيمن حكم عليكم ،

وانكم مما بأيديكم من الملك فى اوسع اباحة ، مخصوصون منا بأكرم ايثار وسماحة ! فاستديموا وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا إخاءنا باصلاح إخائكم ! والله وليّ التوفيق لنا ولكم والسلام . » فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه فاستحسنه ، وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرق اللمط مما لايكون إلّا في بلاده ، وأنفذ ذلك إليهم ، فلما وصلهم ذلك وقرأوا كتابه فرحوا به وعظموه واعتزوا بولايته ، وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج ، وأزمعوا إن رأوا من الفرنج ما يريبهم أن يجيزوا إليه يوسف بن تاشفين ، ويكونوا من أعوانه عليه ، فتأتى ليوسف بن تاشفين برأى وزيره ما أراد من محبة أهل الاندلس له وكفاه حربهم .

وقال ابن الاثير فى الكامل : « كان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الاندلس ومتملكا لأكبر بلادها مثل قرطبة واشبيلية ، وكان مع ذلك يؤدى الضريبة إلى الادفونش كل سنة فلما تملك الاذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة على عادته ، فردها عليه ولم يقبلها منه ، ثم أرسل إليه يتهدده ويتوعده بالمسير إلى قرطبة وتملكها من يده إلّا أن يسلم إليه جميع الحصون التى فى الجبل ويبقى السهل للمسلمين . وكان الرسول فى جمع كثير نحو خمسمائة فارس ، فأنزله المعتمد وفرق أصحابه على قواد عسكره ، ثم أمر القواد أن يقتل كل منهم من عنده ، وأحضر الرسول فصفعه حتى برزت عيناه ، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر فعادوا إلى الاذفونش وأخبروه الخبر ، وكان متوجها إلى قرطبة ليحاصرها ، فلما بلغه هذا الخبر رجع إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار ويستعد استعدادا غير الذى سبق . وعاد المعتمد إلى اشبيلية وأقام بها وترك قرطبة بدون مدافع يدافع عنها .

وقال ابن عبد المنعم الحميرى فى كتابه الروض المعطار ما ملخصه : « ان المعتمد ابن عباد أخر فى سنة من السنين الضريبة التى كان يدفعها للاذفونش عن وقتها ، ثم أرسلها اليه بعد ، فغضب الاذفونش واشتط وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة وأمعن فى التجني ، حتى طلب ان تأتي زوجته الى الجامع الاعظم بقرطبة فتلد فيه اذ كانت حاملا ، وكان بالجانب الغربى من المسجد المذكور موضع كنيسة قديمة بنى المسلمون عليها المسجد ، فأشار عليه الاطباء والقسيسون أن تكون زوجته ساكنة قرب ولادتها بمدينة

الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر لدين الله وأبدع فى تشييدها وتنجيدها ، وتتردد المرأة مع ذلك الى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة وكان الرسول فى ذلك يهوديا وكان وزيرا للاذفونش ، فامتنع ابن عباد من ذلك فراجعه اليهودى وأغلظ له فى القول ولسعه بكلمة آسفته ! فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودى ، فأنزل دماغه فى حلقه وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة !

ولما سكن غضبه استفتى الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودى . فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة فى ذلك لتعدى الرسول حدود الرسالة الى ما استوجب به القتل إذ ليس له ذلك ! وقال للفقهاء : « انما بادرت بالفتوى خوفا ان يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو ، وعسى الله ان يجعل فى عزيمته للمسلمين خيرا . »

وبلغ الاذفونش ما صنعه ابن عباد ، فأقسم بآلهته ليغزونه باشبيلية وليحاصرنه فى قصره ، ثم زحف فى عسكرين أحدهما عليه والآخر على بعض قواده حتى نزل على ضفة النهر الاعظم باشبيلية قبالة قصر ابن عباد . وفى أيام مقامه هنالك كتب الى ابن عباد زاريا عليه : « كثر بطول مقامى فى مجلسى هذا علىّ الذباب ، واشتد الحر فأتحفنى من قصرك بمروحة أروح بها على نفسى وأطرد بها الذباب عن وجهى ! » فوقع له ابن عباد بخط يده فى ظهر الرقعة : « قرأت كتابك وفهمت خيلاءك واعجابك وسأنظر لك فى مراوح من جلود اللمط تروح منك لا عليك ان شاء الله ! » فلما وصلت رسالة ابن عباد الاذفونش وقرئت عليه وفهم مقتضاها أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال ، وفشا فى الاندلس توقيع ابن عباد ، وما أظهر من العزيمة على إجازة يوسف بن تاشفين والاستظهار به على العدو ، فاستبشر الناس وفرحوا بذلك ، وانفتحت لهم أبواب الآمال .

وأما ملوك طوائف الاندلس فلما تحققوا عزم ابن عباد وانفراده برأيه فى ذلك اهتموا منه ، فمنهم من كاتبه ومنهم من شافهه ، وحذروه عاقبة ذلك وقالوا له : « الملك عقيم ! والسيفان لا يجتمعان فى غمد ! » فأجابهم ابن عباد بكلمته التى صارت مثلا : « رعى الجمال خير من رعى الخنازير ! » ومعناه ان كونه مأكولا ليوسف بن تاشفين أسيرا يرعى جماله فى الصحراء خير من كونه ممزقا للاذفونش أسيرا له يرعى خنازيره

وقال لمن لامه : « يا قوم انى من أمرى على حالتين : حالة يقين ، وحالة شك ، ولابد لي من احداهما ، أما حالة الشك فإنى إن استندت إلى ابن تاشفين ، أو إلى الاذفونش ، ففى الممكن أن يفى لي ويبقى على وفائه ، ويمكن أن لا يفعل فهذه حالة شك . وأما حالة اليقين فإنى إن استندت إلى ابن تاشفين فإنى أرضى الله ! وان استندت إلى الاذفونش أسخطت الله ! فإذا كانت حالة الشك فيهما عارضة ، فلاى شىء أدع ما يرضى الله وآتى ما يسخطه ! » فحينئذ أقصر أصحابه عن لومه

ولما عزم ابن عباد على رأيه أمر صاحب بطليوس المتوكل على الله عمر بن الافطس وصاحب غرناطة عبد الله بن حبوس الصنهاجى ، أن يبعث إليه كل منهما قاضى حضرته ففعلا ، واستحضر قاضى الجماعة بقرطبة عبد الله بن محمد بن أدهم — وكان أعقل أهل زمانه — فلما اجتمع عند ابن عباد القضاة باشبيلية أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون وعرفهم أربعتهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين ، وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف وترغيبه فى الجهاد ، وأسند إلى الوزير ما لابد منه من ابرام العقود السلطانية .

وكان يوسف بن تاشفين لاتزال تفد عليه وفود ثغور الاندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء ناشدين بالله والاسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ، ووزراء دولته ، فيسمع إليهم ويصغى لقولهم وترق نفسه لهم .

ولما انتهت الرسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم وأكرم مثواهم ، وجرت بينه وبينهم مراوضات ، ثم انصرفوا إلى مرسلهم .

ثم عبر يوسف البحر عبورا سهلا حتى أتى الجزيرة الخضراء فخرج إليه أهلها بما عندهم من الاقوات والضيافات ، وأقاموا له سوقا جلبوا إليه ما عندهم من سائر المرافق ، وأذنوا للغزاة فى دخول البلد والتصرف فيها ، فامتلأت المساجد والرحاب بالمطوعة وتواصوا بهم خيرا » هذا مساق صاحب الروض المعطار .

وقال ابن الاثير « لما رجع المعتمد بن عباد إلى اشبيلية وترك قرطبة بدون مدافع وسمع مشايخها بما جرى من قتل ابن عباد لليهودى ، ورأوا قوة الفرنج وضعف المسلمين واستعانة بعض ملوكهم بالفرنج على بعض اجتمعوا وقالوا : « هذه بلاد الاندلس

قد غلب عليها الفرنج ولم يبق منها إلّا القليل ، وان استمرت الاحوال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت » وساروا إلى القاضى أبى بكر عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له : « ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة واعطائهم الجزيـة بعـد أن كانوا يأخذونها ! وقد رأينا رأيا نعرضه عليك » قال : « ما هو ؟ » قالوا . « نكتب إلى عرب افريقية ونشترط لهم إذا وصلوا إلينا قاسمناهم أموالنـا وخرجنا معهم مجـاهدين فى سبيل الله ! » قال : « أخاف إذا وصلوا إلينا أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بافريقية ! ويتركوا الفرنج ويبدؤا بنا ! والمرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا ! » قالوا لـه . « فكاتب يوسف بن تاشفين وارغب إليه فى العبور إلينا أو يرسل بعض قواده . »

وبينما هم يتفاوضون إذ قدم عليهم ابن عباد - وهم فى ذلك - فعرض عليه القاضى ابن أدهم ما كانوا فيـه . فقال له ابن عباد : « أنت رسولى إليه فى ذلك ! » فامتنع القاضى - وإنما أراد أن يبرىء نفسه من تهمة تلحقه - فألح عليه المعتمد ، فعبر القاضى البحر إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فأبلغه الرسالة وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف من الاذفونش - وكان أمير المسلمين يومئذ بمدينة سبتة - ففى الحال أمر بعبور العساكر إلى الاندلس ، وأرسل إلى مراكش فى طلب من بقى من عساكره ، فاقبلت اليه يتلو بعضها بعضا ، فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار ؛ فاجتمع بالمعتمد بن عباد باشبيلية .

وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضا ، وخرج من أهل قرطبة عسكر كبير ، وقصده المطوّعـة من سائر بلاد الاندلس . ووصلت الاخبار إلى الاذفونش فجمع عساكره وحشد جنوده ، وسار من طليطلة وكتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتابا كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يغلظ لـه فى القول ويصف ما معه من القوة والعـدد وبالغ فى ذلك . فلما وصل وقرأه يوسف أمر كاتبـه أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه - وكان كاتبا مفلقا - فكتب وأجاد ، فلما قرأه على أمير المسلمين قال : « هذا كتاب طويل » وأحضر كتاب الاذفونش وكتب على ظهره (الذى يكـون ستراه !) وأرسله إليـه فلما وقف عليه الاذفونش ارتاع له وعلم أنـه بلى برجل له دهاء وعزم »

وذكر ابن خلكان أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبر منها ما أعص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملا قط ولا خيلهم رأتها

قط ، فصارت الخيل تجمح من رؤيـة الجمال ورغائها ، وكان ليوسف في عبورها رأى مصيب ، فكان يحدق بها عسكره ويحضرها الحرب ، فـكانت خيل الفرنج تجمح منها »

وقدم يوسف بن تاشفين بين يديه كتابا للاذفونش يعرض عليه فيه الدخول فى الاسلام أو الجزية أو الحرب كما هى السنة ، ومن جملة ما فى الكتاب : « بلغنا يا أذفونش انك دعوت الله فى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر عليها البحر إلينا ، فقـد عبرناه إليك ، وقد جمع الله تعالى فى هذه العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبـة دعائك ! وما دعاء الكافرين إلّا فى ضلال ! » فلما سمع الاذفونش ما كتب إليه يوسف جاش بحر غيظه ، وزاد فى طغيانه ، وأقسم أن لا يبرح من موضعه حتى يلقاه .

ولنرجع الى كلام صاحب الروض المعطار قال رحمه الله : « فلما عبر يوسف وجميع جيوشه البحر الى الخضراء نهض الى اشبيلية على أحسن الهيئات جيشا بعد جيش وأميرا بعد أمير وقبيلا بعد قبيل . وبعث المعتمد ابنه الى لقاء يوسف وأمر عمال البلاد بجلب الاقوات والضيافات ورأى يوسف ما سره من ذلك ونشطه وتواردت الجيوش مـع أمرائها على اشبيلية .

وخرج المعتمد الى لقاء يوسف من اشبيلية فى مائة فارس من وجوه أصحابه ، فلما أتى محلـة يوسف ركض نحوهم وركضوا نحوه ثم برز اليه يوسف وحده والتقيـا منفردين وتصافحا وتعانقا ، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص وشكرا نعم الله ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر وتضرعا الى الله فى أن يجعـل ذلك خالصا لوجهه مقربا اليه . وافترقا فعاد يوسف لمحلته وابن عباد الى جهته . وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين

وباتوا تلك الليلة فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو اشبيلية ففعل ، ورأى الناس من عزة سلطانهم ما سرهم ولم يبق من ملوك الطوائف بالاندلس إلّا من بادر أو أعان ، وكذلك فعل الصحراويون مـع يوسف أهل كل صقع من أصقاعه رابطوا وكابدوا .

وكان الاذفونش لما رأى اجتماع العزائم على مناجزته علم أنه عام نطاح ! فاستنفر

الفرنجة للخروج ورفع القسيسون والرهبان والاساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم فاجتمع له من الجلالقة والافرنج ما لا يحصى عدده وجواسيس كل فريق تتردد من الجميع وبعث الاذفونش الى ابن عباد « ان صاحبكم يوسف قد تعنى بالمجيء من بلاده وخوص البحر وأنا أكفيه العناء فيما بقى ولا أكلفكم تعبا : أمضى اليكم وألقاكم فى بلادكم رفقا بكم وتوفيرا عليكم ! » وقال لخاصته وأهل مشورته · « انى رأيت أنى ان أمكنتهم من الدخول الى بلادى فناجزونى فيها وبين جدرها — وربما كانت الدائرة على — يستحكمون البلاد ويحصدون من فيها غداة واحدة ! ولكننى أجعل يومهم معى في حوز بلادهم فان كانت عليّ اكتفوا بما نالوه ، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلّا بعد أهبة أخرى فيكون فى ذلك صون لبلادى وجبر لمكاسرى ! وان كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفى بلادهم ما خفت أن يكون فيّ وفى بلادى إذا ناجزوني في وسطها ! » .

ثم برز بالمختار من جنوده وأنجاد جموعه على باب دربه وترك بقية جموعه خلفه وقال حين نظر الى ما اختاره منهم : « بهؤلاء أقاتل الجن والانس وملائكة السماء ! » فالمقلل يقول : « المختارون أربعون ألف دارع ولكل واحد أتباع ! » وأما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ويرون انهم أكثر من ذلك كله .

واتفق الكل ان عدد المسلمين كان أقل من عدد الكفار ! ورأى الاذفونش فى نومه كأنه راكب فيلا وبين يديه طبل صغير وهو ينقر فيه ، فقص رؤياه على القسيسين فلم يعرفوا تأويلها ، فأحضر رجلا مسلما عالما بتفسير الرؤيا فقصها عليه ، فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه . فقال : « تأويل هذه الرؤيا من كتاب الله تعالى وهو قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل ؟ » الى آخر السورة . وقوله تعالى : « فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير . » وذلك يقتضى هلاك هذا الجيش الذى تجمعه !» فلما اجتمع جيشه ورأى كثرته أعجبه فأحضر ذلك المعبر وقال له : « بهذا الجيش ألقى إله محمد صاحب كتابكم ! فانصرف المعبر وقال لبعض المسلمين : « هذا الملك هالك وكل من معه ! » وذكر الحديث : ثلاث مهلكات وفيه واعجاب المرء بنفسه ! » .

ثم خرج الاذفونش الى بلاد الاندلس وتقدم السلطان يوسف نحوه أيضا وتأخر ابن عباد لبعض مهماته ، ثم انزعج يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور ورؤساء الاندلس وجعل ابنه عبد الله على مقدمته ، وسار وهو ينشد متفائلا ببيت سائر ، مجيزا له بأبيات من شعره :

لابد من فرج قريب * يأتيك بالعجب العجيب
غزو عليك مبارك * سيعود بالفتح القريب
لله سعدك انه * نكس على دين الصليب
لابد من يوم يكو * ن له أخا يوم القليب

ووافت الجيوش كلها بطليوس فأناخوا بظاهرها ، وخرج اليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الافطس ، فلقيهم بما يجب من الضيافات والاقوات وبذل المجهود ثم جاءهم الخبر بشخوص الاذفونش اليهم »

وقال ابن أبى زرع : « ارتحل يوسف بن تاشفين من الخضراء قاصدا نحو الاذفونش وقدم بين يديه قائده أبا سليمان داود بن عائشة — وكان بطلا من الابطال — فى عشرة آلاف فارس من المرابطين ، بعد أن قدم أمامه المعتمد بن عباد مع أمراء الاندلس وجيوشهم منهم ابن صمادح صاحب المرية ، وابن حبوس صاحب غرناطة ، وابن مسلمة صاحب الثغر الاعلى ، وابن ذى النون ، وابن الافطس وغيرهم ، فأمرهم يوسف أن يكونوا مع المعتمد فتكون محلة ملوك الاندلس واحدة ، ومحلة المرابطين أخرى ، فتقدم بهم ابن عباد فكانوا إذا ارتحل ابن عباد من موضع نزله يوسف بمحلته ، فلم يزالوا كذلك حتى نزلوا مدينة طرطوشة ، فأقاموا بها ثلاثا وكتب منها يوسف إلى الاذفونش يدعوه إلى الاسلام أو الجزية أو الحرب ، وكان جواب الاذفونش ما تقدم ، ثم ارتحل يوسف وارتحل الاذفونش حتى نزلا معا بالقرب من بطليوس ، وكان نزول يوسف بموضع يعرف بالزلاقة(١) وتقدم المعتمد فنزل ناحية أخرى تحجز بينه وبين يوسف ربوة ، وبين المسلمين والفرنج نهر بطليوس حاجزا يشرب منه هؤلاء وهؤلاء ، فأقاموا ثلاثة أيام ، والرسل تختلف بينهم إلى أن وقع اللقاء على ما نذكره .

ولما ازدلف بعضهم إلى بعض أذكى المعتمد عيونه فى محلات الصحراويين خوفا عليهم

(١) ويسميه المسيحيون ساكرالياس هكذا : « Sacralias »

من مكايد الاذفونش - إذ هم غرباء لاعلم لهم بالبلاد - وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيل إن الرجل من الصحراويين كان لايخرج إلى طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلّا ويجد ابن عباد بنفسه مطيفا بالمحلة بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات . ثم قامت الاساقفة والرهبان ورفعوا صلبانهم ونشروا أناجيلهم وتبايعوا على الموت

ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما وقام الفقهاء والصالحون في الناس مقامالوعظ وحضوهم على الصبر والثبات وحذروهم من الفشل والفرار .

وجاءت الطلائع تخبر أن العـــدوّ مشرف عليهم صبيحة يومهم - وهو يوم الاربعاء - فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم فكعّ الاذفونش ورجع إلى إعمال المكر والخديعة . فعاد الناس إلى محلاتهم وباتوا ليلتهم . ثم اصبح يوم الخميس فبعث الاذفونش إلى ابن عباد يقول : « غدا يوم الجمعة وهو عيدكم والاحد عيدنا فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت ! » فعرف المعتمد بذلك السلطان يوسف وأعلمـــه أنها حيلة منه وخديعة وإنما قصده الفتك بنا يوم الجمعة . فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار . ويقال ان الاذفونش واعدهم ليوم الاثنين وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس كما أشــار ابن عباد .

وبعد مضى جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبى ، - وكان فى محلة ابن عباد - فرحا مسرورا يقول : « انه رأىالنبى صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فى النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة فىصبيحة تلك الليلة » فتــأهب ودعا وتضرّع ودهن رأسه وتطيب . وانتهى ذلك الى ابن عباد فبعث الى يوسف يخبره بها تحقيقا لما توقعه من غدر العدو الـكافر ، ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران انهما أشرفا على محلة الاذفونش ، وسمعا ضوضاء الجيش وخشخشة السلاح . ثم تلاحق بقية الطلائع محققين لتحرك الاذفونش ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول . « استرقنا السمع فسمعنا الاذفونش يقول لاصحابه : « ابنعباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وان كانوا أهل حفاظ وذوى بصائر فى الحرب فهم غير عارفـين بهذه البلاد . وانما قادهم ابن عباد فاهجموا عليه واصبروا له ، فان انـكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده . ولا أراه يصبر لكم ان صدقتموه الحملة » فعند ذلك بعث ابن عباد

الكاتب أبا بكر بن القصيرة الى السلطان يوسف يعرفه بإقبال الاذفونش ويستحث نصرته فمضى ابن القصيرة يطوى المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين فعرفه بجلية الامر فقال له: « قل له: انى سائر اليك ان شاء الله » وأمر يوسف بعض قواده أن يمضى بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها نارا ما دام الاذفونش مشتغلا مع ابن عباد.

وانصرف ابن القصيرة الى المعتمد فلم يصله إلّا وقد غشيته جنود الطاغية فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله. ومال الاذفونش عليه بجموعه وأحاطوا به من كل جهة فهاجت الحرب وحمي الوطيس. واستحر القتل فى أصحاب ابن عباد وصبر صبرا لم يعهد مثله، واستبطأ السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه وعضته الحرب واشتد عليه وعلى أصحابه البلاء وساءت الظنون وانكشف البعض منهم ــ وفيهم ابنه عبد الله بن المعتمد ــ وأثخن هو جراحات فى رأسه وبدنه وعقرت تحته فى ذلك اليوم ثلاث أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر وتذكر فى تلك الحالة ابنا له صغيرا يكنى: أبا هاشم. ــ وكان قد تركه باشبيلية عليلا ــ فقال:

أبا هاشم هشمتنى الشفار ٭ فلله صبرى لذاك الاوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج ٭ فلم يثننى ذكره للفرار

ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد يوسف بن تاشفين داود بن عائشة ــ وكان بطلا شهما، فنفس بمجيئه على ابن عباد ثم أقبل يوسف بعد ذلك ــ وطبوله قد ملأت أصواتها الجو ــ فلما أبصره الاذفونش وجه حملته اليه وقصده بمعظم جنوده فبادر اليهم السلطان يوسف وصدمهم صدمة ردتهم الى مركزهم وانتظم به شمل ابن عباد واستنشق الناس ريح الظفر وتباشروا بالنصر. ثم صدقوا جميعا الحملة فزلزلت الارض من حوافر الخيل وأظلم النهار بالعجاج وخاضت الخيل فى الدماء وصبر الفريقان صبرا عظيما

ثم تراجع ابن عباد الى يوسف وحمل معه حملة جاء معها النصر وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين وصدقوا الحملة فانكشف الطاغية ومر هاربا منهزما وقد طعن فى احدى ركبتيه طعنة بقى يخمع بها بقية عمره. قالوا: وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على فرس يومئذ أنثى يمر بين ساقات المسلمين وصفوفهم يحرضهم ويقوى نفوسهم على الجهاد ويحضهم على الصبر فقاتل الناس ذلك اليوم قتال

من يطلب الشهادة ويرغب فى الموت .

وعلى سياق ابن خلكان : « ان ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو فى يوم الاربعاء . وكان الموعـد بالمناجزة يوم السبت فغدر الاذفونش ومكر . فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد – والروم فى أثرها والناس على طمأنينة – فبادر ابن عباد للركوب وانبث الخبر فى العساكر ، فماجت بأهلها . ورجفت الارض ، وصارت الناس فوضى على غير تعبية ولا أهبة ودهمتهم خيل العدو ، فغمرت ابن عباد وحطمت ما تعرض لها وتركت الارض حصيدا خلفها . وصرع ابن عباد وأصابه جرح أشواه وفر رؤساء الاندلس وأسلموا محلاتهم وظنوا انـه وهى لا برقع ، ونازلة لا تدفـع . وظن الاذفونش ان أمير المسلمين فى المنهزمين ، ولم يعلم ان العاقبة للمتقين ، فتقـدم أمير المسلمين وأحدقت به انجاد خيله ورجاله من صنهاجة ورؤساء القبائـل ، وقصدوا محـلة الاذفونش فاقتحموها وقتلوا حاميتها ، وضربت الطبول ، وزعقت البوقات فاهتزت الارض وتجاوبت الجبال والآفاق ، وتراجع الروم الى محلتهم بعد ان علموا ان أمير المسلمين فيها فقصدوه فافرج لهم عنها ثم كر عليهم فأخرجهم منها ، ثم كروا عليه فأفرج لهم عنها . ولم تزل الكرات بينهم تتوالى الى ان أمر أمير المسلمين حشمه السودان ، فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ، ومزاريق الزان فخالطوا الخيل وطعنوها فرمحت بفرسانها وأحجمت عن أقرانها وتلاحـق الاذفونش بأسود نفدت مزاريقه فأهوى ليضربه بالسيف فلصق به الاسود وقبض على عنانه ! وانتضى خنجرا كان متمنطقا به فاثبته فى فخذه . فهتك حلق درعه وشك فخذه مع بداد سرجه . وكان وقت الزوال يوم الجمعة منتصف رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة . وهبت ريح النصر فأنزل الله سكينته على المسلمين ونصر دينه القويم وصدقوا الحملة على الاذفونش وأصحابه فأخرجوهم عن محلتهم فولوا ظهورهم وأعطوا اقفاءهم – والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم – الى أن لحقوا بربوة لجؤوا اليها واعتصموا بها وأحدقت بهم الخيل . فلما أظلم الليل انساب الاذفونش وأصحابه من الربوة وأفلتوا من بعد ما نشبت فيهم أظفار المنية ، واستولى المسلمون على ما كان فى محلتهم من الاثاث والآنية والمضارب والاسلحة وغير ذلك ، وأمر ابن عباد بضم رؤس قتلى المشركين فاجتمع من

ذلك تل عظيم » .

وقال صاحب الروض المعطـار : لجـأ الاذفونش الى تل كان يلي محلته فى نحو خمسمائة فارس ما منهم إلّا مكلوم . وأباد القتـل والاسر من عداهم من أصحابه ، وعمل المسلمون من رؤسهم مآذن يؤذنون عليها والمخذول ينظر الى موضـع الوقيعة ومكان الهزيمة فلا يرى إلّا نكالا محيطا به وباصحابه .

وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه وهناه وشكره وأثنى عليه ، وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن بلائه وسأله عن حاله عند ما أسلمته رجاله بانهزامهم عنه فقال له : « هاهم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك ! »

وكتب ابن عباد الى ابنه باشبيلية كتابا مضمونه : « كتابى هذا اليك من المحلة المنصورة يوم الجمعة منتصف رجب ، وقد أعز الله الدين ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح المبين وهزم الكفرة المشركين ، وأذاقهم العذاب الاليم ، والخطب الجسيم فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه المسرة العظيمة والنعمة الجسيمة فى تشتيت شمـل الاذفونش والاحتواء على جميـع عساكره اصلاه الله نكال الجحيم ، ولا أعدمه الوبال العظيم ، بعد اتيان النهب على محلاته واستئصال القتل بجميع ابطاله وحماته ، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، فلله الحمد على جميل صنعه ولم يصبنى والحمد لله الاجراحات يسيرة آلمت ، لكنها فرجت بعد ذلك فلله الحمد والمنة والسلام » .

واستشهد فى ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء ، مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة وقاضى مراكش ابى مروان عبد الملك المصمودى وغيرهما رحم الله الجميع » .

وحكى ان موضع المعترك كان على اتساعه ما فيه موضـع قدم إلّا على ميت أو دم .

وأقامت العساكر بالموضـع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم واستؤذن فى ذلك السلطـان يوسف فعف عنها وآثر بها ملوك الاندلس ، وعرفهم ان مقصوده الجهـاد والاجر العظيم ، وما عند الله فى ذلك من الثواب المقيم . فلما رأت ملوك الاندلس ايثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه وأحبوه وشكروا له صنعه وأمر أمير المسلمين بقطـع رؤوس القتلى وجمعها فقطعت وجمع بين يديه منها أمثال الجبال ، فبعث منها الى اشبيلية عشرة آلاف رأس ، والى قرطبة مثـل ذلك ، والى بلنسية مثلها ، والى سرقسطة ومرسية مثلها

وبعث الى بلاد العدوة أربعين ألف رأس ، فقسمت على مدن العدوة ليراها الناس فيشكروا الله على ما منحهم من النصر والظفر العظيم » .

قال ابن أبى زرع : « وفى هذا اليوم تسمى يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين ولم يكن يدعى به قبل ذلك ، وأظهر الله تعالى الاسلام وأعز اهله وكتب امير المسلمين بالفتح إلى بلاد العدوة وإلى تميم بن المعز الصنهاجى صاحب افريقية . فعملت المفرحات فى جميع بلاد افريقية والمغرب والاندلس ، واجتمعت كلمة الاسلام واخرج الناس الصدقات ، وأعتقوا الرقاب شكرا لله تعالى .

ولما بلغ الاذفونش الى بلاده وسأل عن أصحابه وأبطاله ففقدهم ولم يسمع إلّا نواح الثكالى عليهم اغتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك أسفا وغما ، وراح الى أمه الهاوية ، ولم يخلف إلّا بنتا واحدة جعل الامر اليها فتحصنت بطليطلة .

ورحل المعتمد الى اشبيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين فأقام يوسف بظاهر اشبيلية ثلاثة أيام . وورد عليه الخبر بوفاة ولده أبى بكر بن يوسف — وكان قد تركه مريضا بسبتة — فاغتم لذلك وانصرف راجعا الى العدوة ، وذهب معه ابن عباد يوما وليلة ، فعزم عليه يوسف فى الرجوع الى منزله ، وكانت جراحاته قد تورمت عليه ، فسير معه ولده عبد الله الى ان وصل البحر وعبر الى المغرب .

وكان أمير المسلمين عند مجيئه الى بلاد الاندلس وقصده ملاقاة الاذفونش قد تحرى المسير بالعراء من غير ان يمر بمدينة اورستاق حتى نزل الزلاقة تجاه الاذفونش وهناك اجتمع بعساكر الاندلس . قاله ابن خلكان .

ولما فرغ من الوقعة رجع عوده على بدئه كل ذلك تورع منه وتكرم وتخفيف عن الرعايا رحمه الله ورضى عنه .

ولما رجع ابن عباد الى اشبيلية جلس للناس وهنئ بالفتح ، وقرأت القراء وقامت على رأسه الشعراء فانشدوه . قال عبد الجليل بن وهبون : « حضرت ذلك اليوم وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه ، فقرأ قارئ : « إلّا تنصروه فقد نصره الله » فقلت : « بعدا لى ولشعرى ! والله ما أبقت لى هذه الآية معنى أحضره وأقوم به » . اهـ

ومن هنا اختلفت أقوال المؤرخين فى حال أمير المسلمين فى الجهاد ، فقيل انه لم

يرجع الى بلاد الاندلس بعد هذه المرة لكنه ترك قواده فيها ورسم لهم بالجهاد وشن الغارات على بلاد العدو . وقيل انه عاد اليها ثانيا وثالثا وعلى هذا القول فاختلفوا فى زمان ذلك العود وتاريخه . والله تعالى أعلم .

بقية اخبار امير المسلمين فى الجهاد

وما اتفق له مع ملوك الاندلس وكبيرهم ابن عباد

اعلم ان اقوال المؤرخين اختلفت فى أمر يوسف بن تاشفين بعد غزوة الزلاقة فحكى ابن خلكان وغيره أن أمير المسلمين لما عزم على النهوض إلى بلاد المغرب ترك قائده سير بن أبى بكر اللمتونى بأرض الاندلس وخلف معه جيشا برسم غزو الفرنج ، فاستراح سير بن أبى بكر أياما قلائل ثم دخل بلاد الاذفونش وشنّ الغارات فنهب وقتل وسبى وفتح الحصون المنيعة والمعاقل الصعبة وتوغل فى بلاد العدو وحصل على أموال جليلة وذخائر عظيمة ، ورتب رجالا وفرسانا فى جميع ما استولى عليه . وأرسل إلى السلطان يوسف بجميع ما حصله وكتب إليه يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال فى أضيق عيش وانكده وملوك الاندلس فى بلادهم واهليهم فى أرغد عيش وأطيبه وسأله مرسومه فكتب إليه « أن يأمرهم بالنقلة والرحيل إلى أرض العدوة فمن فعل فذاك ومن أبى فحاصره وقاتله ولا تنفس عليه ، ولتبدأ بمن والى الثغور منهم ، ولا تتعرض لابن عباد إلّا بعد استيلائك على البلاد وكل بلد أخذته فول عليه أميرا من عسكرك » فامتثل سير بن ابى بكر امره واستنزلهم واحدا بعد واحد حتى كان آخرهم ابن عباد فألحقه بهم ونظمه فى سلكهم على ما نذكره

وقال ابن ابى زرع : لما كانت سنة إحدى وثمانين واربعمائة جاز امير المسلمين إلى الاندلس الجواز الثانى برسم الجهاد . قال : وسبب جوازه ان الاذفونش لعنه الله لما هزم وجرح وقتلت جموعه عمد إلى حصن لبيط الموالى لعمل ابن عباد فشحنه بالخيل والرجال والرماة ، وامرهم ان يكونوا ينزلون من الحصن المذكور فيغيرون فى اطراف

بلاد ابن عباد دون سائر بلاد الاندلس ، إذ كان السبب فى جواز امير المسلمين إلى الاندلس فكانوا ينزلون من الحصن فى الخيل والرجل فيغيرون ويقتلون ويأسرون قد جعلوا ذلك وظيفة عليهم فى كل يوم . فساء ابن عباد ذلك وضاق به ذرعا . ثم عبر البحر إلى العدوة مستنفرا لامير المسلمين فلقيه بالمعمورة من حاق وادى سبو — وهذه المعمورة هى المسماة اليوم بالمهدية ، من احواز سلا — فشكا إليه حصن لبيط وما يلقاه المسلمون من أهله ، فوعده الجواز إليه ، فرجع المعتمد .

وسار يوسف فى أثره ، فركب البحر من قصر المجاز إلى الخضراء ، فتلقاه ابن عباد بها بألف دابة تحمل الميرة والضيافة ، فلما نزل يوسف بالخضراء كتب منها إلى أمراء الاندلس يدعوهم إلى الجهاد ، وقال لهم : « الموعد بيننا وبينكم حصن لبيط » ، ثم تحرك يوسف من الخضراء ، وذلك فى ربيع الاول من السنة المذكورة ، فنزل على حصن لبيط — وفى القاموس لبطيط كزنبيل بلد بالجزيرة الخضراء الاندلسية ، ولعله هو هذا — فلما نزله أمير المسلمين لم يأته ممن كتب إليه من امراء الاندلس غير ابن عبد العزيز صاحب مرسية ، وابن عباد صاحب اشبيلية فنازلا معه الحصن وشرعوا فى القتال والتضييق عليه .

وكان يوسف رحمه الله يشن الغارات على بلاد الفرنج كل يوم ودام الحصار على الحصن اربعة اشهر لم ينقطع القتال فيها يوما واحدا إلى ان دخل فصل الشتاء ووقع بين ابن عبد العزيز وابن عباد نزاع وشنآن ، فشكا المعتمد إلى أمير المسلمين ابن عبد العزيز فقبض عليه امير المسلمين وأسلمه إلى ابن عباد فاختل امر المحلة بسبب ذلك وفر جيش ابن عبد العزيز وقواده عنها وقطعوا الميرة عن المحلة ووقع بها الغلاء .

ولما علم الاذفونش بذلك حشد أمم النصرانية وقصد الى حماية الحصن فى أمم لا تحصى ، فلما قرب من الحصن انحرف له يوسف عنه الى ناحية لورقة ، ثم الى المرية ثم جاز الى العدوة وقد تغير على أمراء الاندلس لكونهم لم يأته منهم احد عندما دعاهم الى الجهاد ومنازلة الحصن .

ولما أفرج أمير المسلمين عن الحصن المذكور ، أقبل الاذفونش حتى نزل عليه فأخلاه مما كان فيه من آلة الحصار ومادته ، واخرج من كان فيه من بقية النصارى

المنفلتين من مخالب المنية . وعاد الى طليطلة فاستولى ابن عباد عليه بعد خلائه وفناء جميع حماته بالقتل والجوع سوى تلك الصبابة المنفلتة .

وكان فيه عندما نازله امير المسلمين اثنا عشر ألف مقاتل دون العيال والذرية ، فاتى عليهم القتل والجوع حتى لم يبق فيه سوى نحو المائة وهم المنفلتون منه عند إخلائه .

ثم لما كانت سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة جاز امير المسلمين الى الاندلس الجواز الثالث برسم الجهاد ؛ فسار حتى نزل على طليطلة وحاصر بها الاذفونش وشن الغارات باطرافها فاكتسحها وانتسف ثمارها وزروعها وخرب عمرانها وقتل وسبى ولم يأته من ملوك الاندلس احد . ولا عرج عليه منهم معرج فغاظه ذلك !

ولما قفل من غزو طليطلة عمد الى غرناطة فنازلها . وكان صاحبها عبد الله بن بلكين ابن باديس بن حبوس قد صالح الاذفونش وظاهره على أمير المسلمين ، وبعث اليه بمال واشتغل بتحصين بلده . وفى ذلك يقول بعض شعراء عصره :

يبنى على نفسه سفاها * كأنه دودة الحرير

دعوه يبنى ، فسوف يدرى * اذا أتت قدرة القدير

ولما انتهى أمير المسلمين الى غرناطة تحصن منه صاحبها عبد الله بن بلكين واغلق أبوابها دونه فحاصره امير المسلمين نحو شهرين . ولما اشتد عليه الحصار أرسل يطلب الامان فأمنه أمير المسلمين وتسلم منه البلاد فملكها ، وبعث بعبد الله وأخيه تميم بن بلكين صاحب مالقة الى مراكش مع حريمهما وأولادهما فاقاما بها وأجرى عليهما الانفاق الى ان ماتا بها .

ولما خلع امير المسلمين بنى باديس وملك غرناطة ومالقة وما اضيف إليهما خاف منه المعتمد بن عباد وانقبض عنه . ويقال : ان ابن عباد طمع فى غرناطة وان امير المسلمين يعطيه اياها فعرّض له بذلك فاعرض عنه أمير المسلمين فخاف ابن عباد منه وعمل على الخروج عليه ، ثم سعى بينهما الوشاة فتغير عليه امير المسلمين وعبر إلى العدوة فى رمضان سنة ثلاث وثمانين المذكورة .

ولما انتهى إلى مراكش ولى على الاندلس قائده سير بن ابى بكر اللمتونى وفوض إليه جميع امورها كلها ولم يأمره فى ابن عباد بشئ فسار سير بن ابى بكر نحو اشبيلية ،

وهو يظن ان ابن عباد إذا سمع به يخرج إليه ويتلقاه على بعد ويحمل إليه الضيافات على العادة فلم يفعل ، وتحصن منه ولم يلتفت اليه ! فراسله سير ابن أبي بكر أن يسلم اليه البلاد ويدخل في طاعة أمير المسلمين ، فامتنع ابن عباد فعند ذلك تقدم سير الى حصاره وقتاله . وبعث بعض قواده الى قرطبة ليحاصرها وبها يومئذ المأمون بن المعتمد ابن عباد ، فنازلها في عساكر المرابطين حتى فتحها يوم الاربعاء ثالث صفر سنة أربع وثمانين وأربعمائة . وقتل صاحبها المأمون بن المعتمد ثم فتح بياسة وأبدة وحصن البلاط والمدور والصخيرة وشقورة ، ولم ينقض شهر صفر المذكور حتى لم يبق لابن عباد بلد إلّا وقد ملكه المرابطون ما عدا قرمونة واشبيلية . ثم ارتحل سير بن أبي بكر الى قرمونة فنازلها حتى دخلها عنوة زوال يوم السبت السابع عشر من ربيع الاول من السنة المذكورة . فاشتد الامر على ابن عباد وطال عليه الحصار فبعث الى الاذفونش لعنه الله يستغيث به على لمتونة ويعده باعطاء البلاد وبذل الطارف والتلاد ان هو كشف عنه ما هو فيه من الحصار ! فبعث اليه الاذفونش قائده القومس في جيش من عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل .

فلما علم سير بقدوم الفرنج اليه انتخب من جيشه عشرة آلاف فارس من أهل الشجاعة والنجدة ، وقدم عليهم ابراهيم بن اسحق اللمتوني وبعثه للقاء الفرنج . فالتقى الجمعان بالقرب من حصن المدور فكانت بينهم حروب شديدة مات فيها خلق كثير من المرابطين ، ومنحهم الله النصر فهزموا الفرنج وقتلوهم حتى لم يفلت منهم الا القليل ،

ثم شد سير ابن أبي بكر في الحصار والتضييق على اشبيلية حتى اقتحمها عنوة وقبض على المعتمد وجماعة من أهل بيته ! فقيدهم وحملهم في السفين بنهر اشبيلية وبعث بهم إلى أمير المسلمين بمراكش . فأمر أمير المسلمين بإرسال المعتمد إلى مدينة اغمات فسجن بها واستمر في السجن إلى ان مات به لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وكان دخول سير بن أبي بكر مدينة اشبيلية يوم الاحد الثاني والعشرين من رجب سنة أربع وثمانين .

ثم ملك المرابطون بعد ذلك ما بقى من بلاد الاندلس إلى ان خلصت لهم ولم يبق لملوك الطوائف بها ذكر . وهذه الاخبار نقلناها عن ابن أبى زرع ممزوجة باليسير من كلام غيره واعتمدنا كلامه لانه موضوع بالقصد الاول لأخبار المغرب فيكون أعنى به من غيره

وفى تاريخ ابن خلدون بعض مخالفة لما مر . قال : « أجاز يوسف بن تاشفين البحر الى الاندلس الجواز الثانى سنة ست وثمانين وأربعمائة وتثاقل أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من نكيره عليهم لما يسومون به رعاياهم من الظلامات والمكوس وتلاحق المغارم ، فوجد عليهم . وعهد برفع المكوس وتحرى المعدلة » وقال أيضا : « ان الفقهاء بالاندلس طلبوا من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلامات عنهم ، فتقدم بذلك الى ملوك الطوائف فاجابوه بالامتثال . حتى اذا رجع عن بلادهم رجعوا الى حالهم . فلما أجاز ثانية انقبضوا عنه إلّا ابن عباد فإنه بادر الى لقائه وأغراه بالكثير منهم ! فتقبض على ابن رشيق البناء وأمكن ابن عباد منه للعداوة التى بينهما . وبعث جيشا الى المرية ، ففر عنها صاحبها ابن صمادح ونزل بجاية من أرض افريقية . وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكر أمير المسلمين ومحلاته . فساء نظره وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والاندلس بخلعهم وانتزاع الامر من ايديهم ، وسارت اليه بذلك فتاوى أهل المشرق الاعلام مثل الغزالى والطرطوشى وغيرهما .

فعمد إلى غرناطة واستنزل صاحبها عبد الله بن بلكين وأخاه تميما عن مالقة ، بعد أن كان منهما مداخلة للطاغية فى عداوة يوسف بن تاشفين ، وبعث بهما إلى المغرب. فخاف ابن عباد عند ذلك منه وانقبض عن لقائه ، وفشت السعايات بينهما . ونهض أمير المسلمين إلى سبتة فاستقر بها وعقد للامير سير بن أبى بكر على الاندلس وأجازه . فانتهى إليها ، وقعد ابن عباد عن تلقيه وميرته فأحفظه ذلك وطالبه بالطاعة لامير المسلمين والنزول عن الامر ، ففسد ذات بينهما ثم غلبه على جميع عمله . ثم صمد إلى إلى اشبيلية فحاصره بها واستنجد الطاغية . فعمد إلى استنقاذه من هذا الحصار فلم يغن عنه شيئا . وكان دفاع لمتونة مما فت فى عضده . واقتحم المرابطون اشبيلية عنوة سنة أربع وثمانين وأربعمائة . وتقبض سير على المعتمد وقاده أسيرا إلى

مراكش ، فلم يزل فى اعتقال يوسف بن تاشفين إلى أن هلك فى محبسه من أغمات سنة تسعين وأربعمائة .

ثم عمد إلى بطليوس وتقبض على صاحبها عمر بن الافطس فقتله وابنيه يوم الاضحى سنة تسع وثمانين واربعمائة بما صح عنده من مداخلتهم الطاغية وأن يملكوه مدينة بطليوس .

ورثاهم الاديب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون بقصيدته المشهورة التى يقول فى أولها :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر * فما البكاء على الاشباح والصور

وهى قصيدة غريبة فى منوالها وموضوعها ، عدد فيها أهل النكبات ، ومن عثر به الزمان بما يبكى منه الجماد . وتستشرف لسماعه الانجاد والوهاد

ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث الى الاندلس سنة تسعين وأربعمائة ، وزحف اليه الطاغية . فبعث أمير المسلمين عساكر المرابطين لنظر محمد بن الحاج اللمتونى ، فانهزم النصارى أمامه وكان الظهور للمسلمين .

ثم أجاز الامير يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وتسعين ، وانضم اليه محمد بن الحاج وسير بن ابى بكر ، فافتتحوا عامة الاندلس من أيدى ملوك الطوائف ، ولم يبق منها إلّا سرقسطة فى يد المستعين بن هود معتصما بالنصارى . وأغزى الامير مزدلى صاحب بلنسية إلى بلاد برشلونة فأثخن فيها ، وبلغ إلى حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع .

وانتظمت بلاد الاندلس فى ملكة يوسف بن تاشفين وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كأن لم يكن . واستولى أمير المسلمين على العدوتين معا واتصلت هزائم المرابطين على الفرنج مرارا والله غالب على أمره . » فهذا كلام ابن خلدون فى سياقه هذه الاخبار .

واعلم أنه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين حط من رتبة أمير المسلمين وغض عليه إما فى كونه كان بربريا من أهل الصحراء بعيدا عن مناحى الملك والادب ورقة الحاشية ، وإما فى كونه تحامل على ملوك الاندلس حتى فعل بهم ما فعل ، وذلك حيث عاين حسن بلادهم ورفاهية عيشهم .

واعلم ان هـذا الكلام جدير بالرد ، وأصله من بعض أدباء الاندلس الذين كانوا ينادمون ملوكها ويستظلون بظلهم ويغدون ويروحون فى نعمتهم ، فحين فعل أمير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل أخذهم من ذلك ما يأخذ النفوس البشرية من الذب عن الصديق والمحاماة عن القريب حتى باللسان ، وإلّا فقد كان أمير المسلمين رحمه الله من الدين والورع على ما قد علمت ، ومن ركوب الجادة وتحرى طريق الحق على الوصف الذى سمعت !

وهـذا ابن خلدون إمام الفن ومتحرى الصدق ، قد نقـل أن ملوك الانـدلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها ، ثم وصلوا أيديهم بالطاغية وبذلوا له الاموال فى مظاهرته اياهم على أمير المسلمين ، ثم لم يقدم على قتالهم واستنزالهم عن سرير ملكهم حتى تعددت لديـه فتاوى الائمة الاعلام من أهل المشرق والمغرب بذلك فافهم هذا واعرفه . والله تعالى يقابل الجميع بالعفو والصفح الجميل بمنه وكرمه .

بقية أخبار أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سوى ما تقدم

قال ابن خلكان : « كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حازما ، سائسا للامور ، ضابطا لمصالح مملكته ، مؤثرا لاهل العلم والدين ، كثير المشورة لهم » قال : « وبلغنى أن الامام حجة الاسلام أبا حامد الغزالى رحمه الله لما سمع ما هو عليه من الاوصاف الحميدة ، وميله الى أهل العلم ، عزم على التوجه اليه ، فوصل الى الاسكندرية وشرع فى تجهيز ما يحتاج اليه ، فجاء اليه الخبر بوفاته ، فرجع عن ذلك العزم » قال : « وكنت وقفت على هذا الفصل فى بعض الكتب وقد ذهب عنى فى هذا الوقت من أين وجدته »

وكان أمير المسلمين يوسف معتدل القـامة ، أسمر اللون ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، دقيق الصوت .

وكان يخطب لبنى العباس . وهو أول من تسمى بامير المسلمين . ولم يزل على حاله وعزه وسلطانه الى ان توفى يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة . وعاش

تسعين سنة ، ملك منها مدة خمسين سنة رحمه الله .

وقال ابن خلدون : « تسمى يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين ، وخاطب الخليفة لعهده ببغداد – وهو أبو العباس أحمد المستظهر بالله العباسى – وبعث اليه عبد الله بن محمد بن العربى المعافرى الاشبيلى ، وولده القاضى أبا بكر بن العربى الامام المشهور ، فتلطفا فى القول وأحسنا فى الابلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعقد لأمير المسلمين بالمغرب والاندلس ، فعقد له ، وتضمن ذلك مكتوب من الخليفة منقول فى أيدى الناس . وانقلبا اليه بتقليد الخليفة وعهده على مـا إلى نظره من الاقطار والاقاليم ، وخاطبه الامام الغزالى والقاضى أبو بكر الطرطوشى يحضانه على العدل والتمسك بالخير . ثم أجار يوسف بن تاشفين الجواز الرابع إلى الاندلس سنة سبع وتسعين وأربعمائة » اه كلام ابن خلدون .

وإنما احتاج أمير المسلمين الى التقليد من الخليفة المستظهر بالله - مع انه كان بعيدا عنه وأقوى شوكة منه - لتكون ولايته مستندة الى الشرع . وهذا من ورعه رحمه الله .

وإنما تسمى بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين أدبا مع الخليفة . حتى لا يشاركه فى لقبه ! لان لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة ، والخليفة من قريش كما فى الحديث فافهم .

ومن أخبار يوسف بن تاشفين أيضا مـا نقله غير واحد من الائمة ، ان أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المغربية والاندلسية المعاونة بشيء من المـال على مـا هو بصدده من الجهاد ، وأنه كتب الى قاضى المرية أبى عبد الله محمد بن يحيى -عرف بابن البراء- يأمره بفرض معونة المرية ، ويرسل بها اليه . فامتنع محمد بن يحيى من فرضها ، وكتب اليه يخبره بانه لا يجوز له ذلك . فاجابه أمير المسلمين بان القضاة عندى والفقهاء قد أباحوا فرضها ، وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد فرضها فى زمانه . فراجعه القاضى عن ذلك بكتاب يقول فيه : « الحمد لله الذى إليه مآبنا . وعليه حسابنا . وبعد ، فقد بلغنى ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخرى عن ذلك . وان أبا الوليد الباجى وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والاندلس أفتوه بان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اقتضاها ، فالقضاة والفقهاء إلى النار دون زبانية . فإن كان عمر اقتضاها فقد كان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووزيره وضجيعه فى قبره . ولايشك فى عدله ، وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بوزيره ولا بضجيعه

فى قبره ، ولا ممن لا يشك في عدله . فإن كان القضاة والفقهاء أنزلوك منزلته في العدل فالله تعالى سائلهم وحسيبهم عن تقلدهم فيك . وما اقتضاها عمر رضى الله عنه حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وحصر من كان معه من الصحابة رضى الله عنهم ، وحلف ان ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم واحد ينفقه عليهم . فليدخل أمير المسلمين المسجد الجامع بحضرة من هناك من أهل العلم ، وليحلف أن ليس عنده فى بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم . وحينئذ تجب معونته . والله تعالى على ذلك كله والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته . » فلما بلغ كتابه إلى أمير المسلمين وعظه الله بقوله ، ولم يعد عليه في ذلك قولا . والاعمال بالنيات .

وكان أمير المسلمين حين ورد عليه التقليد من الخليفة ضرب السكة باسمه ، ونقش على الدينار : « لا اله إلّا الله محمد رسول الله » وتحت ذلك : « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » وكتب على الدائرة : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه . وهو فى الآخرة من الخاسرين » وكتب على الصفحة الاخرى . « عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسى » وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته .

وكان ملكه قد انتهى الى مدينة افراغة من قاصية شرق الاندلس . والى مدينة أشبونة على البحر المحيط من غرب الاندلس ، وذلك مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما طولا . وفي العرض ما يقرب من ذلك .

وملك بعدوة المغرب من جزائر بنى مزغنة الى طنجة . الى آخر السوس الاقصى الى جبال الذهب من بلاد السودان .

ولم يرف بلد من بلاده ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا خراج ، لا فى حاضرة ولا فى بادية إلّا ما أمر الله به ، وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكوات والاعشار ، وجزيات أهل الذمة ، وأخماس الغنائم .

وقد جبى فى ذلك من الاموال على وجهها ما لم يجبه أحد قبله . يقال انه وجد فى بيت ماله بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق ، وخمسة آلاف وأربعون ربعا من مطبوع الذهب .

وكان رحمه الله زاهدا فى زينة الدنيا وزهرتها ، ورعا متقشفا ، لباسه الصوف ، لم

يلبس قط غيره . ومأكله الشعير ولحوم الابل وألبانها ، مقتصرا على ذلك ، لم ينتقل عنه مدة عمره على ما منحه الله من سعة الملك وخوله من نعمة الدنيا . وقد رد أحكام البلاد الى القضاة . وأسقط ما دون الاحكام الشرعية . وكان يسير فى أعماله بنفسه . فيتفقد أحوال الرعية فى كل سنة . وكان محبا للفقهاء وأهل العلم والفصل . مكرما لهم . صادرا عن رأيهم . يجرى عليهم أرزاقهم من بيت المال . وكان مع ذلك حسن الاخلاق متواضعا ، كثير الحياء جامعا لخصال الخير . رحمه الله تعالى ورضى عنه .

الخبر عن دولة أمير المسلمين أبى الحسن على بن يوسف ابن تاشفين اللمتونى

لما توفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى التاريخ المتقدم ، بايع الناس ابنه على ابن يوسف المذكور بمراكش بعهد من أبيه اليه ، وتسمى بأمير المسلمين .

وكان سنه يوم بويع ثلاثا وعشرين سنة . وملك من البلاد ما لم يملكه أبوه ، لانه صادف البلاد ساكنة . والاموال وافرة ، والرعايا آمنة بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة ، وسلك طريقة أبيه فى جميع أموره واهتدى بهديه ،

خروج يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين على عمه أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين

لما توفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سجاه ابنه على بن يوسف بثوبه ، وخرج الى المرابطين ــ ويده فى يد أخيه أبى الطاهر تميم بن يوسف ــ فنعى لهم أباه ، ثم وضع أبو الطاهر يده فى يد أخيه علي بن يوسف فبايعه . ثم قال للمرابطين : « قوموا فبايعوا أمير المسلمين ». فبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة ، وبايعه

الفقهاء وأشياخ القبائل ، فتمت له البيعة بمراكش ،

ثم كتب إلى سائر بلاد المغرب والاندلس وبلاد القبلة يعلمهم بوفاة أبيه واستخلافه من بعده ، ويأمرهم بالبيعة . فأتته البيعة من جميع البلاد ، وأقبلت نحوه الوفود للتعزية والتهنئة إلّا أهل مدينة فاس . فإن ابن أخيه يحيى بن أبى بكر بن يوسف كان أميرا عليها من قبل جده يوسف . فلما انتهى إليه الخبر بموت جده وولاية عمه عظم عليه ذلك وأنف من مبايعة عمه . فخرج عليه ووافقه على ذلك جماعة من قواد لمتونة ، فزحف إليه علي بن يوسف من مراكش ، حتى إذا دنا من فاس خاف يحيى بن أبى بكر على نفسه ، وعلم أنه لاطاقة له بحرب عمه . فأسلم فاسا لعمه . وخرج منها خائفا يترقب . فدخلها علي بن يوسف يوم الاربعاء الثامن من ربيع الآخر سنة خمسمائة . واستقام له الامر .

وقيل إن علي بن يوسف لما دنا من فاس نزل بمدينة مغيلة من أحوازها ، ثم كتب إلى ابن أخيه يعاتبه على ما ارتكبه من الخلاف . ويدعوه إلى الدخول فى الطاعة كما دخل الناس . وكتب كتابا آخر إلى أشياخ البلد يدعوهم فيه إلى بيعته ، ويتهددهم ويتوعدهم . فلما وصل الكتاب إلى يحيى وقرأه ، جمع أهل البلد واستشارهم في المقاتلة والحصار ، فلم يوافقوه . فلما يئس منهم خرج فارا إلى مزدلي بن تيلكان — وكان عاملا على تلمسان — فلقيه مزدلي بوادى ملوية مقبلا برسم البيعة لعلي بن يوسف . فأعلمه يحيى بما كان من شأنه ، فضمن له مزدلي عن عمه العفو والصفح ، فرجع معه حتى إذا وصلا إلى فاس ، دخل مزدلي على أمير المسلمين علي بن يوسف ، ونزل يحيى مستخفيا بحومة وادى شرذوع .

ولما اجتمع مزدلي بأمير المسلمين وسلم عليه ورأى منه اكراما وقبولا أعلمه بخبر يحيى ، وما ضمن له من العفو ، فأجابه إلى ذلك وعفا عنه وأمنه ! ثم جاء يحيى فبايعه ، وخيره أمير المسلمين بين أن يسكن بجزيرة ميورقة بشرق الاندلس أو ينصرف إلى بلاد الصحراء . فاختار الصحراء فانصرف إليها ، ثم سافر منها إلى الحجاز فحج البيت ورجع إلى عمه فاستأذنه أن يكون فى جملته ، ويكون سكناه معه بحضرة مراكش ، فأذن له فى ذلك فسكنها مدة ، ثم اتهمه عمه بالتشغيب عليه فثقفه ، وبعث به إلى الجزيرة الخضراء فاستمر بها إلى أن مات .

أخبار الــــولاة بالمغرب والأندلس

لما بويع أمير المسلمين علي بن يوسف عزل عن قرطبة الامير أبا عبد الله محمد بن الحاج اللمتوني ، وولى مكانه القائد أبا عبد الله محمد بن أبي زلفي، فغزا طليطلة ، وأوقع بالنصارى فقتلهم قتلا ذريعا بباب القنطرة أخذهم على غرة .

وفي سنة إحدى وخمسمائة عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف بن تاشفين عن بلاد المغرب ، وولى مكانه أبا عبد الله بن الحاج ، فأقام واليا على فاس وسائر أعمال المغرب نحو ستة أشهر . ثم عزله وولاه بلنسية وأعمالها من بلاد شرق الاندلس .

ولمـا عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف عن بلاد المغرب ولاه غرنـاطة وأعمالها من بلاد الاندلس . فكانت له على النصارى وقعة افليج . وذلك أنه خرج غازيا بـلاد الفرنج سنة اثنتين وخمسمائة فنزل حصن افليج – وبه جمـع عظيم من الفرنج – فحاصرهم حتى اقتحم عليهم الحصن ، فأرز النصارى إلى القصبة فتحصنوا بها ، وانتهى خبرهم إلى الفنش فاستعد للخروج لاغاثتهم . وأشارت عليه زوجته أن يبعث ولـده عوضا منـه ، لان تميم بن يوسف ابن ملك المسلمين ، وسانجة ابن ملك النصارى ، فامتثل إشارتها ، وبعث ولـده سانجة في جيش كثيف من زعماء الفرنج وأنجادهم . فسار حتى إذا دنـا من افليج أخبر تميم بن يوسف بمقـدمه ، فعزم على الافراج عن الحصن وأن لا يلقى الفرنج . فأشار عليه قواد لمتونة منهم عبد الله بن محمد بن فاطمة ومحمد ابن عائشة وغيرهم بالمقام . وشجعوه وهوّنوا عليه أمرهم ، فقالوا : « إنما قـدموا في ثلاثة آلاف فارس ، وبيننا وبينهم مسافة » . فرجع إلى رأيهم ، فلم يكن إلّا عشي ذلك اليوم حتى وافتهم جيوش الفرنج في ألوف كثيرة . فهم تميم بالفرار فلم يجد له سبيلا .

ثم صمم قواد لمتونة على مناجزة العدو ، وصمدوا إليه فكانت بينهم حرب عظيمة بَعد العهد بمثلها . فهزم الله تعالى العدوّ ونصر المسلمين ، وقتل ولد الفنش ، وقتل معه من الروم ثلاثة وعشرون ألفا ونيف . ودخل المسلمون افليج بالسيف عنوة ، واستشهد في هذه الوقعة جماعة من المسلمين رحمهم الله . واتصل الخبر بالفنش فاغتم لقتل ولـده

وأخذ بلده وهلاك جنده ، فمرض ومات أسفا لعشرين يوما من الوقعة . وكتب تميم ابن يوسف إلى أمير المسلمين بالفتح

واعلم أنه يقال فى ملوك الجلالقة الذين نسميهم اليوم الاصبنيول الاذفونش ، ويقال الفنش . فقال ابن خلكان : « الاذفونش بضم الهمزة وسكون الذال المعجمة وضم الفاء وسكون الواو بعدها نون ثم شين معجمة هو اسم لأكبر ملوك الافرنج وهو صاحب طليطلة » وقال ابن خلدون : « بنو اذفونش هم ولد اذفونش بن بطرة أول ملوك الجلالقة » اه . وأما قولهم الفونش فهو اسم علم لبعض ملوكهم . وليس لقبا لجميعهم .

وكان محمد بن الحاج رحمه الله مدة مقامه ببلنسية قد ضيق على النصارى تضييقا فاحشا بالغارات والنهب . فخرج فى غزاة له ذات مرة فأخذ على طريق البرية فغنم وسبى ، وكان معه جماعة من قواد لمتونة ، فبعث بالمغنم على الطريق الكبير . وأخذ هو على برية تقرب من بلاد المسلمين . وكان أكثر الناس مع المغنم وكان طريق البرية الذى أخذ عليه محمد بن الحاج لا يسلك إلّا على سرب واحد لصعوبته وشدة وعورته . فلما توسطه محمد بن الحاج وأخذته الاوعار والمضايق من بين يديه ومن خلفه وجد النصارى قد كمنوا له فى جهة من تلك الجهات . فقاتلهم قتال من أيقن بالموت واغتنم الشهادة ، إذ لم يجد منفذا يتخلص منه . فاستشهد رحمه الله واستشهد معه جماعة من المتطوّعة ، وتخلص منهم القائد محمد بن عائشة فى نفر يسير بحيلة أعملها .

واتصل خبر الوقعة بأمير المسلمين فآسفه موت أبى عبد الله بن الحاج ، وولى مكانه أبا بكر بن ابراهيم بن تافلوت . وهو ممدوح ابن خفاجة ومخدوم أبى بكر بن باجة الحكيم المعروف بابن الصائغ — وكان عاملا على مرسية — فوصل اليه العهد بالولاية على بلنسية وطرطوشة وما والاهما . وهو بمرسية . ثم خرج بجيش مرسية الى بلنسية ، فاجتمع اليه من كان بها من الجند . ثم زحف بهم الى برشلونة فنازلها ، وأقام عليها عشرين يوما ، فانتسف ما حولها وقطع ثمارها وحرب قراها . فأتاه ابن رذمير من قرابة الاذفونش فى جيوش كثيرة من حشود بسيط برشلونة وبلاد أربونة . فكانت بينهم حرب عظيمة مات فيها خلق كثير من الفرنج . واستشهد فيها من المسلمين نحو السبعمائة رحمهم الله تعالى .

أخبار أمير المسلمين علي بن يوسف في الجهاد
وجوازه الأول إلى بلاد الاندلس

لما دخلت سنة ثلاث وخمسمائة جاز أمير المسلمين علىّ بن يوسف بن تاشفين الى الاندلس برسم الجهاد . فعبر البحر من سبتة منتصف المحرم من السنة المذكورة فى جيوش عظيمة تزيد على مائة ألف فارس ، فانتهى الى قرطبة فأقام بها شهرا . ثم خرج منها غازيا الى مدينة طلايوت . ففتحها عنوة بالسيف . وفتح من أعمال طليطلة سبعة وعشرين حصنا ، وفتح مجريط (١) ووادى الحجارة ، وانتهى الى طليطلة فحاصرها شهرا وانتسف ما حولها . وبالغ فى النكاية . ثم قفل الى قرطبة بعد ان دوخ البلاد

وفى سنة أربع وخمسمائة فتح الامير سير بن أبى بكر شنترين ، وبطليوس ، ويابورة ، وبرتقال ، واشبونة ، وغير ذلك من بلاد غرب الاندلس . وكان ذلك فى شهر ذى القعدة من السنة المذكورة ، وكتب بالفتح الى أمير المسلمين .

وفى سنة سبع وخمسمائة توفى الامير سير بن أبى بكر باشبيلية ودفن بها ، وولى اشبيلية عوضا منه أبو عبد الله محمد بن فاطمة ، فلم يزل عليها إلى ان توفى سنة عشر وخمسمائة .

وفى سنة سبع المذكورة غزا الامير مزدلى طليطلة وأعمالها ، فدوخها وفتح حصن أرجنة عنوة ، فقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية . واتصل الخبر بالبرهانس - كبير الفرنج - فأقبل لنصرتهم واستنقاذهم ، فصمد القائد مزدلى للقائه ، ففر أمامه ليلا ، وعاد مزدلى الى قرطبة ظافرا غانما .

ثم كانت له فى الفرنج وقائع أخرى ، إلى أن توفى رحمه الله غازيا ببلاد الفرنج سنة ثمان وخمسمائة . فولى أمير المسلمين مكانه على قرطبة ابنه محمد بن مزدلي ، فأقام واليا عليها ثلاثة أشهر ، ثم توفى شهيدا فى بعض غزواته أيضا .

---

(١) هي المسماة اليوم مادريد دار ملك الاصبنيول . مؤلف

استيلاء العـــــدو على سرقسطة

كانت سرقسطة وأعمالها من شرق الاندلس بيد بنى هود الجذاميين ، تغلبوا عليها في صدر المائة الخامسة أيام الطوائف ، وتوارثوها إلى أن كان منهم أحمـد بن يوسف الملقب بالمستعين بالله ، فزحف إليه ابن رذمير سنة ثلاث وخمسمائة ، فخرج إليه المستعين فالتقوا بظاهر سرقسطة ، فانهزم المسلمون واستشهد منهم جماعـة منهم المستعين بن هود .

ثم لما كانت سنة اثنتى عشرة – وصاحب سرقسطة يومئذ عبد الملك بن المستعين بن هود الملقب بعماد الـدولة – زحف ابن رذمير إليها فنازلها وزحف الفنش أيضا فى أمم من النصرانية إلى لاردة من بلاد الجوف فنازلها . واتصل الخبر بأمير المسلمين ، فكتب إلى امراء غرب الاندلس يأمرهم بالمسير إلى أخيه تميم بن يوسف – وكان يومئذ واليا على شرق الاندلس – فيسيرون معه لاستنقاذ سرقسطة ولارِدة ، فقدم على تميم عبد الله ابن مزدلى وأبو يحيى بن تاشفين – صاحب قرطبـة – بعساكرهما ، فخرج تميم بن يوسف من بلنسية مـع أمراء الاندلس ، فصمد نحو لاردة ، وكان بينه وبين الفنش قتال عظيم أزعجه عن لاردة خاسئا صاغرا ، بعد ان بـذل جهده فى حصارها ، وأفقد من جيوشه عليها ما يزيد على العشرة آلاف فارس ، ورجع تميم إلى بلنسية .

ولمـا رأى ابن رذمير ذلك بعث إلى طوائف الافرنج يستصرخهم على سرقسطة ، فأتوا فى أمم كالنمل حتى نازلوها معـه وشرعوا فى القتال ، وصنعوا أبراجا من خشب تجرى على بكرات وقربوها منها ، ونصبوا فيها الرعادات ، ونصبوا عليها عشرين منجنيقا ، وقوي طمعهم فيها ، فاشتد الحصار واستمر حتى فنيت الاقوات وهلك أكثر الناس جوعا ، فراسل المسلمون الذين بها ابن رذمير على ان يرفع عنهم القتال إلى أجل ، فان لم يأتهم من ينصرهم أخلوا له البـلد وأسلموه اليه ، فعاهدهم على ذلك ، فتم الاجل ولم يأتهم أحـد ، فدفعوا اليه المـدينة وخرجوا إلى مرسية وبلنسية . وذلك سنة اثنتى عشرة وخمسمائة . وبعد استيلاء النصارى عليها وصل من بر العـدوة جيش فيه عشرة آلاف فـارس بعثه أمير المسلمين لاستنقاذها فوجدوها قد فرغ منها ونفذ حكم الله فيها .

وفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، تغلب ابن رذمير على بلاد شرق الاندلس ، وملك قلعة أيوب التى ليس فى بلاد شرق الاندلس أمنع منها . وألح بالغارات على بلاد الجوف ، فاتصلت هذه الاخبار بأمير المسلمين وهو بمراكش ، فجاز إلى الاندلس برسم الجهاد وضبط الثغور ، وهو جوازه الثانى ، فجاز معه خلق كثير من المرابطين والمتطوعة من العرب وزناتة والمصامدة وسائر قبائل البربر ، فوصل بجيوشه الى قرطبة ، ونزل خارجها ، وأتته وفود الاندلس للسلام عليه ، فسألهم عن أحوال بلادهم وثغورهم بلدا بلدا ، فعرفوه بما كان .

وعزل القاضى أبا الوليد بن رشد عن قضاء قرطبة ، وولى مكانه أبا القاسم بن حمدين ويقال انما عزل ابن رشد لانه استعفاه ، وكان قد اشتغل بتأليف البيان والتحصيل .

ثم سار أمير المسلمين حتى نزل على مدينة شنتمرية ففتحها عنوة ، وسار فى بلاد الفرنج يقتل ويسبى ويقطع الثمار ، ويخرب القرى والديار ، حتى دوخ بلاد غرب الاندلس ، وفر أمامه الفرنج وتحصنوا بالمعاقل المنيعة .

وفى سنة خمس عشرة وخمسمائة عاد أمير المسلمين إلى بلاد العدوة ، بعد أن ولى أخاه تميم بن يوسف على جميع بلاد الاندلس ، فلم يزل عليها الى أن توفى سنة عشرين وخمسمائة .

ولاية الأمير تاشفين بن على بن يوسف على بلاد الأندلس
وأخباره فى الجهاد

لما توفى الامير تميم بن يوسف فى التاريخ المتقدم ولى أمير المسلمين على بلاد الاندلس ابنه تاشفين بن على بن يوسف ، ماعدا الجزائر الشرقية . فانه قد عقد عليها لمحمد بن على المسوفى المعروف بابن غانية ، فعبر الامير تاشفين البحر الى الاندلس فى خمسة آلاف من الجند ، وبعث الى أجناد البلاد فأتوه فخرج بهم غازيا طليطلة ، ففتح بعض حصونها بالسيف وانتسف ما حولها .

وفى السنة المذكورة ، أعنى سنة عشرين وخمسمائة هزم الامير تاشفين النصارى بفحص الصباب وقتلهم قتلا ذريعا ، وفتح ثلاثين حصنا من حصون غرب الاندلس، وكتب بالفتح الى أبيه .

وفى سنة ثلاثين وخمسمائة هزم الامير تاشفين جموع الفرنج بفحص عطية ، وأفنى منهم خلقا كثيرا بالسيف .

وفى سنة احدى وثلاثين بعدها دخل الامير تاشفين مدينة كراى بالسيف ، فلم يبق بها بشرا .

وفى سنة اثنتين وثلاثين بعدها جاز الامير تاشفين من الاندلس الى المغرب ، بعد ان عزا مدينة أشكونية ففتحها عنوة ، وحمل معه من سبيها الى العدوة ستة آلاف سبية ، فانتهى الى مراكش ، وخرج أمير المسلمين للقائه فى زى عظيم وسرور كبير .

وفى سنة ثلاث وثلاثين بعدها أخذ أمير المسلمين البيعة لولده تاشفين .

وفى سنة سبع وثلاثين وخمسمائة كانت وفاة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين اللمتونى رحمه الله . وذلك لسبع خلون من رجب من السنة المذكورة . قال ابن خلكان : « كان أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين رجلا حليما ، وقورا ، صالحا ، عادلا ، منقادا الى الحق والعلماء ، تجبى اليه الاموال من البلاد ، ولم يزعزعه عن سريره قط حادث ولاطاف به مكروه » .

قلت قد طاف به فى آخر دولته أعظم مكروه ، وذلك محمد بن تومرت النابغ تحت ابطه بجبال المصامدة كما يأتى خبره ان شاء الله .

الخبر عن دولة أبي المعز تاشفين بن علي بن يوسف
ابن تاشفين اللمتوني

لما توفي أمير المسلمين علي بن يوسف في التاريخ المتقدم ولي بعده ابنه أبو المعز تاشفين بن علي بعهد من أبيه إليه ، وأخذ بطاعته وبيعته أهل العدوتين معا كما كانوا في عهد أبيه .

وكان أمر عبد المؤمن بن علي يومئذ قد استفحل بتينملل وسائر بلاد المصامدة أهل جبل درن . قال ابن الخطيب : « كان تاشفين بن علي قد استخلفه أبوه على بلاد الاندلس ، ثم استقدمه لمدافعة أصحاب محمد بن تومرت مهدي الموحدين . فلم ينجح أمره ، بخلاف ما عوده الله في بلاد الاندلس من النصر ، لما قضاه الله من الادبار على دولتهم » .

ولما خرج عبد المؤمن بن علي من تينملل يريد فتح بلاد المغرب - وكان مسيره على طريق الجبال - سير أمير المسلمين علي بن يوسف ابنه تاشفين المذكور معارضا له على طريق السهل ، وأقاموا على ذلك مدة توفي أمير المسلمين علي بن يوسف في أثنائها ، وأفضى الامر الى ابنه تاشفين وهو في الحرب .

وقدم أهل مراكش اسحق بن علي بن يوسف نائبا عن أخيه تاشفين بمراكش وأعمالها . ومضى تاشفين بعد البيعة له متبعا لعبد المؤمن حتى انتهيا الى تلمسان ، فنزل عبد المؤمن بكهف الضحاك بين الصخرتين من جبل تيطرى المطل عليها ، ونزل تاشفين بالبسيط مما يلي الصفصاف ، ووصله هناك مدد صنهاجة ، من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية ، مع قائده طاهر بن كباب ، لعصبية الصنهاجية . وفي يوم وصوله أشرف على عسكر الموحدين ، وكان يدل بإقدام وشجاعة . فقال لجيش لمتونة : « إنما جئتكم لاخلصكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا وأرجع الى قومي ! » فامتعض تاشفين لكلمته وأذن له في المناجزة ، فحمل على القوم فركبوا وصمموا للقائه ، فكان آخر العهد به وبعسكره . وكان الموحدون قد قتلوا قبل ذلك الروبرتير قائد تاشفين على الروم ، وقتلوا عسكره في بعض الغارات ، ثم فتكوا بعسكر ثالث من عساكر تاشفين ، ونالوا

منه أعظم النيل .

وفي القرطاس : «زحف المرابطون لقتال الموحدين فنهاهم تاشفين فلم ينتهوا ، وتعلقوا في الجبل لقتالهم ، فهبط عليهم الموحدون فهزموهم هزيمة شنعاء» .

ولما توالت هذه الوقائع على تاشفين أجمع الرحلة الى وهران . فبعث ابنه ابراهيم ولي عهده الى مراكش في جماعة من لمتونة ، وبعث كاتبا معه أحمد بن عطية ، ورحل هو الى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فأقام عليها شهرا ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون ، الى ان وصل اليه من المرية بعشرة أساطيل ، فأرسى قريبا من معسكره ، وزحف عبد المؤمن من تلمسان ، وبعث في مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى ، فقدموا وهران،وفضوا جموع المرابطين الذين بها . ولجأ تاشفين الى رابية هناك،فأحدقوا بها وأضرموا النيران حولها ، حتى إذا غشيهم الليل خرج تاشفين من الحصن راكبا على فرسه ، فتردى من بعض حافات الجبل ، وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة . ونجا فل العسكر الى وهران ، فانحصروا مع أهلها ، حتى جهدهم العطش ، ونزلوا جميعا على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة ، فأتى عليهم القتل رحمهم الله !

وقال في القرطاس : « ان تاشفين بن علي خرج ذات ليلة - وهو بوهران - ليضرب في محلة الموحدين، فتكاثرت عليه الخيل والرجل ، ففر أمامهم ، وكان بجبل عال مشرف على البحر ، فظن ان الارض متصلة به ، فأهوى من شاهق بإزاء رابطة وهران ، فمات رحمه الله . وكان ذلك في ليلة مظلمة ممطرة وهي ليلة السابع والعشرين من رمضان من السنة المذكورة آنفا . فوجد من الغد بازاء البحر ميتا ، فاحتز رأسه وحمل الى تينملل ، فعلق على شجرة هناك . وذلك بعد ملازمة الحرب مع الموحدين في البيداء ، لم يأو الى ظل قط من يوم بويع إلى أن مات . وكانت مدة ولايته سنتين وشهرا ونصف شهر » .

وقال ابن خلكان : لما تيقن تاشفين بن علي أن دولتهم ستزول أتى مدينة وهران - وهي على البحر - وقصد أن يجعلها مقره ، فإن غلب على الامر ركب منها إلى الاندلس . وكان في ظاهر وهران ربوة على البحر تسمى صلب الكلب ، وبأعلاها رباط يأوي اليه المتعبدون . وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

صعد تاشفين إلى ذلك الرباط ليحضر الختم في جماعة يسيرة من خواصه . وكان عبد المؤمن بجمعه في تاكرارت وهي وطنه . واتفق انه أرسل منسرا من الخيل الى وهران، فوصلوها في اليوم السادس والعشرين من رمضان ومقدمهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى - صاحب المهدى - فكمنوا عشية ، وأعلموا بانفراد تاشفين في ذلك الرباط ، فقصدوه وأحاطوا به وأحرقوا بابه . فأيقن الذين فيه بالهلاك . فخرج راكبا فرسه وشد الركض عليه ليثب الفرس النار وينجو ، فترامى الفرس نازيا لروعته ولم يملكه اللجام حتى تردى من حرف هنالك الى جهة البحر على حجارة في محل وعر ، فتكسر الفرس وهلك تاشفين في الوقت وقتل الخواص الذين كانوا معه ، وكان عسكره في ناحية أخرى لا علم لهم بما جرى في ذلك الليل . وجاء الخبر بذلك الى عبد المؤمن فوصل الى وهران . وسمى ذلك الموضع الذي فيه الرباط صلب الفتح . ومن ذلك الوقت نزل عبد المؤمن من الجبل الى السهل . ثم توجه الى تلمسان . وهي مدينتان قديمة وحادثة بينهما شوط فرس . ثم توجه الى فاس فحاصرها واستولى عليها سنة أربعين وخمسمائة . ثم قصد مراكش سنة احدى وأربعين بعدها فحاصرها أحد عشر شهرا وفيها اسحق بن على بن يوسف بن تاشفين وجماعة من مشايخ دولتهم . فقدموه بعد موت أبيه على بن يوسف نائبا عن أخيه تاشفين ، فاستولى عليها وقد بلغ القحط من أهلها كل مبلغ . وأخرج اليه اسحق بن على ومعه سير بن الحاج - وكان من الشجعان ومن خواص دولتهم - وكانا مكتوفين ، واسحق دون بلوغ ، فعزم عبد المؤمن أن يعفو عن اسحق لصغر سنه ، فلم يوافقه خواصه وكان لا يخالفهم ، فخلى بينهم وبينهما فقتلوهما . ثم نزل عبد المؤمن القصر وذلك سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة » .

وقال ابن خلدون : « أقام الموحدون على مراكش تسعة أشهر ، وأمير الملثمين يومئذ اسحق بن على بن يوسف ، بايعوه صبيا صغيرا عند بلوغ خبر أخيه ، ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا الى مدافعة الموحدين ، فانهزموا وتتبعهم الموحدون بالقتل واقتحموا عليهم المدينة في أخريات شوال سنة احدى وأربعين وخمسمائة وقتل عامة الملثمين ، ونجا اسحق في جملته وأعيان قومه الى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين

وأحضر اسحق بين يدى عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم، وتولى كبر ذلك أبو حفص عمر بن واكاك منهم وامحى أثر الملثمين، واستولى الموحدون على جميع البلاد والله غالب على أمره».

قال ابن جنون: كانت لمتونة أهل ديانة وصدق ونية خالصة وصحة مذهب، ملكوا بالاندلس من بلاد الافرنج الى البحر الغربى المحيط، ومن بلاد العدوة من مدينة بجاية الى جبل الذهب من بلاد السودان، وخطب لهم على أزيد من ألفى منبر بالتثمية. وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن. تناهى القمح فى أيامهم الى ان بيع أربعة أوسق بنصف مثقال، وبيعت الثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال، والقطانى لا تباع ولا تشترى، وكان ذلك مصحوبا بطول أيامهم. ولم يكن فى عمل من أعمالهم خراج ولا معونة ولا تقسيط، ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر. وكثرت الخيرات فى دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة، ولم يكن فى أيامهم نفاق ولا قطاع طريق، ولا من يقوم عليهم. وأحبهم الناس الى ان خرج عليهم محمد بن تومرت مهدى الموحدين سنة خمس عشرة وخمسمائة».

وأما الاحداث الواقعة فى أيامهم فمى شهر ذى الحجة من سنة سبع وستين وأربعمائة ظهر النجم المعكف بالمغرب.

وفى سنة احدى وسبعين وأربعمائة كسفت الشمس الكسوف الكلى الذى لم يعهد قبله مثله، وكان ذلك يوم الاثنين عند الزوال فى اليوم الثامن والعشرين من الشهر.

وفى سنة اثنتين وسبعين بعدها كانت الزلزلة العظيمة التى لم ير الناس مثلها بالمغرب، انهدمت منها الابنية، ووقعت الصوامع والمنارات، ومات فيها خلق كثير تحت الهدم. ولم تزل الزلزلة تتعاقب فى كل يوم وليلة من أول يوم من ربيع الاول الى آخر يوم من جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

وفى سنة أربع وسبعين وأربعمائة ولد الفقيه القاضى أبو عبد الله محمد بن أصبغ المعروف بابن المناصف صاحب الارجوزة.

وفى سنة سبع وتسعين وأربعمائة توفى الفقيه الحافظ أبو عبد الله محمد بن الطلاع.

وفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة توفى أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف

المعروف بابن النحوى بقلعة حماد . صحب أبا الحسن اللخمى وغيره من المشايخ ، وكان أبو الفضل من أهل العلم والدين على هدى السلف الصالح وكان مجاب الدعوة . ولما أفتى فقهاء المغرب باحراق كتب الشيخ أبى حامد الغزالى رضى الله عنه ، وأمر أمير المسلمين على بن يوسف بحرقها انتصر أبو الفضل هذا لابى حامد رحمه الله ، وكتب الى أمير المسلمين في ذلك . وحدث صاحب التشوف ـ وهو أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلى المراكشى الدار عرف بابن الزيات ـ بسنده عن أبى الحسن على بن حرزهم قال : لما وصل الى فاس كتاب أمير المسلمين على بن يوسف بالتحريج على كتاب الاحياء ، وأن يحلف الناس بالأيمان المغلظة ان كتاب الاحياء ليس عندهم ذهبت الى أبى الفضل أستفتيه فى تلك الأيمان فأفتانى بانها لا تلزم ! وكانت الى جنبه أسفار ، فقال لى : « هذه الاسفار من كتاب الاحياء ، ووددت انى لم أنظر فى عمرى سواها ! » وكان أبو الفضل قد انتسخ كتاب الاحياء فى ثلاثين جزءا فاذا دخل شهر رمضان قرأ فى كل يوم جزءا . ومناقبه كثيرة رحمه الله .

قلت : لم يقع فى دولة المرابطين أشنع من هذه النازلة وهى : احراق كتاب الاحياء فإنه لما وصلت نسخه الى بلاد المغرب تصفحها جماعة من فقهائه ، منهم القاضى أبو القاسم بن حمدين . فانتقدوا فيها أشياء على الشيخ أبى حامد رضى الله عنه ، وأعلموا السلطان بامرها ، وأفتوه بانها يجب احراقها ، ولا تجوز قراءتها بحال .

وكان على بن يوسف واقفا ـ كأبيه ـ عند اشارة الفقهاء وأهل العلم ، قد رد جميع الاحكام اليهم ، فلما أفتوه باحراق كتاب الاحياء كتب الى أهل مملكته فى سائر الامصار والافطار بان يبحث عن نسخ الاحياء بحثا أكيدا ، ويحرق ما عثر عليه منها ، فجمع من نسخها عدد كثير ببلاد الاندلس ، ووضعت بصحن جامع قرطبة وصب عليها الزيت ثم أوقد عليها بالنار ! وكذا فعل بما ألفى من نسخها بمراكش ، وتوالى الاحراق عليها فى سائر بلاد المغرب ! ويقال إن ذلك كان فى حياة الشيخ أبى حامد رحمه الله وانه دعا بسبب ذلك على المرابطين أن يمزق ملكهم ، فاستجيب له فيهم ! فان كان كذلك فتاريخ الاحراق يكون فيما بين الخمسمائة (١) والخمس بعدها ، لأن بيعة على بن

---

(١) وهو كذلك كما فى المعيار ذكر أنه فى سنة اثنتين أو ثلاث   مؤلف

يوسف كانت على رأس الخمسمائة ، ووفاة الشيخ أبي حامد الغزالي رضي الله عنه كانت يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة .

وفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة توفي الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي المعروف بابن العريف كان متناهيا في الفضل والدين والزهد في الدنيا ، منقطعا الى الخير يقصده الناس ويألفونه فيحمدون صحبته . وسعى به الى أمير المسلمين علي بن يوسف فأمر باشخاصه الى حضرة مراكش . فوصلها وتوفي بها ليلة الجمعة الثالث والعشرين من صفر من السنة المذكورة . واحتفل الناس لجنازته ، وندم أمير المسلمين على ما كان منه له في حياته ، وظهرت له كرامات رحمه الله ، ودفن بقرب الجامع القديم الذي بوسط مراكش في روضة القاضي موسى بن أحمد الصنهاجي

قلت : وقبره الآن مشهور بسوق العطارين من مراكش عليه بناء حفيل .

وفي هذه السنة أيضا أعني سنة ست وثلاثين وخمسمائة توفي أبو الحكم بن برّجان ، قال ابن خلكان : « هو أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي عرف بابن برجان بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء وبعدها جيم وبعد الالف نون ، وكان عبدا صالحا وله تفسير القرآن الكريم . وأكثر كلامه فيه على طريق أرباب الاحوال والمقامات » » اه .

وقال في التشوف : « لما أشخص أبو الحكم بن برجان (١) من قرطبة الى حضرة مراكش وكان فقهاء العصر انتقدوا عليه مسائل قال أبو الحكم : « والله لاعشت ولا عاش الذي أشخصني بعد موتي ! » يعني أمير المسلمين علي بن يوسف ، فمات أبو الحكم فأمر أمير المسلمين أن يطرح على المزبلة ولا يصلى عليه ، وقلد فيه من تكلم فيه من الفقهاء .

وكان أبو الحسن علي بن حرزهم يومئذ بمراكش ، فدخل عليه رجل أسود كان يخدمه ويحضر مجلسه ، فأخبره بما أمر به السلطان في شأن أبي الحكم . فقال له أبو الحسن :

---

(١) أنظر السبب في تغريب هذين الزاهدين من المرية إلى مراكش في كتاب اعمال الاعلام لابن الخطيب صفحة ٢٨٥ ، وفي المعجب للمراكشي صفحة ١٣٦ ، وفي لسان الميزان لابن حجر صفحة ٢٤٧ الجزء الاول .

« ان كنت تبيع نفسك من الله وافعل ما أقول لك » فقال له : « مرني بما شئت أفعله ! » فقال له : « تنادي في طرق مراكش وأسواقها : يقول لكم ابن حرزهم احضروا جنازة الشيخ الفقيه الصالح الزاهد أبي الحكم بن برجان ، ومن قدر على حضورها ولم يحضر فعليه لعنة الله » ففعل ما أمره ، فبلغ ذلك أمير المسلمين . فقال « من عرف فضله ولم يحضر جنازته فعليه لعنة الله ! » .

قال ابن عبد الملك في كتاب الذيل والتكملة : « أبو الحكم بن برجان مدفون بمراكش برحبة الحنطة منها » . قال : « وهو الذي تقول له العامة سيدي أبو الرجال » .

وكان الشيخ أبو ينور المشترائي موجودا في هذه المدة ، إلّا اني لم أقف على تاريخ وفاته . قال في التشوف : « هو أبو ينور عبد الله بن واكريس الدكالي من مشترايه من أشياخ أبي شعيب أيوب السارية ، كبير الشأن من أهل الزهد والورع . حدثوا عنه انه مات أخوه فتزوج امرأته فقدمت اليه طعاما يأكله فوقع في نفسه ان فيه نصيب الايتام الذين هم أولاد أخيه فأمسك عنه وبات طاويا. وجاءه رجل من أشياخ مشترايه فقال له : « ان عامل علي بن يوسف تهددني بالقتل والصلب وقد خرج من مراكش متوجها الى دكالة » فقال له أبو ينور : «رده الله عنك » فسار الى ان بقي بينه وبين قرية يليسكاون — وهي التي تسميها العامة بوسكاون — نصف يوم ، فأصاب العامل وجع قضى عليه من حينه » .

وفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ثار القاضي أبو القاسم بن حمدين بقرطبة مع العامة على المرابطين فقتلهم ، والله وارث الارض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

الـــدولة الموحدية

الخبر عن دولـــة الموحدين من المصامدة

وقيامها على يد محمد بن تومرت المعروف بالمهدى

قال ابن خلدون : « كان للمصامدة فى صدر الاسلام بجبال درن عـدد وقوة وطاعة للدين ومخالفة لاخوانهم بورغواطة في نحلة كفرهم ، وكان منهم قبل الاسلام ملوك وأمراء ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدى وقيامهم بدعوته . فكانت لهم دولة عظيمة أدالت من لمتونة بالعدوتين ، ومن صنهاجة بافريقية ، حسبما هو مشهور ويأتى ذكره ان شاء الله تعالى . قال : « وأصل المهدى من هرغة من بطون المصامـدة يسمى أبوه عبد الله وتومرت ، وكان يلقب فى صغره أيضا أمغار ، وزعم كثير من المؤرخـين أن نسبه فى أهل البيت ، فبعضهم ينسبه الى سليمان ابن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب ، وبعضهم ينسبه الى العباس بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، والله أعلم بحقيقة الامر » .

وكان أهل بيته أهل نسك ورباط ، وكانت ولادته على ما عند ابن خلكان يوم عاشوراء سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وشب المهـدى قارئا محبا للعلم . ثم ارتحل فى طلبه الى المشرق على رأس المائة الخامسة ، ومر بالاندلس ودخـل قرطبة وهى يومئذ دار علم . ثم لحق بالاسكندرية وحج ودخـل العراق ولقى به جملة من العلماء وفحول النظار وأفاد علما واسعا .

وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده . ولقى أبا حامد الغزالى وفاوضه بذات صدره فى ذلك فأراده عليه .

قال ابن خلكان : « اجتمع محمد بن تومرت بأبي حامد الغزالي ، والكيا الهراسي ، والطرطوشي وغيرهم ، وحج وأقام بمكة مدة مديدة ، وحصل قدرا صالحا من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين . وكان ورعا ناسكا متقشفا مخشوشنا مخلولقا ، كثير الاطراق ، بساما في وجوه الناس ، مقبلا على العبادة ، لا يصحبه من متاع الدنيا إلّا عصا وركوة . وكان شجاعا فصيحا في لساني العرب والبربر ، شديد الانكار على الناس فيما يخالف الشرع ، لا يقنع في أمر الله بغير اظهاره ، وكان مطبوعا على الالتذاذ بذلك ، متحملا للأذى من الناس بسببه . وناله بمكة ــ شرفها الله ــ شيء من المكروه من أجل ذلك ، فخرج منها الى مصر ، وبالغ في الانكار فزادوا في أذاه وطردته الدولة . وكان اذا خاف من البطش وايقاع الفعل به خلط في كلامه ، فينسب الى الجنون . فخرج من مصر الى الاسكندرية وركب البحر متوجها الى بلاده .

وكان قد رأى في منامه وهو في بلاد المشرق كأنه شرب ماء البحر جميعه كرتين ، فلما ركب السفينة شرع في تغيير المنكر على أهل السفينة ، وألزمهم اقامة الصلوات وقراءة أحزاب من القرآن العظيم ، ولم يزل على ذلك حتى انتهى الى المهدية من أرض افريقية ، وكان ملكها يومئذ يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وذلك في سنة خمس وخمسمائة . هكذا ذكره ابن أخيه أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم الصنهاجي في كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان . وقيل ان ارتحال محمد بن تومرت عن بلاد المشرق كان سنة عشر وخمسمائة . واجتيازه بمصر كان سنة احدى عشرة بعدها والله أعلم بالصواب .

ولما انتهى إلى المهدية نزل بمسجد مغلق وهو على الطريق ، وجلس في طاق شارع إلى المحجة ينظر إلى المارة ، فلا يرى منكرا من آلة الملاهي أو أواني الخمر إلّا نزل اليها وكسرها . فتسامع الناس به في البلد فجاءوا اليه وقرأوا عليه كتبا من أصول الدين ، فبلغ خبره الأمير يحيى ، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء . فلما رأى سمته وسمع كلامه أكرمه وأجله وسأله الدعاء ، فقال له : « أصلحك الله لرعيتك » . ولم يقم بعد ذلك بالمهدية إلّا أياما يسيرة ، ثم انتقل إلى بجاية فأقام بها مدة وهو على حاله في الانكار

فأخرج منها الى بعض قراها واسمها ملالة فوجد بها عبد المؤمن بن على المسوفى الكومى .

وقال ابن خلدون . انطوى المهدى راجعا الى المغرب بحرا متفجرا من العلم وشهابا واريا من الدين ، وكان قد لقى بالمشرق أيمة الاشعرية من اهل السنة واخذ عنهم ، واستحسن طريقهم فى الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة فى صدر أهل البدعة . وذهب الى رأيهم فى تأويل المتشابه من الآى والاحاديث بعد ان كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم فى التأويل والاخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف فى ترك التأويل واقرار المتشابهات كما جاءت فطعن المهدى أهل المغرب فى ذلك ، وحملهم على القول بالتأويل والاخذ بمذاهب الاشعرية فى كافة العقائد واعلن بامامتهم ووجوب تقليدهم . وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة في التوحيد .

وكان من رأيه القول بعصمة الامام على رأي الإمامية من الشيعة ، ولم تحفظ عنه فلتة في البدعة سواها ! واحتل بطرابلس الغرب معنيا بمذهبه ذلك مظهرا النكير على علماء المغرب في عدولهم عنه ، آخذا نفسه بتدريس العلم والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع . حتى ادى بسبب ذلك اذايات في نفسه احتسبها من صالح عمله .

ولما دخل بجاية وبها يومئذ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة وكان من المترفين ، فأغلظ له ولأتباعه بالنكير ، وتعرض يوما لتغيير بعض المنكرات في الطرق ، فوقعت بسببها هيعة نكرها السلطان والخاصة وائتمروا به . فخرج منها خائفا يترقب ، ولحق بملالة على فرسخ منها ، وبها يومئذ بنو وريا كل من قبائل صنهاجة وكان لهم اعتزاز ومنعة فآووه وأجاروه ، وطلبهم السلطان صاحب بجاية باسلامه إليه فأبوا واسخطوه ، وأقام بينهم يدرس العلم أياما وكان يجلس إذا فرغ على صخرة بقارعة الطريق قريبا من ديار ملالة . وهناك لقيه كبير أصحابه عبد المؤمن بن علي حاجا مع عمه ، فأعجب بعلمه وصرف عزمه إليه فاختص به وشمر للاخذ عنه .

وفى كتاب المعرب عن سيرة ملوك المغرب : ان المهدى كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم أهل البيت — يقال انه عثر عليه عند الشيخ أبى حامد الغزالى رضى الله عنه — وانه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الاقصى بمكان يسمى السوس ، وهو من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدعو إلى الله ، يكون مقامه ومدفنه بموضع

من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه ت ى ن م ل ل ، ورأى فيه أيضا ان استقامة ذلك الامر واستيلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن (١) ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة ، فأوقع الله سبحانه فى نفسه انه القائم بهذا الامر وأن أوانه قد أزف ، فما كان محمد يمر بموضع إلّا ويسأل عنه ، ولا يرى أحدا إلّا أخذ اسمه وتفقد حليته .

وكانت حلية عبد المؤمن معه ، فبينما هو فى الطريق رأى شابا قد بلغ أشده على الصفة التى معه فقال له محمد بن تومرت - وقد تجاوزه - . « ماسمك ياشاب ؟ » فقال : «عبد المؤمن» فرجع إليه وقال له . « الله أكبر ! أنت بغيتى » ! ونظر فى حليته فوافقت ماعنده ، فقال له : « من أين أقبلت ؟ » قال : « من كومية » قال : « أين مقصدك ؟ » فقال : « المشرق » قال : « ما تبغي ؟ » قال : « علما وشرفا » قال : « قد وجدت علما وشرفا وذكرا ! اصحبنى تنله ! » فوافقه على ذلك ، فألقى محمد إليه بأمره وأودعه سره .

قال ابن خلدون : « وارتحل المهدى إلى المغرب - وعبد المؤمن فى جملته - ولحق بوانشريس . فصحبه منها أبو محمد عبد الله الوانشريسي المعروف بالبشير » .

وقال ابن خلكان : « وكان جميلا فصيحا فى لغتي العرب والبربر ، ففاوضه المهدى فيما عزم عليه من القيام ، فوافقه على ذلك أتم موافقة . وكان البشير ممن تهذب وقرأ فقها ، فتذاكرا يوما فى كيفية الوصول إلى المطلوب ، فقال المهدى للبشير : « أرى أن تستر ما أنت عليه من العلم والفصاحة عن الناس ، وتظهر من العجز واللكن والحصر والتعرى عن الفضائل ما تشتهر به عند الناس ، لنتخذ الخروج عن ذلك واكتساب العلم والفصاحة دفعة واحدة سبيلا إلى المطلوب ! ويقوم لنا ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا إليه فنصدق فيما نقول » ففعل البشير ذلك .

ثم لحق المهدى بتلمسان وقد تسامع الناس بخبره فاحضره القاضى بها - وهو ابن

---

(١) راجع فى كتاب اخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين لأبي بكر الصنهاجي المطبوع بباريس على يد الاستاذ ليڤي بروڤانسال طبع كوتنير سنة ١٩٢٨ م ، كيفية اتصال عبد المومن بالمهدى فقد بسط الكلام فى ذلك ، صفحة ٥٥ من النص العربى وما بعدها

صاحب الصلاة — ووبخه على منتحله ذلك وعلى خلاءه لاهل قطره ، وظن القاضى ان من العدل نزعه عن ذلك . فصم عن قوله واستمر على طريقه إلى فاس . فنزل بمسجد طريانة وأقام بها يدرس العلم إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة . ثم انتقل إلى مكناسة فنهى بهـا عن بعض المنكرات ، فثار إليه الغوغاء وأوجعوه ضربا . ثم لحق بمراكش وأقام بها آخذا فى شأنه . ولقى بها أمير المسلمين علي بن يوسف بالمسجد الجامع عند صلاة الجمعة فوعظه وأغلظ لـــه في القول . ولقى ذات يوم أخت أمير المسلمين حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين فى زى نسائهم فوبخها ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريعه ، ففاوض أمير المسلمين الفقهاء في شأنه بما وصل إليه من سيرته ، وكانوا قد ملئوا منه حسدا وحفيظة لمـا كان ينتحل من مذهب الاشعرية في تأويل المتشابه ، وينكر عليهم جمـودهم على مذهب السلف في اقراره كما جاء ، ويرى ان الجمهور لقنوه تجسيما ، ويذهب إلى تكفيرهم بذلك على أحد قولي الاشعرية في التكفير ، فأغروا الامير بـه فأحضره للمناظرة معهم ، فكان له الفلج والظهور عليهم .

وقال ابن خلكان : كان محمد المهدى قـد استدنى أشخاصا من أهل المغرب جلادا فى القوى الجسمانية أغمارا . وكان أميل الى الاغمار من أولى الفطن والاستبصار فاجتمع له منهم ستة نفر سوى أبى محمد البشير . ثم انه رحل الى أقصى المغرب . وتوجه فى أصحابه الى مراكش — وملكها يومئذ أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين — وكان ملكا عظيما حليما ورعا عادلا متواضعا . وكان بحضرته رجل يقال له مالك بن وهيب (١) الاندلسى وكان عالما صالحا — زاد ابن خلدون عارفا بالنجوم — فشرع محمـد المهدى فى الانكار على جرى عادته حتى أنكر على ابنة الملك ، فبلغ خبره الملك ، وأنه يتحدث فى تغيير الدولة ، فتحدث مع مالك بن وهيب فى أمره ، فقال مالك ابن وهيب : «نخاف من فتح باب يعسر علينا سده . والرأى ان تحضر هذا الشخص وأصحابه لنسمع كلامهم بحضور

---

(١) راجع ما قاله المقرى فيه فى نفح الطيب ج ٢ ص ٩٢٥ وما ذكره أبو بكر الصنهاجي البيدن في كتابه اخبار المهدى وابتداء دولة الموحدين المطبوع بباريس سنة ١٩٢٨ م صفحة ٦٨ وما بعدها من النص العربى .

جماعة من علماء البلاد » ، فأجاب الملك إلى ذلك .

وكان المهدى وأصحابه مقيمين فى مسجد خراب خارج البلد ، فطلبوهم فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده : « سلوا هذا الرجل ما يبغى منا » فانتدب له قاضى المرية — واسمه محمد بن اسود — فقال : « ما هـذا الذى يذكر عنك من الاقوال فى حق الملك العادل الحليم المنقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله تعالى على هواه ؟ » فقال له المهدى : « أما ما نقل عنى فقد قلته ولى من ورائه أقوال ! وأما قولك انه يؤثر طاعة الله على هواه وينقاد إلى الحق فقد حضر اعتبار صحة هذا القول عنه ليعلم بتعريه عن هذه الصفة انه مغرور بما تقولون له وتصرونه به مع علمكم ان الحجة متوجهة عليه . فهل بلغك ياقاضى ان الخمر تباع جهارا ! وتمشى الخنازير بين المسلمين ! وتؤخذ أموال اليتامى ؟ » وعدد من ذلك شيأ كثيرا . فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياء ، ففهم الحاضرون من فحوى كلامه انه طامع فى المملكة لنفسه .

ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لقوله لم يتكلم أحد منهم . فقال مالك بن وهيب — وكان كثير الاجتراء على الملك — « أيها الملك إن عندى لنصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها وإن تركتها لم تأمن غائلتها » فقال الملك : « ما هي ؟ » فقال : « إني أخاف عليك من هذا الرجل وأرى ان تعتقله وأصحابه وتنفق عليهم كل يوم دينارا لتكفى شره ! وإن لم تفعل فلتنفقن عليه خزائنك كلها ، ثم لا ينفعك ذلك! » فوافقه الملك على رأيه ، فقال له وزيره : « يقبح بك أن تبكى من موعظة رجل ثم تسىء اليه فى مجلس واحد ! وان يظهر منك الخوف منه على عظم ملكك وهو رجل فقير لا يملك سدّ جوعته ! » فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره فصرفه وسأله الدعاء .

وقال ابن خلدون : كان مالك بن وهيب حزاء ينظر فى النجوم ، وكان الكهان يتحدثون بأن ملكا كائن بالمغرب فى أمة من البربر ، ويتغير فيه شكل السكة لقران بين الكوكبين العلويين من السيارة يقتضى ذلك ، فقال مالك بن وهيب : « احتفظوا بالدولة من الرجل فانه صاحب القران والدرهم المربع » . فطلبه على بن يوسف ففقده ، وسرح الخيالة فى طلبه ففاتهم .

وحكى صاحب المعرب : « ان المهدى لما خرج من عند أمير المسلمين لم يزل وجهه

تلقاء وجهه إلى أن فارقه فقيل له نراك قد تأدبت مع الملك اذ لم توله ظهرك ! فقال · « أردت أن لا يفارق وجهى الباطل حتى أغيره ما استطعت » اهـ كلامه .

فلما خرج المهدى وأصحابه من عند الملك قال لهم « لا مقام لكم هنا بمراكش مع وجود مالك بن وهيب فما نأمن أن يعاود الملك فى أمرنا فينالنا منه مكروه ، وان لنا بمدينة أغمات أخا فى الله فنقصد المرور به فلن نعدم منه رأيا ودعاء صالحا » واسم هذا الشخص عبد الحق بن ابراهيم وهو من فقهاء المصامدة . فخرجوا اليه ونزلوا عليه وأخبره محمد بن تومرت خبرهم وأطلعه على مقصدهم وما جرى لهم مع الملك . فقال عبد الحق : « هذا الموضع لا يحميكم ، وان أحصن المواضع المجاورة لهذا البلد تينملل وبيننا وبينها مسافة يوم فى هذا الجبل . فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى ذكركم » فلما سمع المهدى بهذا الاسم تجدد له ذكر اسم الموضع الذى رآه فى كتاب الجفر فقصده مع أصحابه .

وقال ابن خلدون « لما لحق المهدى باغمات غير المنكرات على عادته ، فأغرى به أهل أغمات على بن يوسف وطيروا اليه بخبره . فخرج منها هو وتلامذته الذين كانوا معه فى صحبته ، فلحق أولا بمسفيوة ثم بهنتاته ، ولقيه بها الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى - جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وافريقية - . ثم ارتحل المهدى عنهم إلى هرغة فنزل على قومه ، وذلك سنة خمس عشر وخمسمائة وبنى رابطة للعباد ، فاجتمع عليه الطلبة من القبائل ، وأخذ يعلمهم المرشدة له فى التوحيد باللسان البربرى وشاع أمره .

ثم داخل عامل لمتونة على السوس اناسا من هرغة فى قتله ، ونذر بهم اخوانهم ، فنقلوا المهدى الى معقل من أشياعهم ، وقتلوا من داخل فى أمره ، ودعوا المصامدة الى مبايعته على التوحيد ، وقتال المجسمة دونه ، سنة خمس عشرة وخمسمائة . فتقدم اليها رجالاتهم من العشرة وغيرهم ، وكان فيهم من هنتاتة أبو حفص عمر بن يحيى ، وأبو يحيى بن يكيت ، ويوسف بن وانودين ، وابن يغمور ، ومن تينملل أبو حفص عمر بن علي الصناكى ، ومحمد بن سليمان . وعمر بن تافراكين ، وغيرهم . وأوعبت قبيلة هرغة فدخلوا فى أمره كلهم ، ثم دخل معهم كدميوة وكنفيسة .

ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدى ، وكان قبلها يلقب بالامام ، وكان يسمي أصحابه الطلبة ،

و أهل دعوته الموحدين تعريضا بلمتونة فى أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم الى التجسيم .

ولما تم له من أصحابه خمسون سماهم آيت الخمسين ، ثم زحف اليهم عامل لمتونة على السوس ـ وهم بمكانهم من هرغة ـ فاستجاشوا اخوانهم من هنتاتة و تينملل ، فاجتمعوا إليهم و أوقعوا بعسكر لمتونة ، فكانت تلك باكورة الفتح ، و كان المهدى يعدهم بذلك فاستبصروا فى أمره ، و تسابقت كافتهم إلى الدخـول فى دعوته ، وترددت إليهم عساكر لمتونة مرة بعد أخرى ففضوهم ، وانتقل لثلاث سنين من بيعتـه إلى جبل تينملل فأوطنه وبنى داره و مسجده بينهم وحو الى منبع وادى نفيس، وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا له . هذا كلام ابن خلدون فى سياقه هذا الخبر جئنا به مختصرا .

و اقتضى كلام ابن خلكان أن ظهور المهدى ومبايعته لم تكن إلّا بتينمالل ، فإنه قال عقب ما سبق له من ان الفقيه عبد الحق بن ابراهيم المصمودى أشار على المهدي بالمسير إلى تينملل ، وان المهدي لما سمع هذا الاسم تجدد له ذكر فيه فقصده مع أصحابه ، فلما أتوه رآهم أهله على تلك الصورة فعلموا أنهم طلاب علم ، فقاموا إليهم وأكرموهم ، وتلقوهم بالترحاب ، وأنزلوهم فى أكرم منازلهم . وسأل أمير المسلمين عنهم بعد خروجهم من مجلسه ، فقيل له ، إنهم سافروا . فسره ذلك وقال ، « تخلصنا من الاثم بحبسهم! » . ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول المهدى إليهم . وكان قد سار فيهم ذكره فجاءوه من كل فج عميق . وتبركوا بزيارته . وكان كل من أتاه استدناه وعرض عليه ما فى نفسه من الخروج على السلطان ، فإن أجابه أضافه إلى خواصه ، وإن خالفه أعرض عنه . وكان يستميل الاحداث وذوى الغرة ! وكان ذوو الحنكة والعقـل والحلم من أهاليهم ينهونهم ويحذرونهم من اتباعه ، ويخوفونهم سطوة السلطان ، فكان لا يتم له مع ذلك أمر . وطالت المدة وخاف المهدى من مفاجأة الاجل قبل بلوغ الامل ، وخشي أن يطرأ على أهـل الجبل من جهـة الملك ما يحوجهم إلى اسلامه إليه والتخلي عنه ، فشرع فى اعمال الحيلـة فيما يشاركونـه فيه ليعصوا على الملك بسببه ، فرأى بعض أولاد القوم شقرا زرقـا وألوان آبائهم السمرة والكحل ! فسألهم عن سبب ذلك ، ولم يجيبوه ، فألزمهم الاجابة ، فقالوا ، « نحن من رعية هذا الملك وله علينا خراج ، وفى كل سنة تصعد مماليكه إلينا وينزلون فى بيوتنا ويخرجوننا عنها . ويختلون بمن فيها

من السماء ، فتأتى اولادنا على هذه الصفة ! وما لنا قدرة على دفع ذلك عنا » فقال المهدي : « والله إن الموت خير من هـذه الحياة ، وكيف رضيتم بهذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالرمح ؟ » فقالوا : « بالرغم لا بالرضا » فقال : « أرأيتم لو أن ناصرا نصركم على اعدائكم ما كنتم تصنعون ؟ » قالوا : « كنا نقدم أنفسنا بين يديه للموت » ثم قالوا : « ومن هو ؟ » قال : « ضيفكم ! » يعنى نفسه . فقالوا : « السمع والطاعة » وكانوا يغالون فى تعظيمه ، فأخذ عليهم العهود والمواثيق ، واطمأن قلبه ، ثم قال لهم : « استعدوا لحضور هؤلاء بالسلاح ، فإذا جاءوكم فأجروهم على عادتهم ، وخلوا بينهم وبين النساء ، وميلوا عليهم بالخمور ، فإذا سكروا فآذنونى بهم ! »

ولما حضر المماليك وفعل بهم أهـل الجبل ما أشار به المهدى ــ وكان ذلك ليلا ــ أعلموه بذلك ، فأمر بقتلهم كلهم ، فلم يمض من الليل ساعة حتى أتوا على آخرهم . ولم يفلت منهم سوى مملوك واحـد ــ كان خارج المنازل لحاجة له ــ فسمع التكبير عليهم والايقاع بهم ، فهرب على غير الطريق حتى خلص من الجبل . ولحق بمراكش فأخبر الملك بما جرى . فندم على فوات محمد بن تومرت من يده ، وعلم ان الحزم كان مع مالك ابن وهيب فيما أشار به . فجهز من وقته خيلا بمقدار ما يسع وادى تينملل ، فإنه ضيق المسلك .

وعلم المهدى انه لابد من عسكر يصل اليهم ، فأمر أهل الجبل بالقعود على أنقاب الوادى ومراصده . واستنجد لهم ببعض المجاورين ، فلما وصلت الخيـل اليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبى الوادى مثل المطر ، وكان ذلك من أول النهار إلى آخره ، وحال بينهم الليل ، فرجع العسكر الى الملك وأخبروه بما تم لهم ، فعلم انه لا طاقة له بأهل الجبل لتحصنهم ، فأعرض عنهم .

وتحقق المهدى ذلك منه وصفت له مودة أهل الجبل ، فعند ذلك استدعى أبا محمد البشير وقال له : « هذا أوان اظهار فضائلك دفعة واحدة ليقوم لك مقام المعجزة ! لنستميل بذلك قلوب من لم يدخل فى الطاعة » . ثم اتفقا على أنه يصلي الصبح ويقول بلسان فصيح ــ بعد استعمال العجمة واللكنة فى تلك المدة ــ : « انى رأيت البارحة فى منامى أنه نزل الىّ ملكان من السماء وشقا فؤادي وغسلاه وحشواه علما وحكمة

وقرآنا ! » فلما أصبح فعل ذلك - وهو فصل يطول شرحه - فانقاد له كل صعب القياد ، وعجبوا من حاله وحفظه القرآن في النوم ، فقال له محمد بن تومرت : « فعجل لنا بالبشرى في أنفسنا ، وعرفنا أسعداء نحن أم أشقياء » فقال له « أما أنت فانك المهدى القائم بأمر الله ومن تبعك سعد ومن خالفك هلك » ثم قال « اعرض أصحابك عليّ حتى أميز أهل الجنة من أهل النار » وعمل في ذلك حيلة قتل بها كل من خالف أمر محمد بن تومرت ، وأبقى من أطاعه . وشرح ذلك يطول .

وكان غرضه ان لا يبقى في الجبل مخالفا لهم ، فلما قتل من قتل علم محمد بن تومرت ان في الباقين من له أهل وعشيرة قتلوا وانهم لا تطيب نفوسهم بذلك . فجمعهم وبشرهم بانتقال ملك مراكش اليهم واغتنام أموالهم ، فسرهم ذلك وسلاهم عن اهلهم . وبالجملة فإن تفصيل هذه الواقعة طويل ولسنا بصدد ذلك

وخلاصة الامر : ان محمد بن تومرت لم يزل حتى جهز جيشا عدد رجاله عشرة آلاف بين فارس وراجل ، وفيهم عبد المؤمن بن علي ، وأبو محمد البشير وأصحابه كلهم وأقام هو بالجبل فنزل القوم لحصار مراكش وأقاموا عليها شهرا . ثم كسروا كسرة شنيعة وهرب من سلم منهم من القتل .

وكان فيمن سلم عبد المؤمن ، وقتل البشير وبلغ الخبر المهدي - وهو بالجبل - وقد حضرته الوفاة قبل عود أصحابه اليه ، فأوصى من حضر ان يبلغ الغائبين : « ان النصر لهم ، وان العاقبة حميدة ، فلا يضجروا وليعاودوا القتال ، فان الله سبحانه وتعالى سيفتح على أيديهم ، وان الحرب سجال . وانكم ستقوون ويضعفون ، ويقلون وتكثرون ، وأنتم في مبدإ أمر وهم في آخره » وأشباه هذه الوصايا وهي وصية طويلة اه كلام ابن خلكان .

وقال ابن خلدون : لما كان شأن أبي محمد البشير وميز الموحد من المنافق اعتزم المهدى على غزو لمتونة ، فجمع كافة أهل دعوته من المصامدة وزحف اليهم فلقوه بكيكب ، وهزمهم الموحدون واتبعوهم الى أغمات فلقيتهم هنالك زحوف لمتونة مع أبي بكر بن علي بن يوسف وابراهيم بن تاعماشت . فهزمهم الموحدون وقتل ابراهيم وحده ، واتبعوهم الى مراكش فنزلوا البحيرة في زهاء أربعين ألفا كلهم راجل إلّا أربعمائة فارس . واحتفل

على بن يوسف فى الاحتشاد وبرز اليهم لاربعين من نزولهم : خرج عليهم من باب آيلان فهزمهم وأثخن فيهم قتلا وسبيا . وفقـد البشير واستحر القتل فى هيلانة ، وأبلى عبد المؤمن فى ذلك اليوم أحسن البلاء . وقيل للمهدى : « ان الموحدين قد هلكوا » فقال لهم : « ما فعل عبد المؤمن ؟ » قالوا : « هو على جواده الادهم قد أحسن البـلاء » فقال . « ما بقى عبد المؤمن فلم يهلك أحـد » !

وقال ابن الخطيب فى رقم الحلل : كانت وقعة البحيرة بأحواز مراكش قـد استأصلت معظم أصحاب المهدى وكادت تأتى عليهم . ومـع ذلك فلم تصع منه ولا وهنت صبره . وكان يقول : « مثل هذا الامر كالفجر يتقدمه الفجر الكاذب وبعده ينبلج الصبح ويستعلى الضوء » ويأمرهم باتخاذ مرابط الخيل التى ينالون من فىء عدوهم بعدها وأنه يعطى الرجل على قدر ما أعد من المرابط إلى غير ذلك

فهـذا خبر المهدى مختصرا من ابن خلدون ممزوجا بما نقله ابن خلكان من ذلك وقد ساق ابن أبى زرع فى القرطاس خبر المهدى هذا وفيه بعض مخالفة لما تقدم . فلنأت بـه وإن أدى إلى بعض التكرار زيادة فى الامتاع ، وتحلية للاسماع ، فنقول :

قال ابن أبى زرع مـا ملخصه : إن المهدى رحـل إلى المشرق فى طلب العلم ولقى مشايخ وسمع منهم وأخذ عنهم علما كثيرا ، وحفظ جملـة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونبغ فى علم الاصول والاعتقادات .

وكان فى جملة من لقى من العلماء الشيخ أبو حامد الغزالى رضى الله عنه ، لازمه ثلاث سنين . وكان الشيـخ ابو حامد كثيرا مـا يشير الى المهدى ويقول : « انه لا بد ان يكون له شأن ! » ونمى الخبر بذلك الى المهدى فلم يزل يتقرب الى الشيخ بأنواع الخدمة حتى أطلعه على ما عنده من العلم فى ذلك . فلما تحققت عنده الحـال استخـار الله وعزم على الترحال ، فخرج قاصدا بلاد المغرب غرة ربيع الاول سنة عشر وخمسمائة ، ولازم فى طريقه درس العلم والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الى ان اجتمع به عبد المؤمن ابن على فبايعه على مؤازرته فى الشدة والرخاء والعسر واليسر . ثم قدم بلاد المغرب واستقر بمراكش ـ وكانت له فصاحة وعليه مهابة ـ فاخذ يطعن على المرابطين وينسبهم الى الكفر

والتجسيم ويشيع عند من يثق به ويسكن اليه انه المهدى المنتظر الذى يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا وجرى منه بمراكش من تغيير المنكر ونحوه ما تقدم ذكره ، فاتصل خبره بعلى بن يوسف اللمتونى فأحضره وقال له : « ما هذا الذى بلغنا عنك ؟ » فقال : « إنما أنا رجل فقير أطلب الآخرة وآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، وأنت أيها الملك أولى من يفعل ذلك فإنك المسؤول عنه . وقد ظهرت بمملكتك المنكرات ، وفشت البدع ، وقد وجب عليك احياء السنة وإماتة البدعة . وقد عاب الله تعالى أمة تركوا النهى عن المنكر ، فقال : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون » فلما سمع أمير المسلمين كلامه تأثر له وأخذه وأطرق مفكرا . ثم أمر بإحضار الفقهاء فحضر منهم ما أغص المجلس . تم قال أمير المسلمين : « اختبروا الرجل فإن كان عالما اتبعناه وإلّا أدبناه » وكان المهدى فصيحا لسنا ذا معرفة بالاصول والجدل ، وكان الفقهاء الذين حضروا أصحاب حديث وفروع . فدارت بينهم محاورة ومذاكرة أسكتهم فيها وبان عجزهم عنه ، فعدلوا عن المذاكرة إلى الممالأة ، وأغروا به أمير المسلمين ، وقالوا : « هذا رجل خارجى ، وإن بقى بالمدينة أفسد عقائد أهلها ! » فأمره أمير المسلمين بالخروج من البلد ، فخرج إلى الجبانة وضرب بها خيمة جلس فيها ، وصار الطلبة يترددون إليه لاخذ العلم عنه ، فكثر جمعه وأحبته العامة وعظموه .

وانتهى خبره إلى أمير المسلمين ثانيا ، ونقل اليه أنه يطعن على الدولة فأحضره مرة أخرى وقال له : « أيها الرجل اتق الله فى نفسك ؛ ألم أنهك عن عقد الجموع والمحازب وأمرتك بالخروج من البلد ؟ » . فقال « أيها الملك قد امتثلت أمرك وخرجت من المدينة إلى الجبانة واشتغلت بما يعنينى ، فلا تسمع لاقوال المبطلين ! » فتوعده أمير المسلمين وهم بالقبض عليه ، تم عصمه الله منه ليقضى الله أمرا كان مفعولا

ولما انفصل المهدى عن المجلس أغرى الحاضرون أمير المسلمين به ، وشرحوا له جلية أمره وما يدعو اليه . فاستدرك أمير المسلمين فيه رأيه ، وبعث اليه من يأتيه برأسه ، فسمع بذلك بعض بطانته فمر مسرعا . حتى اذا قرب من الخيمة قرأ قوله تعالى: « يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » الآية . فسمعها المهدى وفطن لها فانسل من حينه وخرج حتى أتى تينملل فأقام بها . وذلك فى شوال سنة أربع عشرة وخمسمائة

ثم لحق بـه أصحابه العشرة السابقون الى دعوته والمصدقون بامامته ، وهم : عبد المؤمن ابن على الكومى . وأبو محمد البشير الوانشريسى ، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، وأبو يحيى بن يكيت الهنتاتى ، وأبو حفص عمر بن على آصناك . وابراهيم بن اسماعيل الخزرجى . وابو محمد عبد الواحد الحضرمى . وابو عمران موسى بن تمـار . وسليمان ابن خلوف ، وعاشر . فأقاموا بتينملل الى رمضان من سنة خمس عشرة وخمسمائة فعظم صيته بجبل درن وكثرت أتباعـه فلما رأى ذلك أظهر دعوته ودعا الناس الى بيعته ، فبايعه العشرة البيعة الخاصة عقب صلاة الجمعة خامس عشر رمضان من السنة .

ولمـا كان الغـد ـــ وهو يوم السبت ـــ خرج المهدى فى أصحابـه العشرة متقلدين السيوف ، وتقدم إلى الجامع فصعد المنبر وخطب الناس وأعلمهم انـه المهدى المنتظر ، ودعاهم إلى بيعته فبايعوه البيعة العامة ، ثم بث دعاته فى بلاد المصامدة يدعون الناس إلى بيعتـه ويزرعون محبته فى قلوبهم بالثناء عليـه ووصفه بالزهد وتحرى الحق واظهار الكرامات . فانثال الناس عليه من كل جهة . وسمى اتباعـه الموحدين . واقنعهم عقائد التوحيـد باللسان البربرى . وجعل لهم فيه الاعشار والاحزاب والسور ! وقال : « من لايحفظ هذا التوحيد فليس بموحد ، لا تجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته ! » فاستولت محبته على قلوبهم ، وعظموه ظاهرا وباطنا ، حتى كانوا يستغيثون بـه فى شدائدهم ، وينوهون باسمه على منابرهم . ولم تزل الوفود تترادف عليه حتى اجتمع عليه جم غفير . فلما علم ان ناموسه قد رسخ وسلطانه قد تمكن قام فيهم خطيبا ، وندبهم إلى جهاد المرابطين وأباح لهم دماءهم واموالهم ، فانتدب الناس لذلك وبايعوه على الموت ، فانتخب منهم عشرة آلاف من انجاد الموحدين . وقدم عليهم ابا محمد البشير وعقد له رايـة بيضاء ودعـا لهم وانصرفوا ، فصمدوا إلى مدينة اغمات .

وانتهى الخبر إلى امير المسلمين ، فجهز لقتالهم جيشا من الحشم والاجناد ، فلما التقوا انتصر عليهم الموحدون وهزموهم واتبعوهم بالسيف حتى ادخلوهم مراكش وحاصروها اياما ، ثم أفرجوا عنها حين تكاثرت عليهم جيوش لمتونة ، وكان ذلك ثالث شعبان سنة ست عشرة وخمسمائـة . وقسم المهدى الغنائم التى غنموها من عسكر المرابطين ، وتلا عليهم قوله تعالى : « وعدكم الله مغانم كثيرة تاخذونها فعجل لكم

هذه» الآية . وانتشر ذكر المهدى بجميع أقطار المغرب والاندلس . وأركب جل جيشه من خيل المرابطين التى غنموها . ثم غزا مراكش بنفسه فعبأ جيشه وسار حتى نزل بجبل كيليز بقرب المدينة ، فأقام محاصرا لها ثلاث سنين يباكرها بالقتال ويراوحها من سنة ست عشرة إلى سنة تسع عشرة .

ولما ضجر من مقامه هناك نهض الى وادى نفيس . وانحدر مع مسيله يدعو الناس لطاعته ويقاتل من أبى منهم فانقاد له أهل السهل والجبل . وبايعته كدميوة . ثم غزا بلاد ركراكة ، فأخذهم بالدعاء الى توحيد الله وشرائع دينه ، وسار فى بلاد المصامدة يقاتل من أبى ويسالم من أجاب ففتح بلادا كثيرة ، ودخل فى دعوته عالم كثير من المصامدة . ورجع الى تينملل فأقام بها شهرين ريثما استراح الناس . ثم غزا مدينة أغمات وبلاد هزرجة فى ثلاثين ألفا من الموحدين . فاجتمع على حربه أهل اغمات وهزرجة وخلق كثير من الحشم ولمتونة وغيرهم فانتصر عليهم الموحدون ، فهزموهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا وقسم المهدى أموالهم بين الموحدين . ثم غزا أهل درن ففتح قلاعه وحصونه . وطاع له جميع من فيه من قبائل هرغة وهنتاتة وكنفيسة وغيرهم .

ثم عاد الى تينملل فأقام بها ريثما استراح الناس . ثم نهد بهم الى غزو مراكش وجهاد المرابطين ، وقدم عليهم عبد المؤمن بن علي وأبا محمد البشير . وخص عبد المؤمن بامامة الصلاة ، فساروا حتى انتهوا الى أغمات ، فلقيهم بها أبو بكر بن على بن يوسف فى جيش كثيف من لمتونة وقبائل صنهاجة ، فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم ثمانية أيام ثم انتصر عليهم الموحدون فهزموا أبا بكر وجيشه الى مراكش وقتلوهم فى كل طريق ، وحصروا مراكش أياما ، ثم رجعوا الى تينملل فخرج المهدى للقائهم فرحب بهم وعرفهم بما يكون لهم من النصر والفتح وما يملكونه من البلاد . ثم كانت وفاته عقب ذلك على مانذكره ان شاء الله . فهذا سياق ابن أبى زرع لهذه الاخبار والله أعلم بالصواب .

بقية آخبار المهدي وبعض سيرته إلى وفاته

كان المهدى رجلا ربعة . أسمر . عظيم الهامة ، غائر العينين ، حديد النظر ، خفيف العارضين ، له شامة سوداء على كتفه الايمن ، ذا سياسة ودهاء وناموس عظيم . وكان مع ذلك عالما فقيها ، راويا للحديث ، عارفا بالاصول والجدل ، فصيح اللسان ، مقداما على الامور العظام ، غير متوقف فى سفك الدماء ، يهون عليه اتلاف عالم فى بلوغ غرضه ، وكان حصورا لا يأتى النساء ، وكان متيقظا فى احواله ضابطا لما ولى من سلطانه ، أنشد صاحب كتاب المغرب فى حقه :

آثاره تنبيك عن أخباره * حتى كأنك بالعيان تراه

ثم قال :

« له قدم فى الثرى وهمة فى الثريا ، ونفس ترى اراقة ماء الحياة دون اراقة ماء المحيا ، أغفل المرابطون عقله وربطه ، حتى دب اليهم دبيب الفلق فى الغسق ، وترك فى الدنيا دويا . أنشأ دولة لو شاهدها أبو مسلم لكان لعزمه فيها غير مسلم . وكان قوته من غزل أخت له فى كل يوم رغيفا بقليل سمن أو زيت ! ولم ينتقل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا ! ورأى أصحابه يوما وقد مالت نفوسهم الى كثرة ما غنموه ، فأمر بضم ذلك جميعه وأحرقه ! وقال . « من كان يتبعنى للدنيا فليس له عندى إلّا ما رأى ! ومن تبعنى للآخرة فجزاؤه عند الله ! » وكان على خمول زيه وبسط وجهه مهيبا منيع الحجاب الا عند مظلمة ، وله رجل مختص بخدمته والاذن عليه . وكان له شعر فمن ذلك قوله :

أخذت بأعضادهم اذ نأوا * وخلفك القوم اذ ودعوا
فكم أنت تنهى ولا تنتهى * وتسمع وعظا ولا تسمع
فيا حجر السن حتى متى * تسن الحديد ولا تقطع

وكان كثيرا ما ينشد :

تجرد من الدنيا فإنك انما * خرجت الى الدنيا وأنت مجرد

وكان يتمثل أيضا بقول أبى الطيب المتنبى :

اذا عامرت فى شرف مروم * فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير * كطعم الموت فى أمر عظيم

وبقوله أيضا :

ومن عرف الايام معرفتى بها * وبالناس روّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا بـه * ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

وبقوله أيضا :

وما أنـا منهم بالعيش فيهم * ولكن معدن الذهب الرغام

وقال ابن الخطيب فى رقم الحلل : « قالوا كان محمد بن تومرت يزعم انه مأمور بنوع من الوحى والالهام ، وينكر كتب الرأى والتقليد . وله باع فى علم الكلام ، وغلبت عليه نزعة خارجية ، وكان ينتحل القصايا الاستقبالية ، ويشير الى الكوائن الآتية ، ورتب قومه ترتيبا غريبا فمنهم أهل الدار . وأهل الجماعة . وأهل الساقة ، وأهل خمسين . وأهل سبعين ، والطلبة ، والحفاظ ، واهل القبائل . فأهل الدار للامتهان والخدمة . واهل الجماعة للتفاوض والمشورة . واهل الساقة للمباهاة واهل سبعين وخمسين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقى ، وسائر القبائل لمدافعة العدو . وكان يعلمهم أوحد العادات فى العادات » .

قلت : من ذلك ان طائفة من المصامدة عسر عليهم حفظ الفاتحة لشدة عجمتهم . فعدد كلمات أم القرآن ولقب بكل كلمة منها رجلا ، فصفهم صفا وقال لأولهم : « اسمك الحمد لله » وللثانى : « رب العالمين » وهكذا حتى تمت كلمات الفاتحة . ثم قـال لهم : « لا يقبل الله منكم صلاة حتى تجمعوا هـذه الاسماء على نسقها فى كل ركعـة ! » فسهل عليهم الأمر وحفظوا أم القرآن . ذكره صاحب المعرب .

قالوا : وهو أول من أحدث « أصبح ولله الحمد » فى أذان الصبح .

ومن جراءته واقدامه وتهالكه على تحصيل مرامه ما حكاه صاحب القرطاس قال : « كانت بين الموحدين والمرابطين حرب فقتل من الموحدين خلق كثير فعظم ذلك على عشائرهم ، فاحتال المهدى بأن انتخب قوما من أتباعه ودفنهم احياء بموضع المعركة

وجعل لكل واحد منهم متنفسا فى قبره ! وقال لهم : « إذا سئلتم عن حالكم فقولوا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا . وان ما دعا إليه الامام المهدى هو الحق ! فجدوا فى جهاد عدوكم » وقال لهم : « إذا فعلتم ذلك اخرجتكم وكانت لكم عندى المنزلة العالية » وقصد بذلك ان يثبتهم على التمسك بدعوته . ويهون عليهم ما لا قوا من القتل والجراحات بسببه . ثم جمع اصحابه عند السحر وقال لهم « انتم يا معشر الموحدين حزب الله وانصار دينه واعوان الحق ، فجدوا فى قتال عدوكم فإنكم على بصيرة من امركم ، وإن كنتم ترتابون فيما اقوله لكم فأتوا موضع المعركة وسلوا من استشهد اليوم من إخوانكم يخبروكم بما لقوا من الثواب عند الله ! » ثم أتى بهم إلى موضع المعركة ونادى « يا معشر الشهداء ماذا لقيتم من الله عز وجل ? » فقالوا : « قد أعطانا من الثواب ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ! » فافتتن الناس وظنوا ان الموتى قد كلموهم ! وحكوا ذلك لبقية إخوانهم ، فازدادوا بصيرة فى أمره وثباتا على رأيه . والله اعلم بحقيقة الحال .

وفـــــاة المهدى رحمه الله

كانت وفاة المهدى عقب وقعة البحيرة قال ابن خلدون : « لأربعة أشهر بعدها » وقال ابن الخطيب وغيره : كانت وفاته يوم الاربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين وخمسمائة . وقيل غير ذلك .

وقال فى القرطاس : « لما رجع الموحدون من غزو مراكش إلى تينملل خرج إليهم المهدى فسلم عليهم ورحب بهم ، واعلمهم بما يكون لهم من النصر والفتح ومـا يملكونه من البلاد وبمدة ملكهم ، وأعلمهم انه يموت فى تلك السنة . فبكوا واسفوا ثم مرض مرضه الذى مات منه ، وقدم عبد المؤمن للصلاة ايام مرضه ، ثم توفي فى التاريخ المتقدم » .

وذكر بعض المؤرخين : « ان المهدى راى فى منامه قبل وفاته كأن آتيا اتاه فأنشده ابياتا نعى له فيه نفسه ، واعلمه باليوم الذى يموت فيه فكان كذلك » انظر القرطاس.

وقد مر فى هذه الاخبار ذكر « كتاب الجفر » وربما تتشوف النفس لمعرفة حقيقته ، وقد قال ابن خلدون فى كتاب طبيعة العمران : « واعلم ان كتاب الجفر كان اصله ان هرون بن سعيد العجلى — وهو رأس الزيدية — كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق رضى الله عنه . وفيه علم ما سيقع لاهل البيت على العموم ، ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص . وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذى يقع لمثلهم من الاولياء ، وكان مكتوبا عند جعفر الصادق فى جلد ثور صغير ، فرواه عنه هرون العجلى ، وكتبه وسماه « الجفر » باسم الجلد الذى كتب فيه (لان الجفر فى اللغة هو الصغير) فصار هـذا الاسم علما على هـذا الكتاب عندهم . وكان فيه تفسير القرآن الكريم وما فى باطنه من غرائب المعانى مروية عن جعفر الصادق رضى الله عنه » .

وذكره ابن قتيبة فى أوائل كتاب اختلاف الحديث فقال بعد كلام طويل : « وأعجب من هذا التفسير تفسير الروافض للقرآن الكريم . وما يدعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر الذى ذكره العجلى » ثم قال ابن قتيبة :

ألم تر ان الرافضين تفرقوا * فكلهم فى جعفر قال منكرا
فطائفة قالوا إمـام ومنهم * طوائف سمته النبى المطهـرا
ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم * برئت إلى الرحمن ممن تجفرا

فى ابيات غير هذه ، ثم قال ابن قتيبة : « وهو جلد جفر ادعوا انه كتب لهم فيه الامام جعفر الصادق كل ما يحتاجون اليه . وكل ما يكون الى يوم القيامة » اه . وهذا تزييف من ابن قتيبة لكتاب الجفر ، وخالف هذا المذهب ابو العلاء المعرى فقال :

لقد عجبوا لاهـل البيت لما * اتاهم علمهم فى مسك جفر
ومرآة المنجم — وهى صغرى — * ارته كل عـامرة وقفر

والمسك بفتح الميم الجلد ، والجفر بفتح الجيم ما بلغ اربعة اشهر من اولاد المعز وكانت عادتهم فى ذلك الزمان انهم يكتبون فى الجلود وما شا كلها لقلة الاوراق يومئذ .

وقال ابن خلدون : كتاب الجفر لم تتصل روايته عن جعفر الصادق رضى الله عنه ولا عرف عينه ، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل . ولو صح السند

الى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه او من رجال قومه . فهم أهل الكرامات رضى الله عنهم .

الخبر عن دولة أبى محمد عبد المؤمن بن على الكومي واوليتها

اعلم ان بنى عبد المؤمن ليسوا من المصامدة ، وانما هم من كومية ، ثم من بنى عابد منهم وكومية ، ويعرفون قديما بصطفورة بطن من بنى فاتن بن تامصيت بن ضرى بن زجيك بن مادغيس الابتر ، فهم بنو عم زناتة يجتمعون فى ضرى بن زجيك . هذا هو الصحيح . وبعض المؤرخين يرفعون نسب عبد المؤمن الى قيس عيلان بن مضر ، وهو ضعيف .

قال ابن خلدون : « كان عبد المؤمن من بنى عابد أحد بيوتات كومية وأشرافهم » قال : « وموطنهم بتاكرارت وهو حصن فى الجبل المطل على هنين من ناحية الشرق » .

وقال ابن خلكان . « كان والد عبد المؤمن وسيطاً فى قومه ؛ وكان صانعا فى عمل الطين يعمل منه الآنية فيبيعها ، وكان عاقلا من الرجال وقورا » .

ويحكى ان عبد المؤمن فى صباه كان نائما تجاه أبيه وأبوه مشتغل بعمله فى الطين ، فسمع أبوه دويا فى السماء ، فرفع رأسه فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار . فنزلت كلها مجتمعة على عبد المؤمن ، وهو نائم فغطته ، ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها ، فرأته أمه على تلك الحال ، فصاحت خوفا على ولدها فسكتها أبوه ، وقالت : « أخاف عليه » فقال « لا بأس عليه ، بل انى متعجب مما يدل عليه ذلك » ثم انه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ووقف ينتظر ما يكون من أمر النحل ، فطار عنه باجمعه ، فاستيقظ الصبى ، وما به من ألم ! فتفقدت أمه جسده فلم تر به أثرا ! ولم يشك إليها ألما !

وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر ، فمضى أبوه اليه فاخبره بما رآه من النحل مع ولده ، فقال الزاجر : « يوشك أن يكون له شأن يجتمع على طاعته اهل المغرب »

فكان من امره ما اشتهر .

وقد تقدم لنا ان المهدى كان عنده كتاب الجفر ، وكان فيه ان أمره لا يتم إلّا على يد رجل اسمه كذا ، وحليته كذا ، وهو عبد المؤمن بن علي . فأقام المهدى يتطلبه مدة الى ان لقيه بملالة ، وعبد المؤمن اذ ذاك شاب حدث طالب علم . فلازم المهدى واستمسك بغرزه الى ان كان من أمره ما كان .

وكان المهدى يتفرس فيه النجابة وينشد اذا أبصره :

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها * فكلنا بك مسرور ومغتبط

السن ضاحكة ، والكف مانحة ، * والنفس واسعة ، والوجه منبسط

والبيتان لابى الشيص الخزاعى . وكان يقول لاصحابه : صاحبكم هذا غلاب الدول! وكان يقول : عبد المؤمن من صديقى هذه الدائرة !

وقال ابن خلدون : آثر المهدى عبد المؤمن بمزيد الخصوصية والقرب بما خصه الله به من الفهم والوعى للتعاليم ، حتى كان خالصة المهدى وكنز صحابته . وكان مؤمله لخلافته لما أطلعه عليه من الشواهد المؤذنة بذلك . وفى ذلك يقول ابن الخطيب :

وخلف الأمر لعبد المؤمن * فانقادت الدنيا له فى رسن

حباه بين القوم بالإماره * اذ وضحت له فيه الأماره

ولما اجتاز المهدى فى طريقه الى المغرب بالثعالبة – عرب الجزائر – أهدوا اليه حمارا فارها يركبه لانه كان ساعيا على رجليه ، فكان يوثر به عبد المؤمن ويقول لاصحابه : « أركبوه الحمار يركبكم الخيول المسومة ! » وزعم بنو عبد المؤمن ان المهدى كان استخلفه من بعده . وقال ابن خلكان . لم يصح انه استخلفه وانما راعى أصحابه فى تقديمه اشارته فتم له الامر . والله أعلم .

بيعة عبد المؤمن بن على والسبب فيها

لما توفى المهدى فى التاريخ المتقدم تولى عبد المؤمن تجهيزه والصلاة عليه ، ثم دفنه بمسجده الملاصق لداره من تينملل .

ولما فرغ الموحدون من أمره تشوف كل واحد من العشرة الى الخلافة بعده ، وكانوا من قبائل شتى . وأحبت كل قبيلة أن يكون الخليفة منها . وان لا يتولى عليها من هو من غيرها . فتنافسوا فى ذلك . فاجتمع العشرة والخمسون وتآمروا فيما بينهم وخافوا على انفسهم النفاق . وان تفسد نياتهم وتفترق جماعتهم ، فاتفقوا على خلافة عبد المؤمن لكونه كان غريبا بين اظهرهم . ليس من المصامدة لان المصامدة من البرانس ، وكومية قبيلة عبد المؤمن من البتر . فقدموه لذلك مع ما كانوا يرون من ميل المهدى اليه وايثاره على غيره فتم له الامر

وقال ابن خلدون . لما مات المهدى خشي اصحابه من افتراق الكلمة وما يتوقع من سخط المصامدة لولاية عبد المؤمن ، لكونه من غير جلدتهم ، فارجأوا الامر الى ان تخالط بشاشة الدعوة قلوبهم ، وكتموا موته ثلاث سنين يموهون فيها بمرضه . ويقيمون سنته فى الصلاة والحزب الراتب ، ويدخل اصحابه الى بيته كأنه اختصهم بعيادته ، فيجلسون حوالى قبره ، ويتفاوضون فى شؤونهم ، ثم يخرجون لانفاذ ما ابرموه ، ويتولى ذلك عبد المؤمن . حتى إذا استحكم أمرهم وتمكنت الدعوة من كافتهم كشفوا القناع عن حالهم ، وتمالأ من بقى من العشرة على تقديم عبد المؤمن ، وتولى كبر ذلك الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس . فاظهروا للناس موت المهدى وعهده لصاحبه ، وانقاد بقية أصحابه لذلك ، وروى لهم يحيى بن يغمور انه كان يقول فى دعائه اثر صلواته : « اللهم بارك فى الصاحب الافضل » فرضى الكافة وانقادوا له واجمعوا على بيعته .

وزعموا (١) ان عبد المؤمن استعمل فى ذلك حيلة تم له بها ما أراد وذلك انه عمد الى طائر وأسد فضراهما حتى أنسابه ، وعلم الطائر أن يقول عند علامة نصبها له : « النصر والتمكين لعبد المؤمن أمير المؤمنين ! » وعلم الاسد ان يبصبص له ويتمسح به كلما رآه ! ثم جمع عبد المؤمن الموحدين وخطبهم وحضهم على الألفة واجتماع الكلمة ، وحذرهم عاقبة البغى والخلاف ، وبينما هو فى ذلك إذ أرسل سائس الاسد أسده ، وصفر صاحب الطائر لطائره ، فبصبص هذا ! وأعلن بالنصر هذا ! فعجب الحاضرون من ذلك ورأوا أنها كرامة لعبد المؤمن فازدادوا بها بصيرة فى أمره وثباتا على بيعته ، مع ما كان من تقديم المهدى له فى الصلاة أيام مرضه . وفى ذلك يقول بعضهم :

أنس الشبل ابتهاجا بالاسد * ورأى شبه أبيه فقصد
ودعا الطائر بالنصر لكم * فقضى حقكم حين وفد

والله أعلم .

وكانت بيعة عبد المؤمن العامة بعد صلاة الجمعة لعشرين يوما من ربيع الاول سنة ست وعشرين وخمسمائة بجامع تينملل وأول من بايعه العشرة أصحاب المهدى ، ثم الخمسون من أشياخ الموحدين . ثم كافة الموحدين ، لم يتخلف عن بيعته منهم أحد ، فاستوسق له الامر واستولى على المغرب بأسره ، وفتح بلاد افريقية الى برقة ، وبلاد الاندلس بأسرها ، وخطب له على منابر هذه الاقاليم كلها على ما سيأتى تفصيله ان شاء الله .

ولما تمت بيعته غزا من حينه بلاد تادلا فقتل بها وسبى ، ثم غزا بلاد درعة فاستولى عليها ، ثم غزا بلاد غمارة فافتتح البعض منها وقتل واليها ، ثم تسابق الناس الى دعوته أفواجا ، وانتقضت البربر على المرابطين في سائر أقطار المغرب . وكان ما نذكره .

---

(١) قد نقل العلامة المقرى عن تاج الدين بن حمويه السرخسى فى رحلته الى المغرب الاقصى أن هذه القصة وقعت ليعقوب المنصور الموحدى وذلك أن قوما من الغرباء قصدوه ومعهم حيوانات معلمة منها أسد وغراب فربض الاسد بين يدى المنصور ودعا الغراب له بالنصر فقال بعضهم الابيات المذكورة وهذا هو الصحيح لان السرخسى يحدث عن مشاهدة لوجوده زمن المنصور انظر نفح الطيب ج ٢ ص ٧٣٩

غزوة عبد المومن الطويلة التى استولى فيها على المغربين

ثم صرف عبد المؤمن عزمه لفتح بلاد المغرب فغزا غزوته الطويلة التى مكث فيها سبع سنين ، وأجلت عن فتح المغربين معا الاقصى والاوسط : خرج لها من تينملل فى صفر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، فلم يزل يتقرى بلاد المغرب ويفتح معاقلها ويستنزل حماتها ويذلل صعابها الى سنة احدى وأربعين وخمسمائة .

وكان خروجه من تينملل على طريق الجبل ، وخرج تاشفين بن على فى اتباعه من مراكش على طريق السهل الى ان وصلا الى تلمسان حسبما قدمناه فى أخبار المرابطين .

قال ابن خلدون : خرج عبد المؤمن فى هذه الغزوة من تينملل يعنى على طريق الجبل كما قلنا ، وخرج تاشفين بن على — يعنى فى حياة والده بعساكره يحاذيه فى البسيط — والناس يفرون منه الى عبد المؤمن ، وهو يتنقل فى الجبال فى سعة من الفواكه للاكل والحطب للدفء . الى ان وصل الى جبال غمارة ، واشتعلت نار الفتنة والغلاء بالمغرب ، وأقشعت الرعايا عن البلاد ، وألح الطاغية على المسلمين بالعدوة الاندلسية . وهلك خلال ذلك أمير المسلمين على بن يوسف سنة سبع وثلاثين وخمسمائة . وولى بعده ابنه تاشفين بن على المذكور وهو فى غزاته هذه .

وفى القرطاس : « ارتحل عبد المؤمن الى جبال غمارة ، وارتحل تاشفين بن على فى أثره ، فنزل بازاء عين القديم وذلك فى فصل الشتاء . فأقام بذلك المنزل شهرين حتى أحرق أهل محلته أوتاد أخبيتهم ورماحهم ، وهدموا بيوتهم وخيامهم » انتهى .

ونشأت فتنة بين لمتونة ومسوفة فنزع جماعة من أمراء مسوفة — منهم عامل تلمسان يحيى بن اسحق المعروف بآنكمار — ولحقوا بعبد المؤمن ودخلوا فى دعوته . فنبذ اليهم المرابطون العهد وإلى سائر مسوفة . واستمر عبد المؤمن على حاله ، فنازل سبتة فامتنعت عليه . وتولى كبر دفاعه عنها القاضى أبو الفضل عياض بن موسى الشهير الذكر ، وكان رئيسها يومئذ بأبوته ومنصبه وعلمه ودينه .

قال ابن خلدون : « ولذلك سخطته الدولة يعنى دولة الموحدين آخر الايام حتى

مات مغربا عن سنه مستعملا في خطة القضاء بالبادية من تادلا رحمه الله . وتمادى عبد المؤمن في غزاته الى جبال غياثة وبطوية فافتتحها . ثم نازل ملوية فافتتح حصونها ثم تخطى إلى بلاد زناتة فأطاعته قبائل مديونة ، وكان قد بعث إليهم جيشا من الموحدين إلى نظر يوسف بن وانودين ، فخرج إليهم محمد بن يحيى بن فانوا عامل تلمسان من قبل المرابطين فيمن معه من جيوش لمتونة وزناتة . فهزمهم الموحدون ، وقتل ابن فانوا وانفض جمع زناتة ورجعوا إلى بلادهم . وولى تاشفين بن علي على تلمسان أبا بكر بن مزدلي ، وقدم على عبد المومن - وهو بمكانه من الريف - أبو بكر بن ما خوخ ويوسف ابن بدر - من أمراء بنى ومانوا من زناتة - فبعث معهم يحيى بن يغمور ويوسف بن وانودين في عسكر ، فأثخنوا في بلاد بنى عبد الوادوبنى يلومى من زناتة سبيا وأسرا ، ولحق صريخهم بتاشفين بن علي . فأمدهم بعساكر لمتونة - ومعهم الروبرتير قائد الروم - ونزلوا منداس ، وانضمت إليهم قبائل زناتة من بنى يلومى ، وبنى عبد الواد مع شيخهم حمامة بن مطهر واخوانهم بنى توجين وغيرهم ، فأوقعوا ببنى ومانوا وقتلوا أبا بكر بن ماخوخ في ستمائة من قومه ، واستنقذوا غنائمهم ، وتحصن الموحدون وفل بنى ومانوا بجبل سيرات .

ولحق تاشفين بن ما خوخ صريخا بعبد المؤمن ومستجيشا به على لمتونة وزناتة . فارتحل معه عبد المؤمن الى تلمسان ثم أجاز الى سيرات .

وقصد محلة لمتونة وزناتة فاوقع بهم ، ورجع الى تلمسان فنزل ما بين الصخرتين من جبل تيطرى ، ونزل تاشفين بن على بالسهل مما يلى الصفصاف ، ثم وصل مدد صنهاجة من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية لنظر قائده طاهر بن كباب ، أمدوا به تاشفين ابن على وقومه لعصبية الصنهاجية ، وفى يوم وصوله أشرف على معسكر الموحدين ، وكان يدل باقدام . فعرض بلمتونة وأميرهم تاشفين بن على لقعودهم عن مناجزة الموحدين ، وقال : « انما جئتكم لاخلصكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا وأرجع الى قومى » فامتعض تاشفين بن علي من كلمته وأذن له فى المناجزة ، فحمل على القوم ، فركبوا وصمموا للقائه فكان آخر العهد به وانفض عسكره . وكان تاشفين بعث من قبل ذلك قائده على الروم وهو الروبرتير فى عسكر ضخم ، فاغار على قوم من زناتة كانوا فى بسيط لهم ،

فاكتسحهم ورجع بالغنائم ، فاعترضه الموحدون من عسكر عبد المؤمن فقتلوهم وقتلوا الروبرتير فى جملتهم .

ثم بعث تاشفين بن على بعثا آخر الى جهة أخرى ، فلقيهم تاشفين بن مساخوخ ومن كان معه من الموحدين . واعترضوا عسكر بجاية عند رجوعهم فنالوا منهم أعظم النيل .

وتوالت هذه الوقائع على تاشفين بن علي اللمتونى فأجمع الرحلة الى وهران ، وبعث ابنه — ولى عهده — ابراهيم بن تاشفين الى مراكش فى جماعة من لمتونة ، وبعث كاتبا معه أحمد بن عطية ، ورحل هو الى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فأقام عليها شهرا ينتظر قائد اسطوله محمد بن ميمون الى ان وصله من المرية بعشرة أساطيل ، فأرسى قريبا من معسكره ، وزحف عبد المؤمن من تلمسان ، وبعث فى مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحي الهنتاتى ، ومعه بنو ومانوا من زناتة فتقدموا الى بلاد زناتة ونزلوا منداس وسط بلادهم ، وجمع له بنو يادين كلهم وبنو يلومى وبنو مرين ومغراوة ، فأثخن فيهم الموحدون حتى أذعنوا للطاعة ودخلوا فى دعوتهم . ووفد على عبد المؤمن جماعة من رؤسائهم ، وكان منهم سيد الناس ابن أمير الناس شيخ بنى يلومى ، وحمامة بن مطهر شيخ بنى عبد الواد وغيرهم ، فتلقاهم بالقبول وسار بهم فى جموع الموحدين الى وهران ، فبيتوا لمتونة بمعسكرهم ففضوهم ، ولجأ تاشفين الى رابية هناك فأحدقوا بها وأضرموا النيران حولها حتى اذا غشيهم الليل خرج تاشفين من الحصن راكبا فرسه فتردى به من بعض حافات الجبل ، وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وبعث برأسه الى تينملل ، ونجافل العسكر الى وهران ، فانحصروا بها مع أهلها حتى جهدهم العطش فنزلوا على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة ، فاستأصلهم القتل رحمهم الله . وبلغ خبر مقتل تاشفين بن على الى تلمسان مع فل لمتونة الذين نجوا من وقعة وهران وفيهم سير بن الحاج فى آخرين من أعيانهم ، ففر معهم من كان بها من لمتونة

ولما وصل عبد المؤمن الى تلمسان استباح أهل تاكرارت لما كان أكثرهم من الحشم بعد ان كانوا بعثوا ستين من وجوههم فلقيهم يصليتن من مشيخة بنى عبد الواد فقتلهم أجمعين . وافتتح عبد المؤمن تلمسان وعفا عن أهلها ورحل عنها لسبعة أشهر من فتحها بعد ان ولى عليها سليمان بن محمد بن وانودين وقيل يوسف بن وانودين .

فتح مدينة فاس

نقل بعض المؤرخين أن عبد المومن لم يزل محاصرا لتلمسان والفتوح ترد عليه وهناك وصلته بيعة أهل سجلماسة ، الى ان اعتزم على الرحيل الى المغرب فترك ابراهيم ابن جامع محاصرا لتلمسان ، وقصد مدينة فاس سنة احدى وأربعين وخمسمائة وقد تحصن بها يحيى بن أبى بكر الصحراوى من فل تاشفين بن على من وهران ، فنازلها عبد المؤمن وبعث عسكرا لحصار مكناسة ، ثم نهض فى اتباعه وترك عسكرا من الموحدين على فاس ، وعليهم الشيخ أبو حفص ، وأبو ابراهيم من صحابة المهدى العشرة . فحاصروها سبعة أشهر. ثم داخلهم ابن الجيانى فسرب البلد وأدخل الموحدين ليلا ، وفر يحيى بن أبى بكر الصحراوى الى طنجة ، ثم أجاز منها الى يحيى بن على المسوفى المعروف بابن غانية بالاندلس - وكان واليا على قرطبة من قبل المرابطين - فأقام عنده الى ان كان من أمره ما نذكره . وانتهى خبر فتح فاس الى عبد المؤمن وهو بمكانه من حصار مكناسة فرجع إليها ودخلها .

وحكى صاحب القرطاس فى فتح فاس خلاف هذا الوجه فقال : وفى سنة أربعين وخمسمائة فتح عبد المؤمن فاسا بعد حصار شديد : قطع عنها ماء النهر الداخل اليها وسده بالبناء والخشب حتى انحبس الماء فوق بسيط الارض وانتهى الى مراكزه منها ثم خرق السد فانحدر الماء على المدينة دفعة واحدة وهدم سورها ثم هدم من دورها ما يزيد على ألفى دار بالتثنية ، وهلك بها خلق كثير وكاد الماء يأتى على أكثرها ، ثم دخلها عبد المومن وأمن أهلها إلّا من كان بها من المرابطين فانه أمر أن لا يمضي لهم أمان ، وقتلهم قتل عاد . ثم أمر بسور المدينة فهدم منه ثلم كثيرة أوسعها جدا ، وقال : « انا لا نحتاج إلى سور وانما أسورانا سيوفنا وعدلنا » فلم تزل فاس لا سور لها الى ان تداركها حافده يعقوب المنصور فابتدأ بناءه ، ومات فأتمه ابنه الناصر سنة ستمائة .

ولما فتح عبد المؤمن فاسا ولى عليها ابراهيم بن جامع الذى خلفه على تلمسان ، فانه لما فتحها ارتحل الى عبد المؤمن فاتصل به وهو محاصر لفاس ، ففتحها عبد المؤمن وولاه

عليها ، وكان قد اعترضه فى طريقه المخضب بن عسكر شيخ بنى مرين ونالوا منه ومن رفقته ، وكانت معه أموال لمتونة وذخيرتهم التى استولى عليها عبد المؤمن بوهران ، وكان ابن جامع ذاهبا بها إلى تينملل فاعترضه بنو مرين وانتزعوها منه ، وانتهى الخبر بذلك إلى عبد المؤمن فكتب إلى عامله على تلمسان يوسف بن وانودين يأمره أن يجهز العساكر إلى بنى مرين ، فبعثها صحبة عبد الحق بن منغفاد شيخ بنى عبد الواد ، فأوقعوا ببنى مرين وقتل المخضب شيخهم .

فتـــح مراكش واستئصال بقية اللمتونيين

ثم ارتحل عبد المؤمن من فاس عامدا إلى مراكش فوافته فى طريقه بيعة أهل سبتة ، فولى عليهم يوسف بن مخلوف من مشيخة هنتاتة ، ومر على مدينة سلا فافتتحها بعد مواقعة قليلة وثلم سورها كفاس ، ونزل منها بدار ابن عشرة ، وكانت هذه الدار قصرا بديعا بمدينة سلا ، بناه الفقيه أبو العباس بن القاسم من بنى عشرة ، فشيده وأتقنه ، ولما فرغ منه وصفته الشعراء وهنته به ودعت له ، وكان بالحضرة يومئذ الاديب ابن الحمارة ولم يكن أعدّ شيئا فافكر قليلا ثم قال :

يا أوحد الناس قد شيدت واحدة * فحل فيها حلول الشمس فى الحمل

فما كدارك فى الدنيا لذى أمـل * ولا كدارك فى الاخرى لذى عمل

وهذا القصر لم يبق له اليوم اسم ولا رسم . ثم تمادى عبد المؤمن إلى مراكش وسرح الشيخ أبا حفص لغزو برغواطة . فأثخن فيهم ورجع ، فلقيه فى طريقه وانتهوا جميعا إلى مراكش ، وقد انضم إليها جموع لمطة ، فأوقع بهم الموحدون وأثخنوا فيهم قتلا ، واكتسحوا أموالهم وظعائنهم ، وأقاموا على مراكش تسعة أشهر ، وأميرهم يومئذ اسحق بن علي بن يوسف بن تاشفين ، وكانوا قد بايعوا أولا ابراهيم بن تاشفين بن علي فألفوه مضعفا عاجزا ، فخلعوه وبايعوا عمه اسحق بن على المذكور ، وهو صبى صغير ،

ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا إلى مدافعة الموحدين فانهزموا ، وتبعهم الموحدون بالقتل ، فاقتحموا عليهم المدينة فى أخريات شوال سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وقتل عامة الملثمين ، ونجا اسحق فى جملته وأعيان قومه إلى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين ، وأحضر اسحق بين يدى عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم ، وتولى كبر ذلك أبو حفص بن واّجاج منهم .

وامحى أثر الملثمين ، واستولى الموحدون على جميع البلاد . وقد قيل فى ترتيب هذه الاخبار غير هذا الوجه

قال ابن مطروح القيسى : لما بويع عبد المؤمن بتينملل ارتحل بجيوش الموحدين نحو مراكش فحاصرها أياما وذلك فى شوال سنة ست وعشرين وخمسمائة ، ثم ارتحل عنها إلى تادلا ، ثم إلى سلا ، فتلقاه أهلها سامعين مطيعين . فدخلها يوم السبت الرابع والعشرين من ذى الحجة من السنة المذكورة وخطب له بها

وفى سنة سبع وعشرين بعدها فتح عبد المؤمن بلاد تازا .

وفى سنة ثمان وعشرين بعدها تسمى عبد المؤمن بأمير المؤمنين . (١) واعلم أن اللقب بأمير المؤمنين كان فى صدر الاسلام خاصا بالخليفة بالمشرق من بنى أمية أو من بنى العباس بعدهم . ولما قام عبيد الله المهدى أول ملوك العبيديين بأفريقية تسمى بـأمير المؤمنين لانه كان يرى أنه أحق بالخلافة من بنى العباس المعاصرين له بالمشرق ، فهو أول من زاحم الخليفة فى هذا اللقب ، ثم تبعه على ذلك عبد الرحمن الناصر الاموى صاحب الاندلس ، ورأى أن له فى الخلافة حقا اقتداء بسلفه الذين كانوا خلفاء بالمشرق وكلاهما - أعنى العبيدى والاموى - قرشى من عبد مناف ، ثم لم يتجاسر أحد لا من ملوك العجم بالمشرق ولا من ملوك البربر من المغرب على اللقب بـأمير المومنين لأنه لقب الخليفة الاعظم القرشى كما علمت ، إلى أن جاءت دولة المرابطين وكان منهم

---

(١) وعبد المؤمن هذا هو أول من تسور على اللقب بأمير المومنين من غير جنس العرب ، ولم يتجرأ أحد من العجم قبله على هذه الدعوى ، وكانت سبب انتقاض المغرب عليه . أنظر تحقيق القول فى هذا المبحث فى مقدمة تاريخنا المغربى .

يوسف بن تاشفين واستولى على المغربين والاندلس ، وعظم سلطانه واتسعت مملكته ، وخاطب الخليفة العباسى بالمشرق فـولاه على ما بيده ، وتسمى بأمير المسلمين أدبا مـع الخليفة حسبما أشرنا إليه سالفا . ولمـا جاء عبد المؤمن هذا لم يبال بذلك كله واتسم بالخليفة وتلقب بأمير المؤمنين وتبعه على ذلك بنوه من بعده ولسان الحال ينشد :

لقـد هزلت حتى بدا من هزالها * كلاها ، وحتى سامها كل مفلس

وفى سنة تسع وعشرين وخمسمائة أمر عبد المؤمن ببناء رباط مدينة تازا ، فبنيت وحصن سورها ، ثم كانت محاربته لتاشفين بن علي على نحو ما أسلفناه . والله تعالى أعلم .

ثورة محمـــــد بن هود السلاوى المعروف بالماسى

كان محمـد بن هود بن عبد الله السلاوى رجلا من سوقة أهل سلا ، وكان أبوه سمسارا بها يبيع الكنابيش ، وكان هو قصارا بها مدة ، ثم لحق بعبد المؤمن عند ماظهر وبايعه وشهد معه فتح مراكش ، ثم فارقه وظهر برباط ماسة من ناحية السوس ، ودعا لنفسه وتسمى بالهادى ، وتمكن ناموسه من قلوب العامة وكثير من الخاصة ، فـأقبل إليه الشراد من كل جانب . وانصرفت إليه وجـوه الاغمار من أهل الآفاق ، وأخـذ بدعوته أهل سجلماسة ودرعة وقبائل دكالة ورجراجة وقبائل تامسنا وهوارة ، وفشت ضلالته فى جميع المغرب .

قال فى القرطاس : بايعه جميع القبائل حتى لم يبق تحت طاعة عبد المؤمن إلّا مراكش ، فسرح اليه عبد المؤمن عسكرا من الموحدين لنظر يحيى بن اسحق أنكمار النازع اليه من ايالة تاشفين بن على حسبما تقدم ، فالتقى بالماسى وقاتله فانتصر الماسى عليه وعاد معزوما إلى عبد المؤمن ، فسرح اليه عبد المؤمن ثانيا الشيخ أبا حفص الهنتاتى فى جيش عظيم من أشياخ الموحدين وغيرهم ، واحتفل عبد المؤمن فى الاستعداد . ونهض الشيخ أبو حفص من مراكش فاتح ذى القعدة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، وشيعه عبد المؤمن إلى وادى تانسيفت ، ثم دعا له وودعه وانصرف الشيخ أبو حفص فى جيوش الموحدين حتى انتهوا إلى رابطة ماسة فبرز إليهم محمـد بن هود فى نحو ستين ألفا من

الرجالة وسبعمائة من الفرسان ، فكانت بينهم حرب شديدة . ثم انتصر عليهم الموحدون وهزموهم ، وقتل محمد بن هود في المعركة مع كثير من أتباعه وفضت جموعه ، وكان ذلك فى ذى الحجة من السنة المذكورة ، وكان الذى باشر قتل ابن هود هو الشيخ أبو حفص رئيس الجيش ، فلقبه الموحدون بسيف الله تشبيها له بخالد بن الوليد رضى الله عنه.

وكتب الشيخ أبو حفص إلى عبد المؤمن برسالة الفتح من انشاء الفقيه أبى جعفر ابن عطية القضاعى الكاتب المشهور يقول فيها : « كتابنا هذا من وادى ماسة بعد ماتجدد من أمر الله الكريم ، ونصره تعالى المعهود القديم ، وما النصر إلّا من عند الله العزيز الحكيم . فتح بهر الانوار إشراقا ، وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقا ، ونبه الامانى النائمة جفونا وأحداقا . واستغرق غاية الشكر استغراقا ، فلا تطيق الالسن لكنه وصفه ادراكا ولا لحاقا ، جمع أشتات الطلب والأرب ، وتقلب فى النعم أكرم منقلب ، وملأ دلاء الامل إلى عقد الكرب .

فتح تفتح أبواب السماء له * وتبرز الارض فى أثوابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة . كان أولئك الضالون قد بطروا عدوانا وظلما ، واقتطعوا الكفر معنى واسما ، وأملى الله تعالى لهم ليزدادوا إثما ، وكان مقدمهم الشقي قد استمال النفوس بخزعبلاته ، واستهوى القلوب بمهولاته ، ونصب له الشيطان من حبالاته ، فأتته المخاطبات من بعد وكثب ، ونسلت اليه الرسل من كل حدب ، واعتقدته الخواطر أعجب عجب ، وكان الذى قادهم إلى ذلك ، وأوردهم تلك المهالك ، وصول من كان بتلك السواحل . ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس ، فيما سلف من الاعوام ، واشتغل على زعمه بالقيام والصيام ، آناء الليالي والايام ، لبسوا الناموس أثوابا ، وتدرعوا الرياء جلبابا ، فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق بابا .»

ومنها فى ذكر صاحبهم الماسى المدعى للهداية : « فصرع بحمد الله تعالى لحينه ، وبادرت إليه بوادر منونه ، وأتته وافدات الخطايا عن يساره ويمينه . وقد كان يدعى أنه بشر بأن المنية فى هذه الاعوام لاتصيبه ! والنوائب لاتنوبه ! ويقول فى سواه قولا كثيرا ، ويختلق على الله تعالى إفكا وزورا ! فلما رأوا هيئة اصطجاعه ، وما خطته

الاسنة فى أعضائه وأضلاعه ، ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه ، هزم من كان لهم من الاحزاب ، وتساقطوا على وجوههم تساقط الذباب ، وأعطوا على بكرة أبيهم صفحات الرقاب ، ولم تقطر كلومهم إلّا على الاعقاب ، فامتلأت تلك الجهات باجسادهم ، وآذنت الآجال بانقراض آمادهم . وأخذهم الله تعالى بكفرهم وفسادهم ، فلم يعاين منهم إلّا من خرّ صريعا ، وسقى الارض نجيعا ، ولقى من أمر الهنديات فظيعا ، ودعت الضرورة باقيهم إلى الترامي في الوادى ، فمن كان يؤمل الفرار ويرتجيه ، ويسبح طامعا فى الخروج إلى ما ينجيه ، اختطفته الاسنة اختطافا ، وأذاقته موتا ذعافا ، ومن لج فى الترامى على لجه ، ورام البقاء فى ثبجه ، قضى عليه شرقه ، وألوى بذقنه غرقه ، ودخل الموحدون إلى البقية الكائنة فيه ، يتناولون قتلهم طعنا وضربا ، ويلقونهم بأمر الله تعالى هولا عظيما وكربا ، حتى انبسطت مراقات الدماء ، على صفحات الماء ، وحكت حمرتها على زرقته ، حمرة الشفق على زرقة السماء ، وجرت العبرة للمعتبر ، فى جرى ذلك الدم جرى الابحر ! »

وبالجملة فهى رسالة بليغة ، وهى التى أورثت منشئها الرتبة العلية ، والمنزلة السنية ، فان عبد المؤمن لما وقف عليها استحسنها ووقعت منه موقعا كبيرا . فاستكتبه أولا ، ثم استوزره ثانيا ، ثم نكبه وقتله ثالثا كما سيأتى .

ولما انصرف الشيخ أبو حفص من غزوة ماسة أراح بمراكش أياما ، ثم خرج غازيا بلاد القائمين بدعوة محمد بن هود بجبال درن فأوقع بأهل نفيس وهيلانة ، وأثخن فيهم بالقتل والسبي حتى أذعنوا للطاعة ورجع .

ثم خرج الى هسكورة فأوقع بهم وافتتح معاقلهم وحصونهم .

ثم نهض الى سجلماسة فاستولى عليها ورجع الى مراكش .

ثم خرج ثالثة الى برغواطة فحاربوه مدة ، ثم هزموه ، واضطرمت نار الفتنة بالمغرب وكان ما نذكره .

انتقاض أهل سبتة على الموحدين وخبر القاضي عياض رحمه الله معهم

قد تقدم لنا ان عبد المؤمن كان غزا سبتة فى غزوته الطويلة ، وان القاضي عياضا رحمه الله دافعه عنها ، وانه لما قتل تاشفين بن علي وفتحت تلمسان وفاس واستفحل أمر عبد المؤمن بايع أهل سبتة فى جملة من بايع من أمصار المغرب .

قالوا : وبادر القاضى عياض الى لقاء عبد المؤمن فاجتمع به بمدينة سلا حين كان ذاهبا لفتح مراكش فأجزل صلته ، وولى على سبتة يوسف بن مخلوف التينمللى وساكن الموحدون أهل سبتة فى ديارهم واطمأنوا اليهم .

فلما انتقض المغرب على عبد المؤمن بسبب قيام محمد بن هود وما نشأ عن ذلك من الفتن انتقض أهل سبتة أيضا ، وكان انتقاضهم ــ كما فى القرطاس ــ برأى القاضى عياض رحمه الله فقتلوا عامل الموحدين ومن كان معه من أصحابه وحاميته وحرقوهم بالنار .

وركب القاضى عياض البحر الى يحيى بن علي المسوفى المعروف بابن غانية ، وكان معتصما بقرطبة متمسكا بدعوة المرابطين ، فلقيه وأدى اليه البيعة . وطلب منه واليا على سبتة فبعث معه يحيى بن أبى بكر الصحراوى الذى كان معتصما بفاس أيام حصار عبد المؤمن لها ، ففر ولحق بابن غانية كما قلنا ، وبقى فى جملته الى ان بعثه مع القاضى عياض فى هذه المرة ، فدخل يحيى سبتة وقام بأمرها .

ولما اتصلت بعبد المؤمن هذه الاخبار مع ما تقدم من هزيمة برغواطة للشيخ أبى حفص خرج من مراكش قاصدا بلاد برغواطة أولا ، ثم من بعدهم ثانيا ، فتسامعت برغواطة بخروج عبد المؤمن اليهم ، فكتبوا الى يحيى بن أبى بكر بمكانه من سبتة يستنصرونه عليهم ، فاتاهم وبايعوه واجتمعوا عليه وقاتلوا عبد المؤمن فهزموه ، ثم كانت له الكرة عليهم فهزمهم وحكم السيف فيهم واستأصل شأفتهم حتى انقادوا للطاعة ، وتبرأوا من يحيى الصحراوى ولمتونة . وفر الصحراوى إلى منجاته ، ثم طلب الامان من عبد المؤمن وتشفع اليه بأشياخ القبائل فأمنه ووفد عليه فبايعه وحسنت طاعته لديه ، وكان ذلك سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة .

ولما رأى أهل سبتة ذلك كله سقط فى أيديهم وندموا على صنيعهم وكتبوا ببيعتهم الى عبد المؤمن وقدم بها أشياخ سبتة وطلبتها تائبين ، فعفا عنهم وعن القاضى عياض ، وأمره بسكنى مراكش . والصحيح أنه ولاه القضاء بتادلا ثم دخل مراكش ، قيل دخلها مريضا مرض موته ، وقيل مات بالطريق وحمل اليها ، وأمر عبد المؤمن مع ذلك بهدم سور سبتة فهدم وكذلك فعل بفاس وسلا .

واعلم ان ما صدر من القاضى عياض رحمه الله فى جانب الموحدين دليل على انه كان يرى ان لا حق لهم فى الأمر والامامة وانما هم متغلبون ، وهذا أمر لاخفاء به كما هو واضح . ولما كانت شوكة عبد المؤمن لا زالت ضعيفة وتاشفين بن على أمير الوقت لا زال قائم العين امتنع القاضى عياض رحمه الله من مبايعة عبد المؤمن ، ودافعه عن سبتة إذ لا موجب لذلك لان بيعة تاشفين فى أعناقهم وهو لا زال حيا ، فلا يعدل عن بيعته إلى غيره بلا موجب .

وأما ما غالط به المهدي رحمه الله من ان المرابطين مجسمة ، وان جهادهم أوجب من جهاد الكفار ، فضلا عن أن تكون طاعتهم واجبة ، فسفسطة منه عفا الله عنا وعنه !

ولما قتل تاشفين وفتحت تلمسان وفاس وقويت شوكة عبد المؤمن بايعه القاضى عياض حينئذ وقبل صلته ، لان من قويت شوكته وجبت طاعته .

ثم لما ضعف أمره ثانيا بسبب قيام الماسى عليه واجماع قبائل المغرب على التمسك بدعوته رجع القاضى بأهل سبتة عن بيعته الى طاعة المرابطين الذين لهم الحق فى الامامة بطريق الاصالة ، ولم يأخذ بدعوة الماسى لانه ثائر أيضا ، هذا مع ما كان ينقل عن المهدى من أنه غلبت نزغة خارجية عليه ، وانه يقول بعصمة الامام وذلك بدعة كما لا يخفى ، فتكون امامته وامامة أتباعه مقدوحا فيها من هذه الحيثية ، لكن حيث حصل التغلب والاستيلاء وجبت الطاعة . فالحاصل ان ما فعله القاضى عياض أولا وثانيا وثالثا كله صواب موافق للحكم الشرعى ، فهكذا ينبغى أن تفهم أحوال أئمة الدين ، واعلام المسلمين رضى الله عنهم ونفعنا بعلومهم .

وأما القتل والتحريق الذى صدر من أهل سبتة فالظن بالقاضى عياض رحمه الله انه لا يوافق على ذلك ولا يرضاه ، لكن العامة تتسرع إلى مجاوزة الحدود ، لا سيما

أيام الفتن ، وذلك معروف من حالهم والله الموفق .

ولما دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فتح الموحدون مدينة مكناسة القديمة بعد حصارهم اياها سبع سنين : اقتحموها عنوة يوم الاربعاء ثالث جمدى الاولى من السنة المذكورة فخربت وقتل أكثر رجالها وسبي حريمهم وخمست أموالهم ، ثم بنيت مكناسة تاكرارت المدينة الموجودة الآن .

اخبـــــار الاندلس وفتوحهــــــا

كان عبد المؤمن لما فتح تلمسان وفاسا بعث الى الاندلس جيشا من عشرة آلاف فارس من أنجاد الموحدين .

وقال ابن خلدون : بعث عبد المؤمن بعد فتح مراكش جيشا من الموحدين لنظر بدران بن محمد المسوفى النازع الى عبد المؤمن من جملة تاشفين بن علي ، وعقد له على حرب الاندلس ومن بها من لمتونة والثوار ، وأمده بعسكر آخر لنظر موسى بن سعيد ، وبعده بعسكر آخر لنظر عمر بن صالح الصنهاجى .

ولما أجازوا إلى الاندلس نزلوا بأبى الغمر بن عزرون ، صاحب شريش ، فكان أول بلد فتحوا من الاندلس بلد شريش ، خرج إليهم صاحبها أبو الغمر فيمن معه من المرابطين وبايعهم لعبد المومن ودخل فى طاعته . فكان الموحدون يسمون أهل شريش بالسابقين الاولين . وحررت أملاكهم ، فلم تزل محررة سائر أيامهم ، فلم يكن فى أملاكهم رباعة وجميع بلاد الاندلس مربعة . وكان ملوك الموحدين إذا قدم عليهم وفود الاندلس كان أول من ينادى منهم أهل شريش ، فكان يقال : أين السابقون ؟ فيدخلون للسلام ، فإذا سلموا وقضيت حاجاتهم انصرفوا فدخل غيرهم حينئذ ، وكان فتح شريش فاتح ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة .

ثم زحف الموحدون إلى لبلة ، وكان بها من الثوار يوسف بن أحمد البطروجى ، فبذل لهم الطاعة ، ثم زحفوا إلى شلب ففتحوها ، ثم نهضوا إلى باجة ، وبطليوس ،

حوهما أيضا . ثم زحفوا إلى اشبيلية فحاصروها برا وبحرا إلى أن فتحوها فى شعبان ة إحدى وأربعين وخمسمائة . وفر من كان بها من المرابطين إلى قرمونة . وقتل من كه القتل منهم ، وقتل فى حماتهم عبد الله ولد القاضى أبى بكر محمد بن عبد الله بن ربي المعافرى الحافظ المشهور ، وأصيب فى هيعة تلك الدخلة من غير قصد .

وكتب الموحدون بالفتح إلى عبد المؤمن ، ثم قدم عليه وفدهم بمراكش مبايعين سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، ورئيس الوفد يومئذ القاضى أبو بكر بن العربى كور ، فالفوا عبد المؤمن مشغولا بحرب محمد بن هود الماسى . فأقاموا بمراكش ة ونصفا . لم يلقوه فيها حتى كان يوم عيد الاضحى من سنة اثنتين وأربعين خمسمائة . فلقوه بالمصلى فسلموا عليه سلام الجماعة . ثم بعد ذلك دخلوا عليه فسلموا به السلام الخاص ، وقبلت بيعتهم .

وسأل عبد المؤمن القاضي أبا بكر بن العربى عن المهدى هل كان لقيه عند الامام أبى امد الغزالي . فقال : « ما لقيته . ولكن سمعت به » فقال له « فما كان أبو حامد ول فيه ؟ » قال : « كان يقول : إن هذا البربرى لابد أن سيظهر ! » ثم صرف عبد ؤمن أهل اشبيلية بعد أن أجازهم ، وكتب لهم منشورا بتحرير أملاكهم ، فانصرفوا ه فى جمدى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، فلما قربوا من مدينة فاس توفى لامام أبو بكر بن العربى رحمه الله ، فحمل ودفن خارج باب المحروق منها ، بتربة نائد مظفر ، وقبره مزارة إلى الآن ، وعليه قبة حسنة .

وفى هذه السنة ملك الموحدون قرطبة ، وكان بها يحيى بن علي المسوفي - المعروف بن غانية - مقيما لدعوة المرابطين ، فلما دخل الموحدون الاندلس واشتعلت نار الفتنة حرب المرابطين انتهز الطاغية الفرصة في بلاد الاسلام ، وضايق ابن غانية بقرطبة ، ألح على جهاته ، حتى نزل له عن بياسة وأبدة ، وتغلب على اشبونة ، وطرطوشة ، المريـــة ، وماردة ، وأفراغة ، وشنترين ، وشنتمرية ، وغيرها من حصون الاندلس ، طالب ابن غانية بالزيادة على ما بذل له أو الافراج عن قرطبة ، فأرسل ابن غانية إلى دران بن محمد أمير الموحدين ، واجتمعا باستجة ، وضمن له بدران أمان الخليفة عبد لومن على أن يتخلى له عن قرطبة وقرمونة ففعل ، ثم لحق بغرناطة ، وبها ميمون

ابن بدر اللمتوني في جماعة من المرابطين . وأراد أن يكلمه في الدخول في طاعة الموحدين وأن يمكنهم من غرناطة كما فعل هو بقرطبة ، فتوفى بغرناطة يوم الجمعة الرابع والعشرين من شعبان سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ودفن في القصبة بإزاء قبر باديس ابن حبوس الصنهاجي ، وانتهز الطاغية الفرصة في قرطبة فزحف إليها وحاصرها ، فجهز إليه الموحدون الذين كانوا باشبيلية أبا الغمر بن عزرون لحمايتها ، ووصل إليه مدد يوسف البطروجي من لبلة ، وبلغ الخبر عبد المؤمن فبعث إليها عسكرا من الموحدين لنظر يحيى بن يغمور ، ولما دخلها أفرج عنها الطاغية لأيام من مدخله ، وبادر ثوار الاندلس إلى يحيى بن يغمور في طلب الامان من عبد المومن . ثم تلاحقوا به بمراكش فتقبلهم ، وصفح لهم عما سلف .

قدوم عبد المؤمن الى سلا ووفادة اهل الاندلس عليه بها

لما كانت سنة خمس وأربعين وخمسمائة قدم عبد المومن من مراكش إلى سلا . فنظر في أمرها وأجرى إليها ماء عين غبولة . حتى وصل إلى رباطها ، ولم تكن رباط الفتح يومئذ قد بنيت ، لان بانيها حافده يعقوب المنصور كما سيأتي إن شاء الله . وإنما كان يقال رباط سلا .

ثم أذن عبد المومن لأهل الاندلس في الوفادة عليه بسلا ، فقدموا عليه في نحو خمسمائة فارس من الفقهاء والقضاة والخطباء والاشياخ والقواد . فتلقاهم الشيخ أبو حفص الهنتاتي . والوزير الكاتب أبو جعفر ابن عطية ، واشياخ الموحدين على نحو ميلين من المدينة . فأمر عبد المومن بانزالهم ، وأفاض عليهم سجال الاكرام . وانواع الضيافات والانعام . وبقوا على ذلك ثلاثة أيام ، ثم أذن لهم في الدخول فدخلوا عليه أول يوم من المحرم فاتح سنة ست وأربعين وخمسمائة ، فسلموا عليه .

وأشار الوزير ابن عطية لاهل قرطبة بالتقدم ، فتقدم قاضيهم أبو القاسم بن الحاج وأراد أن يتكلم فدهش . ثم وصف حال قرطبة ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن الفنش

لعه الله قد اضمعها » فتلافاه أبو بكر بن الجـد بالخطبة البليغة ، فجلى فى ذلك المجلس ، واستحسن عبد المؤمن خطبته ، ووصل الجميع كلا على قـدره ، وقضى مطالبهم ، وأوصاهم بما اقتضاه الحال،وامرهم بالانصراف إلى بلادهم ، فانصرفوا فرحين مغتبطين .

وقال ابن خلدون : « استدعى عبد المؤمن أهل الاندلس - وهو بسلا - ووفدوا عليه وبايعوه جميعا ، وبايعه الرؤساء من الثوار على الانخلاع من الامر ، مثل سدراتى ابن وزير صاحب باجة ويابرة ، ويوسف البطروجى صاحب لبلة ، وابن عزرون صاحب شريش ورندة ، ومحمد بن الحجام صاحب بطليوس ، وعامل بن مهيب صاحب طلبيرة ، وتخلف ابن القيسى وأهل شلب عن هذا الجمع فكان سببا لقتله من بعد ، وانصرف أهل الاندلس إلى بلادهم . ورجع عبد المؤمن إلى مراكش واستصحب الثوار فلم يزالوا بحضرته . والله تعالى أعلم .

غزو افريقية وفتح مدينة بجاية

ثم بلغ عبد المومن اصطراب بلاد افريقية بسبب تنازع ملوكها من بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين واستطالة العرب عليهم بها . فأجمع الرحلة إلى غزوها ، بعد ان شاور الشيخ أبا حفص وأبا ابراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه ، فخرج من مراكش أواخر سنة ست وأربعين وخمسمائة ، واستخلف عليها الشيخ أبا حفص الهنتاتى . وسار حتى وصل إلى سلا فأقام بها شهرين ، ثم نهض منها إلى سبتة مظهرا أنه يريد العبور إلى الاندلس بقصد الجهاد .

فلما وصل إلى سبتة استدعى فقهاء قرطبة واشبيلية وأعيان الاندلس وقوادها ، فاستوضح منهم أحوال البلاد ، وأوصاهم بما إليهم منها وودعهم .

ورحل عن سبتة مظهرا العود إلى مراكش ، وسار حتى وصل إلى القصر الكبير ، وهو قصر كتامة ، فميز جيوشه وأزاح عللهم وفرق فيهم الاموال . وأمرهم بتجديد الازواد ، وخرج يعتسف البلاد على غير طريق . فجعل مدينة فاس عن يمينه ، وجد السير حتى خرج على وادى ملوية ، ثم سار إلى تلمسان فأقام بها يوما واحدا . ثم خرج

منها و والى السير قاصدا بجاية . فطرق الجزائر على حين غفلة من أهلها . فدخلها وأمنهم ، وفر صاحبها القائم بن يحيى بن العزيز إلى أبيه يحيى ببجاية .

وخرج الى عبد المؤمن الحسن بن على الصنهاجى صاحب المهدية ، وكان الفرنج قد أخرجوه منها . فقصد ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب بجاية فعدل به الى الجزائر وأنزله بها كالمسجون . فلما طرق عبد المؤمن الجزائر فى هـذه المرة خرج اليه الحسن ابن علي المذكور ، فصحبه ووصل يده بيده ، حتى كان من أمره ما نذكره ان شاء الله .

ثم اعترضت جيوش صنهاجة عبد المؤمن بام العلو فهزمهم وصبح بجاية من الغـد فدخلها . وفر صاحبها يحيى بن العزيز الصنهاجى آخر ملوك بنى حماد أصحاب القلعة . فركب البحر فى أسطولين كان أعدهما لذلك ، واحتمل فيهما ذخيرته وأمواله ، وعزم على المسير إلى مصر ، ثم عدل إلى بونة فنزل على أخيه الحارث ، فأنكر عليه سوء صنيعه وافراجه عن البلد ، فارتحل عنه الى قسنطينة فنزل على أخيه الحسن فتخلى له عن الامر .

وفى خلال ذلك دخل الموحدون قلعة حماد عنوة ، وكان عبد المؤمن وجه جيشا من الموحدين اليها وأمر عليهم ابنه أبا محمـد عبد الله فدخلوها وأضرموا النيران فى مساكنها وخربوها وقتلوا بها نحو ثمانية عشر ألفا ، وامتلأت أيدى الموحدين من الغنائم والسبى ، ثم جمع لهم العرب الذين هناك من الاثبج وزغبـة ورياح وغيرهم بسطيف . فأوقعوا بهم واستلحموهم ، وسبوا نساءهم واكتسحوا أموالهم .

واما يحيى بن العزيز فإنه بايع لعبد المومن سنة سبع واربعين وخمسمائة . ونزل له عن قسنطينة واشترط لنفسه فوفى له عبد المؤمن ، ونقله إلى مراكش بأهلـه وخاصته فسكنها وأفاض عليه سجال الاحسان ، وأنزله منزلة رفيعة ، ثم انتقـل إلى سلا سنة ثمان وخمسين وخمسمائة . فسكن بقصر ابن عشرة منها إلى ان مات من سنته رحمه الله .

ووفد على عبد المومن بمراكش كبراء العرب من اهل افريقية طائعين ، فوصلهم ورجعوا إلى قومهم مغتبطين .

فتـــح المريـة وَبيَّاسَة وأبــدة

كانت هذه البلاد قد استولى عليها الفرنج أيام الموحدين والمرابطين بالاندلس ، فلما كانت سنة ست وأربعين وخمسمائة عبر الشيخ أبو حفص إلى الاندلس في جيش كثيف من الموحدين ومعه السيد أبو سعيد ابن أمير المومنين برسم الجهاد — وكان بنو عبد المؤمن يسمون أبناءهم بالسادة — فنزلوا المرية وضيقوا عليها بالحصار ، وبنى السيد أبو سعيد على محلته سورا ، واستغاث نصارى المرية بالفنش فأغـاثهم بمحمد بن مردنيش - وكان واصلا يده بيده - ووجه معه السلطين أحـد قواد الفرنج في جيش كثيف ، فلم يتمكنوا من البلد ولا من محلة الموحدين لكونها محصنة بالسور . فرجـع ابن مرديش والسلطين بخفي حنين وافترقا فلم يجتمعا بعد .

ثم عمد السلطين إلى بياسة وأبدة فأخلاهما من النصارى الذين كانوا بهما خوفا عليهم ، ورجع عوده على بدئه . وأما السيد أبو سعيد فإنه شدد الحصار على المريـة حتى نزلوا على الامان بواسطة الوزير ابن عطية .

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وجـه عبد المـؤمن على يصليتن قريب المهدى فأتى به مكبولا من سبتة ، فأمر بقتله وصلبه بباب مراكش لأمر نقمه عليه .

ثم ارتحل عبد المـؤمن بعد مقتل يصليتن إلى تينملل بقصد زيارة قبر المهدى ، فزار وفرق في أهلها أموالا عظيمة ، وأمر ببناء مسجدها وتوسعتها .

قدوم عبد المؤمن مدينة سلا وتولية اولاده على النواحي بها

لما قضى عبد المؤمن أربه من تينملل ارتحل منها إلى سلا ، فأقام بها بقية سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين بعدها . فبايـع لابنه السيد أبي عبد الله محمد بولايـة العهد . وأمر أن يذكر في الخطبة بعده ، وكتب بذلك إلى جميع الافاق .

ثم عقد لابنه السيد أبي الحسن علي على فاس وأعمالها ، واستوزر له أبا الحجاج يوسف بن سليمان . وعقد لابنه السيد أبي حفص عمر على تلمسان وأعمالها واستوزر له أبا محمد عبد الحق بن وانودين ، واستكتب له أبا الحسن عبد الملك بن عياش . وعقد لابنه السيد أبي سعيد عثمان على سبتة وطنجة ، واستوزر له أبا محمد عبد الله بن سليمان ، وأبا عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجي ، واستكتب له أبا بكر بن طفيل القيسي . وأبا بكر بن حبيش الباجي . وعقد لابنه السيد أبي محمد عبد الله على بجاية وأعمالها ، واستوزر له أبا سعيد يخلف بن الحسن . وعقد للشيخ أبي زيد بن يكّيت على قرطبة وأعمالها ، ويقال إن قرطبة كانت في هذا التاريخ بيد يحيى بن يغمور والله أعلم .

واستقامت الاحوال لعبد المؤمن وبنيه ، وصفا له المغربان والاندلس . والله غالب على أمره .

إيقاع عبد المومن بعبد العزيز وعيسى اخوي المهدى والسبب في ذلك

كان عبد العزيز وعيسى أخوا المهدى من مشيخة العسكر ووجوه الجيش باشبيلية أيام فتحها ووفادة أهلها على عبد المؤمن بمراكش حسبما تقدم . ثم ساء أثرهما بها ، واستطالت أيديهما على أهلها ، واستباحا الدماء والاموال . ثم اعتزما على الفتك بيوسف البطروجي صاحب لبلة ، فلحق ببلده وأخرج الموحدين الذين بها وحول الدعوة عنهم إلى المرابطين ، ونشأ عن ذلك فساد كبير بالاندلس ، ثم لحق أخوا المهدى بالعدوة في خبر طويل .

واستمر حالهما إلى أن بايع عبد المؤمن لابنه محمد بولاية العهد ، وعقد لاخوته على العمالات والنواحي ، ففسدت نية عبد العزيز وعيسى بذلك ، مع ما كان صدر من عبد المؤمن من قتل ابن عمهما يصليتن ، وكانا يومئذ بفاس وعبد المؤمن بسلا ، فخرجا

من فاس إلى مراكش على طريق المعدن مضمرين للغدر .

واتصل خبر خروجهما بعبد المـؤمن ، فخرج من سلا فى أثرهما متلافيا أمر مراكش . وقدم أمامه وزيره أبا جعفر ابن عطية ، فسبقاه إليها وداخلا بعض الاوباش بها فى شأنهما . فوثبوا بعاملها أبى حفص عمر بن تافراكين فقتلوه بمكانه من القصبة .

ووصل على إثرهما الوزير ابن عطية ثم عبد المومن على أثره ، فأطفأ تلك النائرة ، وتقبض عبد المومن على عبد العزيز وعيسى فقتلهما وصلبهما ، وتتبع المداخلين لهما فألحقهم بهما وانقطع الشغب وزال الفساد .

ايقاع يحيى بن يغمور بأهل لبلة واسرافه فى ذلك

لما كانت سنة تسع وأربعين وخمسمائة فتح الموحدون مدينة لبلة . وكان المتولى لفتحها يحيى بن يغمور والى قرطبة واشبيلية ، حاصرها مدة ثم اقتحمها عنوة ، وقبض على أهلها فخرج بهم إلى ظاهر المدينة . وصفهم فى صعيد واحد ثم عرضهم على السيف أجمعين حتى خلص القتل منهم إلى الفقيه المحدث أبى الحكام بن بطال ، والفقيه الصالح أبى عامر بن الجد !

وكان عدد من قتل من أهل لبلة فى ذلك الصعيد ثمانية آلاف وقتل بأحوازها نحو أربعة آلاف ثم بيعت نساؤهم وابناؤهم وأمتعتهم واسلابهم فعل ذلك افتياتا على عبد المومن ! وبلغه الخبر وهو بمراكش ، فسخطه . وبعث إليه عبد الله بن سليمان فجاء به معتقلا إلى الحضرة يوم عيد الفطر . فألزمه بيته وبقى على ذلك مـدة ثم عفا عنه وسرحه مع ابنه السيد ابى حفص إلى تلمسان . ولم يصرف إلى أهل لبلة شيئا مما أخذ لهم واستقام امر الاندلس . ونزل ميمون بن بدر اللمتونى عن غرناطة للموحدين فملكوها . وأجاز إليها السيد ابو سعيد صاحب سبتة ، بعهد ابيه عبد المـومن إليه بذلك ، ولحق الملثمون بمراكش .

امر (١) عبد المؤمن بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى الاصول من الكتاب والسنة

لما كانت سنة خمسين وخمسمائة أمر امير المومنين عبد المومن بن علي بإصلاح المساجد وبنائها في جميع ممالكه ، وبتغيير المنكرات ما كانت . وأمر مع ذلك بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث واستنباط الاحكام منها ، وكتب بذلك إلى جميع طلبة العلم من بلاد الاندلس والعدوة . فجزاه الله خيرا .

نقل المصحف العثماني من قرطبة الى مراكش
وبناء جامع الكتبيين بها

كان بقرطبة ثم بجامعها الاعظم المشهور مصحف أمير المومنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ذكر ذلك جماعة من المؤرخين منهم ابن بشكوال وغيره ، وكان ذلك المصحف الكريم متداولا عند بنى امية واهل الاندلس ، واستمر بقرطبة إلى دولة الموحدين فنقله عبد المؤمن إلى مراكش .

قال ابن بشكوال : « أخرج المصحف العثماني من قرطبة وغرب منها ، وكان

(١) الذى فى كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي : ان يعقوب المنصور هو الآمر بذلك ، فانظر هل فعل هذا اقتداء بجده أم من ذاته لاول الامر ، لكن الظاهر من كلام المراكشي أن إحراق كتب الفروع ورد الناس إلى الكتاب والسنة كان مقصدا وعزما لعبد المومن وابنه يوسف ، إلّا أنهما لم يظهراه ، وأظهره يعقوب بعدهما اه . وما ذكره المؤلف هنا منقول عن صاحب القرطاس . وكلام صاحب المعجب أولى بالاعتبار لقربه من الزمن المذكور ومشاهدته للواقع .

بجامعها الاعظم ليلة السبت الحادى عشر من شوال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة فى ايام ابى محمد عبد المؤمن بن علي وبأمره . وهذا احد المصاحف الاربعة التى بعث بها عثمان رضى الله عنه إلى الامصار : مكة . والبصرة . والكوفة . والشام . وما قيل من ان فيه دم عثمان بعيد ، وان يكن أحدها فلعله الشامى » .

قال ابن عبد الملك قال ابو القاسم التجيبى السبتى : « اما الشامى فهو باق بمقصورة جامع بني أمية بدمشق ، وعاينته هنالك سنة سبع وخمسين وستمائة ، كما عاينت المكى بقبة الشراب » . قال : « فلعله الكوفى أو البصرى » .

قال الخطيب ابن مرزوق في كتاب المسند الصحيح الحسن : « اختبرت الذى بالمدينة والذى نقل من الاندلس. فألفيت خطهما سواء . وما توهموه أنه خطه بيمينه فليس بصحيح فلم يخط عثمان واحدا منها ، وإنما جمع عليها بعضا من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المدنى ، ونص ما على ظهره هذا ما اجمع عليه جماعة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم زيد بن ثابت . وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وذكر العدد الذى جمعه عثمان رضى الله تعالى عنه من الصحابة رضى الله عنهم على كتب المصحف» اه

وكان من خبر نقله إلى مراكش ما ذكره ابن رشيد فى رحلته عن أبى زكريا يحيى ابن احمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسى عن كتاب جده الوزير ابى بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل المذكور ، قال : « وصل إلى عبد المومن ابناه السيدان أبو سعيد ، وأبو يعقوب من الاندلس ، وفى صحبتهما مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو الامام الذى لم يختلف فيه مختلف ، فتلقى وصوله بالاجلال والاعظام وبودر إليه بما يجب من التبجيل والاكرام .

وكان فى وصوله ذلك الوقت من عظيم العناية وباهر الكرامة ما هو معتبر لاولى الألباب . وذلك أن أمير المؤمنين عبد المؤمن كان قبل ذلك بأيام قد جرى ذكره فى خاطره ، وتروّى مع نفسه فى كيفية جلبه من مدينة قرطبة محل مثواه القديم ، فتوقع أن يتأذى أهل ذلك القطر بفراقه ، ويستوحشوا لفقدان إضاءته وإشراقه ، فوقف عن ذلك فأوصله الله إليه تحفة سنية . وهدية هنية ، دون أن يكدرها من البشر

اكتساب ، أو يتقدمها استدعاء أو احتلاب ، بل أوقع الله تعالى فى نفوس أهـل ذلك القطر من الفرح بإرساله ، ما اطلع بالمشاهدة على صحة صدقه ، وعضدت مخايل برقه . سواكب ودقه ، وعد ذلك من كرامات أمير المؤمنين عبد المؤمن وسعادته .

ثم عزم عبد المؤمن على تعظيم المصحف الكريم وشرع فى انتخاب كسوته ، واختيار حليته ، فحشر الصناع المتقنين ممن كان بالحضرة وسائر بلاد المغرب والاندلس، فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة من المهندسين ، والصوّاغين ، والنظامين ، والحلائين ، والنقاشين، والمرصعين ، والنجارين ، والزواقين ، والرسامين ، والمجلدين ، وعرفـاء البنائين ! ولم يبق من يوصف ببراعة ، أو ينسب إلى الحـذق فى صناعة ، إلّا أحضر للعمـل فيه ، والاشتغال بمعنى من معانيه !

وبالجملة ، فقد صنعت له أغشية بعضها من السندس ، وبعضها من الذهب والفضة ، ورصع ذلك بأنواع اليواقيت وأصناف الاحجار الغريبة النوع والشكل العديمة المثال . واتخذ للغشاء محمل بديع مما يناسب ذلك فى غرابة الصنعة وبداعة الصبغة .

واتخذ للمحمل كرسى على شاكلته ، ثم اتخذ للجميع تابوت يصان فيه على ذلك المنوال ! ووصف ذلك يطول .

وفى خلال هذه المدة أمر عبد المؤمن ببناء المسجد الجامع بحضرة مراكش حرسها الله ، فبدئ ببنائه وتأسيس قبلته فى العشر الاول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وكمل فى منتصف شعبان من السنة المذكورة على أكمل الوجوه وأغرب الصنائع ، وأفسح المساحـة ، وأحكم البناء والنجارة . وفيـه من شمسيات الزجاج ودرجات المنبر وسياج المقصورة مـا لـو عمل فى السنين العديدة لاستغرب تمامه ، فكيف فى هذا الامد اليسير الذى لم يتخيل أحد من الصناع ان يتم فيه تقديره وتخطيطه فضلا عن بنائه ! وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور .

ونهض عبد المؤمن عقب ذلك لزيارة روضة المهدى بمدينة تينملل ، فأقـام بها بقية شعبان ومعظم رمضان ، وحمـل فى صحبته المصحف العثمانى فى التابوت المذكور . ومعه مصحف المهدى ، وختم القرآن العزيز فى مسجد المهدى وعند ضريحه ختمات كثيرة . وعاد إلى مراكش .

ولم يزل الموحدون يعتنون بهذا المصحف الكريم ويحملونه فى أسفارهم متبركين به كتابوت بنى اسرائيل إلى أن حمله منهم السعيد وهو علي بن إدريس ابن يعقوب المنصور الملقب بالمعتضد بالله حين توجه إلى تلمسان ، آخر سنة خمس وأربعين وستمائة ، فقتل السعيد قريبا من تلمسان ، ووقع النهب فى الخزائن ، واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر ، ونهب المصحف فى جملة ما نهب منه ، وعثر عليه ملوك بنى عبد الواد أصحاب تلمسان ، فلم يزل فى خزانتهم بها إلى أن افتتحها السلطان الاعظم أبو الحسن المرينى أواخر شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، وحصل عنده فكان يتبرك به ويحمله فى أسفاره على العادة إلى أصيب فى وقعة طريف وحصل فى بلاد البرتقال ، وأعمل أبو الحسن الحيلة فى استخلاصه حتى وصل إلى فاس سنة خمس وأربعين وسبعمائة على يد بعض تجار آزمور ، واستمر فى خزانته إلى أن سافر أبو الحسن سفرته المعلومة الى افريقية فاستولى عليها .

ولما كانت سنة خمسين وسبعمائة ركب أبو الحسن البحر من تونس قافلا إلى المغرب ، وذلك فى إبان هيجان البحر ، فغرقت مراكبه وهلكت نفوس تجل عن الحصر ، وضاعت نفائس يعز وجود مثلها ، ومن جملتها المصحف العثمانى فكان ذلك آخر العهد به .

ومما يناسب ذكره هنا المصحف العقبانى ، وهو مصحف عقبة بن نافع الفهرى فاتح المغرب ، وكان متداولا عند ملوكه ومتبركا به وثانى المصحفين فى المنزلة عند أهل المغرب .

قال أبو عبد الله اليفرنى فى كتاب النزهة : « إن السلطان أبا العباس أحمد المنصور بالله المعروف بالذهبى لما جدد ولاية العهد لولده المأمون بعث إليه بالقدوم من مدينة فاس ، فوافاه بتامسنا ، وباشر المنصور أخذ البيعة له بنفسه ، وحضر الاعيان وأهل العقد والحل ، وأحضر المصحف الكريم الذى هو مصحف عقبة بن نافع الفهرى رضى الله عنه » قال : « وهو من ذخائر الخلفاء . وأحضر الصحيحان للشيخين . وقرئ ظهير البيعة وذلك فى شوال سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة . ولم يزل المصحف العقبانى متداولا بين الملوك السعديين إلى أن انقرضت دولتهم وجاءت الدولة الشريفة العلوية السجلماسية فانتقل المصحف المذكور اليها . وتداولته ملوكها الى أن جاء السلطان

المولى عبد الله بن إسمعيل بن الشريف رحمه الله ، فبعث هدية سنية مع ركب الحاج للحرم النبوى ، وبعث فى جملتها المصحف المذكور » .

قال صاحب البستان : « ولما سافر الركب النبوى يعنى سنة خمس وخمسين ومائة وألف وجه معه السلطان المولى عبد الله ثلاثة وعشرين مصحفا - بين كبير وصغير - كلها محلاة بالذهب ، منبتة بالدر والياقوت ، ومن جملتها المصحف الكبير العقبانى الذى كان الملوك يتوارثونه بعد المصحف العثمانى ، وهو مصحف عقبة بن نافع الفهرى نسخه بالقيروان من المصحف العثمانى ، فوقع هذا المصحف بيد الاشراف الزيدانيين يتداولونه بينهم إلى أن بلغ إلى السلطان المولى عبد الله المذكور فغربه من المغرب إلى المشرق ، ورجع الدر إلى صدفه والابريز إلى معدنه » .

قال الشيخ المسناوى :« وقد وقفت عليه حين أمر السلطان المولى عبد الله بتوجيهه إلى الحجرة النبوية ، وظهر لى أن تاريخ كتبه بالقيروان فيه نظر لبعد ما بينهما »

ووجه معه السلطان المذكور ألفى حصاة بالتثنية وسبعمائة حصاة من الياقوت المختلفة الالوان إلى الحجرة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وهذه الاخبار وإن كانت متباعدة التاريخ فهى متناسبة المعنى ، جمعناها هنا ليقف الناظر عليها فى محل واحد وتحصل فائدتها متناسقة . والله الموفق .

نكبة الوزير ابن عطية والسبب فيها

كان الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية من أهل مراكش وأصله القديم من طرطوشة ، ثم بعد من دانية .

وكان أبوه أبو أحمد بن عطية كاتبا لامير المسلمين علي بن يوسف اللمتونى ، ثم لابنه تاشفين من بعده ، وتحصل فى قبضة الموحدين فعفا عنه عبد المؤمن .

ولما حاصر عبد المؤمن فاسا اعتزم أبو أحمد هذا الفرار فتقبض عليه فى طريقه ، وسيق إلى عبد المؤمن فاعتذر ، فلم يقبل عبد المؤمن عذره . وسحب إلى مصرعه فقتل رحمه الله

وكان ابنه أبو جعفر صاحب الترجمة كاتبا لاسحق بن علي اللمتوني بمراكش فشمله عفو امير المومنين فيمن شمله من ذلك الفل .

وخرج في جملة الشيخ أبى حفص الهنتاتى حين نهض لقتال محمد بن هود الماسى . فلما كان الفتح وكتب رسالته المتقدمة وقف عليها عبد المومن فاستحسنها واستكتبه لذلك . ثم ارتفعت مكانته عنده فاستوزره ، فظهر غناؤه وكفايته ، وحمدت سيرته وادارته ، وقاد العساكر ، وجمع الاموال وبذلها ، وبعد فى الدولة صيته . ونال من الرتبة عند السلطان ما لم ينله أحد فى دولته ، وتحبب إلى الناس باجمال السعي والاحسان ، فعمت صنائعه ، وفشا معروفه . وكان محمود السيرة ، مبخت المحاولات ، ناجح المساعى ، سعيد المآخذ ، ميسر المآرب . وكانت وزارته زينا للوقت ، وكمالا للدولة رحمه الله .

ثم لما كانت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وفد أشياخ اشبيلية على عبد المؤمن ، ورغبوا منه فى ولاية بعض أبنائه عليهم ، فعقد لابنه السيد أبى يعقوب عليها ، وبعث معه الوزير ابن عطية المذكور لمباشرة الامور واصلاح الاحوال . فأغنى فى ذلك الغناء الجميل .

ولما غاب وجهه عن الحضرة وجد حساده السبيل إلى التدبير عليه والسعي به ، حتى أوغروا صدر الخليفة عليه ، فاستوزر عبد السلام بن محمد الكومى ، وانبرى لمطالبة ابن عطية وجد فى التماس عوراته ، وتشنيع سقطاته ، وطرحت بمجلس السلطان أبيات منها :

قل للامام أطال الله مدته * قولا تبين لذى لب حقائقه
ان الزراجين قوم قد وترتهم * وطالب الثار لم تؤمن بوائقه
وللوزير الى آرائهم ميل * لذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم فى اطفاء نارهم * فربما عاق عن أمر عوائقه
هم العدوّ ومن والاهم كهم * فاحذر عدوك واحذر من يصادقه
الله يعلم أنى ناصح لكم * والحق أبلج لا تخفى طرائقه

قالوا فلما وقف عبد المؤمن على هذه الابيات البليغة فى معناها وغر صدره على

وزيره أبى جعفر وأصمر له فى نفسه شرا . فكان ذلك من أقوى أسباب نكبته ، وقيل أفضى اليه بسر فافشاه .

وانتهى ذلك كله الى أبى جعفر وهو بالاندلس فقلق وعجل الانصراف الى مراكش . فحجب عند قدومه ، ثم قيد الى المسجد فى اليوم بعده حاسر العمامة واستحضر الناس على طبقاتهم . وقرروا على ما يعلمون من أمره وما صار اليه منهم ، فاجاب كل بما اقتضاه هواه . وأمر بسجنه ولف معه أخوه أبو عقيل عطية . وتوجه فى أثر ذلك عبد المؤمن الى زيارة تربة المهدى . فاستصحبهما بحال ثقاف .

وصدرت عن أبى جعفر فى هذه الحركة من لطائف الآداب نظما ونثرا فى سبيل التوسل بتربة امامهم المهدى عجائب ، فلم تجد شيئا مع نفوذ قدر الله تعالى فيه .

ولما انصرف من وجهته أعادهما معه قافلا الى مراكش ، فلما حاذى تاكمارت أنفذ الامر بقتلهما بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحة هنالك ، فمضيا لسبيلهما وذلك فى شوال سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة .

ومما خاطب به الوزير المذكور عبد المؤمن مستعطفا له من رسالة تغالى فيها فغالته المنية ، ولم ينل الأمنية ، وهذه سنة الله تعالى فيمن لم يحترم جناب الالوهية ، ولم يحرس لسانه من الوقوع فيما يخدش فى وجه فضل الانبياء على غيرهم . قوله سامحه الله : « تالله لو أحاطت بى كل خطية ، ولم تنفك نفسى عن الخيرات بطية ، حتى سخرت بمن فى الوجود ، وأنفت لآدم من السجود . وقلت ان الله تعالى لم يوح فى الفلك الى نوح ، وأبرمت لحطب نار الخليل حبلا ، وبريت لقدار ثمود نبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين ، وأوقدت مع هامان على الطين ، وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ، وافتريت على العذراء البتول فقذفتها ، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة ، وظاهرت الاحزاب بالقصوى من العدوة ، وأبغضت كل قرشى ، وأكرمت لاجل وحشى كل حبشى ، وقلت ان بيعة السقيفة ، لا توجب امامة الخليفة ، وشحذت شفرة غلام المغيرة ابن شعبة ، واعتلقت من حصار الدار وقتل اشمطها بشعبة . وقلت تقاتلوا رغبة فى الابيض والاصفر ، وسفكوا الدماء على الثريد الاعفر ، وغادرت الوجه من الهامة خضيبا . وناولت من قرع سن الحسين قضيبا . ثم أتيت حضرة المعصوم لائذا ، وبقبره

الامام المهدى عائذا ، لاذن لمقالتى أن تسمع ، وتغفرلى هذه الخطيئات أجمع ، مع انى مقترف ، وبالذنب معترف .

فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا * بحمل قلوب هدها الخفقان

والسلام على المقام الكريم ، ورحمة الله تعالى وبركاته » .

وكتب مع ابن له صغير آخرة :

عطفا علينا أمير المؤمنين فقد * بان العزاء لفرط البث والحزن
قد أغرقتنا ذنوب كلها لجج * ورحمة منكم أنجى من السفن
وصادفتنا سهام كلما غرض * وعطفة منكم أوقى من الجنن
هيهات للخطب أن تسطو حوادثه * بمن أجارته رحماكم من المحن
من جاء عندكم يسعى على ثقة * بنصره لم يخف بطشا من الزمن
فالثوب يطهر عند الغسل من درن * والطرف يرهص بعد الركض فى سنن
أنتم بذلتم حياة الخلق كلهم * من دون من عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من أحيت مكارمكم * كلتا الحياتين من نفس ومن بدن
وصبية كفراخ الورق من صغر * لم يألفوا النوح فى فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أياد منك سابقة * والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

فوقع عبد المؤمن على هذه القصيدة : الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين !

ومما كتب به من السجن :

أنوح على نفسى أم أنتظر الصفحا ؟ * فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحى
فها أنا فى ليل من السخط حائر * ولا أهتدى حتى أرى للرضا صبحا !

وامتحن عبد المؤمن الشعراء بهجو ابن عطية ، فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال : « ذهب ابن عطية وذهب الادب معه » .

وكان لابى جعفر أخ اسمه عطية قتل معه كما قلنا . ولعطية هذا ابن أديب كاتب وهو أبو طالب عقيل بن عطية . ومن نظمه فى رجل تعشق قينة كانت ورثت مالا من مولاها فكانت تنفق عليه منه ، فلما فرغ المال ملها ، فقال أبو طالب :

لا تلحه إن مل من حبها * فلم يكن ذلك عن ود

لما رآها قد صفا مالها * قال صفا الوجد مع الوجد !

ويروى أن الوزير ابن عطية رحمه الله مر مع الخليفة عبد المومن ببعض طرق مراكش فأطلت جارية بارعة الجمال من شباك فقال عبد المؤمن :

قدت فؤادى من الشباك إذ نظرت

فقال الوزير مجيزا له . حوراء ترنو إلى العشاق بالمقل

فقال عبد المؤمن :

كأنما لحظها فى قلب عاشقها

فقال الوزير : سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي

ولا خفاء أن هذه طبقة عالية ، رحم الله الجميع بمنه .

غزو افريقية ثانيا وفتح المهدية وغيرها من الثغور

كانت بلاد افريقية بيد بنى زيرى بن مناد الصهاجيين من لدن الدولة العبيدية بها . وفى هذا التاريخ كانت دولتهم قد أشرفت على الهرم ، وكثر التنازع بينهم ، وزاحمتهم الثوار من العرب وغيرهم بتلك الاقطار ، فانتهز الفرنج أصحاب صقلية الفرصة فيهم وملكوا منهم عدة ثغور مثل صفاقس وسوسة وغيرهما . ثم ملكوا بعد ذلك المهدية وهى يومئذ دار ملك الحسن بن على الصهاجى آخر ملوك بنى زيرى بن مناد ، ففر الحسن عنها الى ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب بجاية ، فانزله بالجزائر .

ولما طرق عبد المؤمن ثغر الجزائر فى غزوته الاولى الى افريقية خرج اليه الحسن ابن علي هذا وصحبه وصار فى جملته . فكان الحسن يغريه بغزو افريقية واستنقاذها من يد العدو .

وكان عبد المؤمن يحب ذلك ويرغب فيه إلا انه كان ينتظر ابان الفرصة . فاتفق ان فرنج صقلية أوقعوا باهل زويلة — وهى مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان — وقعة شنيعة ، حتى إنهم قتلوا النساء والاطفال ! ففر جماعة منهم الى عبد المؤمن بن على

وهو بمراكش يستغيثونه ويستنصرونه على العدو .

فلما وصلوا اليه أكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين . وانه ليس فى ملوك الاسلام من يقصد سواه ، ولا يكشف هذا الكرب غيره ، فدمعت عيناه وأطرق ، ثم رفع رأسه وقال : « أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين » وأمر بانزالهم . وأطلق لهم ألفي دينار

ثم أمر بعمل الروايا والقرب وما يحتاج اليه العسكر فى السفر . وكتب الى جميع نوابه فى المغرب — وكان قد ملك العدوتين الاندلس والمغرب واتسعت خطة مملكته الى قرب مدينة تونس — فكتب الى من بطريقه من النواب يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات وأن يترك الزرع فى سنبله ويخزن فى مواضعه وأن يحفروا الآبار فى الطرق ، ففعلوا جميع ما أمرهم به ، وجمعوا غلات الحب ثلاث سنين ونقلوها الى المنازل التى على الطريق ، وطينوا عليها فصارت كأنها تلال .

فلما كان صفر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة سار عبد المؤمن من مراكش يؤم بلاد افريقية

وقال ابن خلدون : « كان عبد المومن فى هذه السفرة قد عزم على العبور إلى الاندلس لما بلغه من اضطراب أحوالها واستطالة الطاغية بها ، فنهض يريد الجهاد . واحتل بسلا ، فبلغه انتقاض افريقية ، وأهمه شأن النصارى بالمهدية . فلما توافت العساكر بسلا استخلف الشيخ أبا حفص الهنتاتى على المغرب ، وعقد ليوسف بن سليمان على مدينة فاس ، ونهض يغذ السير إلى افريقية ، واجتمع عليه من العساكر مائة ألف مقاتل ومن الاتباع والسوقة أمثالهم . وكان هذا الجند يمتد أميالا .

وبلغ من حفظه وضبطه أنهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة ! وإذا نزلوا صلوا بامام واحد بتكبيرة واحدة ، لا يتخلف منهم أحد كائنا من كان .

وقدم بين يديه الحسن بن علي الصنهاجى صاحب المهدية ، وكان قد اتصل به كما قلنا ، فلم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس فى الرابع والعشرين من جمدى الآخرة من السنة ، وبها صاحبها أحمد بن خراسان . وأقبل اسطوله فى البحر فى سبعين شينيا وطريدة وشلندا .

فلما نازلها راسل أهلها يدعوهم إلى الطاعة فامتنعوا . فقاتلهم من الغد أشد قتال . ولما جن الليل نزل سبعة عشر رجلا من أعيان أهلها إلى عبد المومن يسألونه الامان لأهل بلدهم ، فأجابهم عبد المومن بأن لهم الامان في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطاعة ، وأما من عداهم من سائر أهل البلد فيؤمنهم في أنفسهم وأهليهم . ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفين ! وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله . فاستقر الامر على ذلك وتسلم البلد ، وبعث إليهم من يمنع العساكر من الدخول عليهم . وبعث أمناءه ليقاسموا الناس على أموالهم وأملاكهم ، وأقام أهل تونس بها على اجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم ! وعرض عبدُ المؤمن الاسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن أبى قتل !

وأقام عليها ثلاثة أيام ثم سار إلى المهدية واسطوله يحاذيه في البحر ، فوصل إليها ثامن عشر رجب من السنة المذكورة ، وكان بالمهدية يومئذ خواص الفرنج من أولاد ملوكها وأبطال فرسانها . وقد اخلوا مدينة زويلة المجاورة للمهدية فدخلها عبد المومن ، وامتلأت بالعساكر والسوقة ، فصارت مدينة معمورة في ساعة واحدة ، ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها . وانضاف إليه من صنهاجة والعرب وأهل افريقية ما يخرج عن الاحصاء ، وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها وضيق محال القتال عليها لأن البحر دائر بأكثرها فكأنها كف في البحر ، وزندها متصل بالبر . وكانت الفرنج تخرج شجعانها إلى أطراف العسكر . فتنال منه ويعودون سريعا ، فأمر عبد المومن ببناء سور غربي المدينة يمنعهم من الخروج . وأحاط الاسطول بها في البحر ، وركب عبد المؤمن شينيا ومعه الحسن بن علي الذي كان صاحبها ، وتطوف بها في البحر ، فهاله ما رأى من حصانتها وعلم انها لاتفتح بقتال برا ولابحرا . وليس لها إلّا المطاولة وقال للحسن : « كيف نزلت عن مثل هذا الحصن ! ؟ » فقال : « لقلة من يوثق به ، وعدم القوت ، وحكم القدر » فقال : « صدقت ! » .

وعاد عبد المومن من البحر وأمر بجمع الغلات والاقوات ، وترك القتال ، فلم يمض غير قليل حتى صار في المعسكر مثل الجبلين من الحنطة والشعير . فكان من يصل إلى

المعسكر من بعيد يقول : « متى حدثت هذه الجبال ؟ » فيقال : « هي حنطة وشعير ! » فيتعجب من ذلك . وتمادى الحصار .

وفي مدة هذا الحصار استولى عبد المومن على طرابلس وصفاقس وسوسة وجبال نفوسة وقصور افريقية وما والاها ، وفتح مدينة قابس بالسيف ، وسير ابنه السيد أبا محمد من مكان حصاره للمهدية في جيش ففتح بلادا أخرى . ثم أطاعه أهل مدينة قفصة . وقدم عليه صاحبها فوصله بألف دينار . وبالجملة فإنه استخلص في هذه المدة جميع بلاد افريقية من أيدي القائمين بها .

ولما كان الثاني والعشرون من شعبان من السنة المذكورة جاء اسطول صاحب صقلية في مائة وخمسين شينيا غير الطرائد ممدا لاهل المهدية . وكان هذا الاسطول قد قدم من جزيرة يابسة من بلاد الاندلس ، وقد سبى أهلها وأسرهم وحملهم معه ، فأرسل إليهم ملك الفرنج يأمرهم بالمسير إلى المهدية ، ليمدوا اخوانهم الذين بها ، فقدموا في التاريخ المذكور ، فلما قاربوا المدينة حطوا شُرعَهم ليدخلوا المينا ، فخرج إليهم أسطول عبد المؤمن . وركب العسكر جميعه ، ووقفوا على جانب البحر ، فاستعظم الفرنج ما رأو من كثرة العساكر وداخل الرعب قلوبهم .

ونزل عبد المؤمن الى الارض فجعل يمرغ وجهه ويبكي ويدعو للمسلمين بالنصر واقتتلوا في البحر ، فانهزمت شواني الفرنج وأعادوا القلوع وساروا وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شواني ، وكان أمرا عجيبا وفتحا غريبا .

وعاد اسطول المسلمين مظفرا منصورا ، وفرق فيهم عبد المؤمن الاموال ويئس أهل المهدية حينئذ من النجاة . ومع ذلك فقد صبروا على الحصار أربعة أشهر أخرى الى آخر ذي الحجة من السنة ، فنزل حينئذ من فرسان الفرنج إلى عبد المؤمن عشرة وسألوا الامان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها إلى بلادهم ، وكان قوتهم قد فني حتى أكلوا الخيل ، فعرض عليهم عبد المؤمن الاسلام ودعاهم اليه ، فقالوا : « ما جئنا لهذا وانما جئنا نطلب فضلك » وترددوا اليه أياما .

وكان من جملة ما استعطفوه به ان قالوا : « أيها الخليفة ، ما عسى أن تكون المهدية ومن بها بالنسبة الى ملكك العظيم وأمرك الكبير ، وان أنعمت علينا كنا

أرقاء لك فى أرضنا ! » فعفا عنهم ـ وكان الفضل شيمته ـ وأعطاهم سفنا ركبوا فيها وساروا وكان الزمن شتاء فغرق أكثرهم ، ولم يصل منهم الى صقلية الا النفر اليسير.

وكان صاحب صقلية قد قال « إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين عندنا بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم » فأهلك الله الفرنج غرقا .

وكان مدة استيلائهم على المهدية اثنتى عشرة سنة . فدخلها عبد المؤمن صبيحة يوم عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة . فكان يقال لهذه السنة سنة الاخماس.

وأقام عبد المؤمن بالمهدية عشرين يوما حتى رتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل اليها الذخائر والاقوات والرجال والعدد .

واستخلف عليها أبا عبد الله محمد بن فرج الكومى وجعل معه الحسن بن على الصنهاجى الذى كان صاحبها ، وأمره أن يقتدى برأيه فى أفعاله ، وأقطع الحسن بها اقطاعا ، وأعطاه دورا نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده .

وصفت افريقية كلها لعبد المؤمن ودخل أهلها فى طاعته من برقة الى تلمسان ، ولم يبق له بها منازع ، ففرق فيها عماله وقضاته وضبط ثغورها وأصلح شؤنها .

وثنى عنانه إلى المغرب أول صفر من السنة المذكورة ، وانقطعت عادية الفرنج عن بلاد افريقية مدة مديدة . والله تعالى أعلم .

توظيف عبد المؤمن الخراج على أرض المغرب

وفى هذه السنة أعنى سنة خمس وخمسين وخمسمائة أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد افريقية والمغرب ، فكسر من برقة فى جهة الشرق الى بلاد نول من السوس الاقصى فى جهة الغرب بالفراسخ والاميال ، طولا وعرضا . ثم أسقط من التكسير الثلث فى الجبال والغياض والانهار والسباخ والحزون والطرق ، وما بقي قسط عليه الخراج ، وألزم كل قبيلة بقسطها من الزرع والورق . فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب عفا الله عنه .

بناء عبد المؤمن جبـــــل طارق

كان عبد المؤمن رحمه الله ـ وهو بافريقية ـ قد أمر ببناء جبـل الفتح وتحصينه ، وهو جبل طارق ، فبنى وشيد حصنه . وكان ابتداء البناء به فى تاسع ربيع الاول من سنة خمس وخمسين وخمسمائة المذكورة ، وكمل بناؤه فى ذى القعدة منها .

بناء عبد المـــؤمن مدينة البطحاء

لما كان عبد المؤمن قافـلا من بلاد افريقية بنى مدينة البطحاء ، وسبب بنائه إياها أنه لمـا طالت بالموحدين الاقامة بالمشرق والتغرب عن أوطانهم عزمت طائفة منهم على قتل عبد المؤمن والفتك به في خبائه إذا نام فأتى شيخ من أشياخ الموحدين ممن اطلع على ذلك إلى عبد المؤمن فأخبره الخبر ، وقال له : « دعنى أبت الليلة فى مضجعك وأنم على فراشك ، فإن فعلوا ما اتفقوا عليـه كنت قـد فديتك بنفسى فى حق المسلمين وأجرى فى ذلك على الله ! وإن حصلت السلامة فمن الله تعالى ، ويكون أحرى على قدر نيتى ! » فبات على فراشه . فاستشهد فى تلك الليلة . فلما أصبح عبد المؤمن وصلى الصبح افتقده فوجده قتيلا على فراشه ، فأخذه وحمله بين يديه على ناقة لا يقودها أحد ، فسارت الناقة يمينا وشمالا حتى بركت وحدها ، فأمر عبد المؤمن بالشيخ فأنزل عنها . وأخــذ بزمام الناقة فأزيلت عن مبركها ، وحفر قبره فيه ودفن ، وبنيت عليه قبة . وبنى بازاء القبة جامعـا .

ثم أمر ببناء المدينة حول المسجد ، وترك بها عشرة أهل بيت من كل قبيلة من قبائل المغرب . فقبر الشيخ هنالك مزارة عند أهل تلك البلاد إلى اليوم قاله فى القرطاس .

ولمـا دخل عبد المؤمن إلى تلمسان فى هـذه الرجعة قبض على وزيره عبد السلام بن محمد الكومى فسجنه ثم سمه في جرعة لبن هلك بها من ليلته .

عبور عبد المومن الى جبل طارق والسبب فى ذلك

كان عبد المؤمن — وهو بافريقية — قد بلغه أن محمد بن مردنيش الثائر بشرق الاندلس قد خرج من مرسية ونازل جيان ، وأطاعه واليها محمد بن علي الكومى ، ثم نازل بعدها قرطبة ورحل عنها ، وغدر بقرمونة وملكها ، ثم رجع إلى قرطبة وخرج ابن يكّيت لحربه فهزمه ابن مردنيش وقتله .

وكتب عبد المؤمن إلى عماله بالاندلس يخبرهم بفتح افريقية عليه وانه واصل اليهم. فلما نهض من تلمسان فى رجعته هذه عدل الى طنجة فدخلها فى ذى الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وأقام بها إلى أن دخلت سنة ست وخمسين بعدها ، فعبر منها إلى الاندلس ونزل بجبل طارق فأقام به شهرين ، واستشرف منه أحوال الاندلس ، ووفد عليه قوادها وأشياخها فأمر بغزو غرب الاندلس ، فنهض إليه الشيخ أبو محمد عبد الله ابن أبى حفص الهنتاتى من قرطبة فى جيش كثيف من الموحدين ، ففتح حصن المرنكش من أحواز بطليوس وقتل جميع من كان به من النصارى ، وخرج الفنش من طليطلة لاغاثته فوجده قد فتح . وصمد الموحدون لقتاله فهزمه الله ، وقتل من عسكره ستة آلاف ، وساق المسلمون السبي إلى قرطبة واشبيلية .

وفى هذه السنة ملك الموحدون بطليوس ، وباجة ، ويابورة ، وحصن القصر ، فولى عليها عبد المؤمن محمد بن علي بن الحاج وعاد إلى مراكش .

قدوم كومية قبيلة عبد المؤمن عليه بمراكش والسبب فى ذلك

تقدم لنا ان عبد المؤمن لم يكن من المصامدة ، وانما كان من كومية إحدى بطون بنى فاتن من البرابرة البتر ، وكانت مواطنهم بالمغرب الاوسط ، الى ان استدعاهم عبد المؤمن الى مراكش سنة سبع وخمسين وخمسمائة .

والسبب فى ذلك انه لما همت الطائفة من الموحدين بقتله وقتلوا الشيخ الذى فداه بنفسه وتحقق ذلك منهم ورأى أنه غريب بين اظهرهم ليس له قبيل يستند إليه ، ولا عشير يثق به ويعتمد عليه ، أرسل فى خفية الى أشياخ كومية الذين هم قبيلته وعشيرتهم ، وأمرهم بالقدوم عليه وأن يركبوا كل من بلغ الحلم منهم ، ويأتوه فى أحسن زى وأكمل عدة ، وسرب اليهم الاموال والكسى ، فاجتمع منهم أربعون ألف فارس ، ثم أقبلوا الى عبد المؤمن — وهو بمراكش — برسم خدمته ، والقيام بين يديه .

ولما دخلوا أرض المغرب تشوش أهله من قدوم هذا الجيش الجميل ، من غير أن يتقدم لهم سبب ظاهر ، وتقول الناس الاقاويل ، فسار جيش كومية حتى نزلوا على وادى أم الربيع ، وتسامع الموحدون باقبالهم فارتابوا منهم ، وعرفوا أمير المؤمنين عبد المؤمن بخبرهم ، فأمر عبد المؤمن الشيخ أبا حفص الهنتاتى أن يخرج اليهم فى جماعة من الموحدين وأشياخهم ليتعرفوا خبرهم ، فسار حتى لقيهم على وادى أم الربيع فقال لهم: « ما أنتم أسلم لنا أم حرب ؟ » قالوا : « بل نحن سلم ، نحن قبيل أمير المؤمنين ، نحن كومية قصدنا زيارته والسلام عليه » . فرجع أبو حفص وأصحابه وعرف عبد المؤمن الخبر ، فأمر جميع الموحدين أن يخرجوا الى لقائهم ففعلوا واحتفلوا لذلك .

وكان يوم دخولهم مراكش يوما مشهودا ، فرتبهم عبد المؤمن فى الطبقة الثانية من أهل الديوان ، وجعلهم بين قبيلة تيملل والقبيلة التابعة لهم . وجعلهم بطانته يركبون خلف ظهره ويمشون بين يديه إذا خرج ويقومون على رأسه إذا جلس ، فاعتضد بهم عبد المؤمن وبنوه سائر دولتهم الى انقراضها . والله غالب على أمره .

استعـــداد عبد المـــؤمن للجهاد

وإنشاؤه الاساطيل بسواحل المغرب وما يتبع ذلك من وفاته رحمه الله

لما تمهد لعبد المؤمن ملك المغربين وأفريقية والاندلس وطاعت له سائر الاقطار وخضعت له الرقاب في البوادي والامصار تفرغ لشأنه . وتاقت نفسه للجهاد ، فعزم على غزو بلاد الفرنج برا وبحرا ، فأمر رحمه الله فى هذه السنة التى هى سنة سبع وخمسين وخمسمائة بانشاء الاساطيل فى جميع سواحل ممالكه ، فأنشىء له منها أربعمائة قطعة ، فمنها بحلق المعمورة وهى التى تسمى اليوم المهدية ، مائة وعشرون قطعة ، ومنها بطنجة وسبتة وبادس ومراسى الريف مائة قطعة ، ومنها ببلاد افريقية ووهران ومرسى هنين مائة قطعة . ومنها ببلاد الاندلس ثمانون قطعة .

ونظر فى استجلاب الخيل للجهاد والاستكثار من أنواع السلاح والعدد ، وأمر بضرب السهام فى جميع عمله ، فكان يضرب له منها فى كل يوم نحو عشرة قناطير جدية! فجمع له من ذلك ما لا يحصى كثرة ، وفى خلال هذا وفدت عليه قبيلة كومية كما مر .

ثم لما دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة خرج أمير المؤمنين عبد المومن من مراكش قاصدا الاندلس برسم الجهاد ، وكان خروجه يوم الخميس خامس ربيع الاول من السنة المذكورة ، فوصل الى رباط سلا فكتب الى جميع بلاد المغرب والقبلة وافريقية والسوس وغير ذلك يستنفرهم الى الجهاد ، فأجابه خلق كثير ، واجتمع له من عساكر الموحدين والمرتزقة ومن قبائل العرب والبربر وزناتة أزيد من ثلاثمائة ألف فارس ! ومن جيوش المتطوعة ثمانون ألف فارس ، ومائة ألف راجل! فضاقت بهم الارض وانتشرت المحلات والعساكر فى أرض سلا ، من عين غبولة إلى عين خميس . إلى حلق المعمورة .

فلما استوفيت لديه الحشود ، وتكاملت لديه الجنود والوفود . كان المعنى الذى أشار اليه القائل .

اذا تم أمر بـدا نقصه * ترقب زوالا اذا قيل تم

فابتدأ بعبد المومن مرضه الذى توفى منه ، وتمادى بـه ألمه فخاف أن يفجـأه الحمام فأمر بعزل ولده محمد عن ولاية العهد واسقاط اسمه من الخطبة ، لما ظهر لـه من العجز عن القيام بأمر الخلافة .

وكان ذلك يوم الجمعة الثانى من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وكتب بذلك الى جميع طاعته . وتمادى به مرضه واشتد ألمه فتوفى ليلة الجمعة الثامن من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وقيل غير ذلك . وحمل الى تينملل فدفن بهـا الى جنب قبر الامام المهدى رحمه الله ، فسبحان من لا يبيد ملكه ولا ينقصى عزه .

ونقل ابن خلكان فى كيفية عزل ولى العهد وجها (١) آخر . قال ناقلا من خط العماد بن جبريل « ان عبد المؤمن كان فى حياته قـد عهد الى أكبر أولاده ،وهو محمـد ، وبايعه الناس بعد تحليف الجند له . وكتب ببيعته الى البـلاد ، فلمـا مات عبد المؤمن لم يتم له الامر ، لانه كان على أمور لايصلح معها للمملكة ، من ادمـان شرب الخمر ، واختلال الرأى ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس . ويقال انه مع هذا كله كان به ضرب من الجذام . واضطرب أمره واختلف الناس عليه فخلع . وكانت مدة ولايته خمسة وأربعين يوما ، وذلك فى شعبان من سنة ثمان وخمسين وخمسمائة . وكان الذى سعى فى خلعه أخويه أبا يعقوب يوسف وأبا حفص عمر ابنى عبد المؤمن ، ولما تم خلعه دار الامر بين الاخوين المذكورين ، وهما من نجباء أولاد عبد المؤمن ومن ذوى الرأى فتأخر منهما أبو حفص عمر ، وسلم الامر الى اخيه أبى يعقوب يوسف ، فبايعوه الناس واتفقت عليه الكلمة . والله تعالى أعلم .

---

(١) على هذا الوجه اقتصر صاحب المعجب طبع سلا صحيفة ١٤٢ ، والوجه الاول ذكره صاحب القرطاس وابن الاثير فى تاريخه جزء ١١ صحيفة ١١٧ .

بقيـة أخبار عبد المؤمن وسيرتـه

قال ابن خلكان . « كان عبد المؤمن عند وفاته شيخا نقى البياض » قال : « ونقلت من تاريخ فيه سيرته وحليته فقال مؤلفه رأيتـه شيخا معتدل القامة . عظيم الهامة . أشهل العينين ، كث اللحية ، شثن الكفين ، طويل القعدة ، واضح بياض الاسنان ، بخده الايمن خال » .

وكان رحمه الله فصيحا فقيها عالما بالاصول والجدل والحديث مشاركا فى كثير من العلوم الدينية والدنيوية ، ذا حزم وسياسة وإقدام فى الحرب ومهمات الامور . سرى الهمة ، ميمون النقيبة ، لم يقصد قط بلدا إلّا فتحه ، ولا جيشا إلّا هجمه . محبا لاهل العلم والادب ، مكرما لوفادتهم ، منفقا لبضاعتهم . ذكر العماد الاصبهانى فى كتاب الخريدة أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن أبى العباس التيفاشى لما أنشده :

ما هز عطفيه بين البيض والاسل * مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

أشار عليه أن يقتصر على هذا البيت ، وأمر له بألف دينار .

وقد تقدم ما دار بينه وبين وزيره ابن عطية من الشعر الذى تجاذباه في أمر الجارية التى أطلت من الشباك ، وذلك دليل على سراوة طبعه ، وخفة روحه . رحمه الله .

الخبر عن دولة أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن على

قال ابن خلدون : « لمـا هلك عبد المؤمن أخـذ السيد أبو حفص بن عبد المؤمن البيعة على الناس لاخيه أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن باتفاق من الموحـدين كافة ، ورضى من الشيخ أبى حفص الهنتاتى خاصة ، واستقل فى رتبة وزارته ،

وذكر القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر مؤرخ دولتهم ان أمير المؤمنين يوسف ابن عبد المؤمن بويع بيعة الجماعة يوم الجمعة ثامن ربيع الاول سنة ستين وخمسمائة ، وذلك بعد وفاة والده عبد المؤمن بسنتين ، لانه لمـا بويع بعد وفاة والده توقف عن بيعته ناس من أشياخ الموحدين ، وامتنع من بيعته أخواه : السيد أبو محمد صاحب بجاية ، والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة ، فكف عنهم ، ولم يطالبهم ببيعة ، وتسمى بالامير ولم يتسم بأمير المؤمنين حتى اجتمع عليه الناس .

وذكر ابن مطروح فى تاريخه انه لمـا مات عبد المومن كان ولده يوسف باشبيلية . فأخفى أصحابه موته ، وأرسلوا الى يوسف ، فوصل من اشبيلية الى سلا فى أقرب وقت فبويع بها ولم يتخلف عن بيعته إلّا ناس قليلون ، فلم يلتفت اليهم .

وكان أول شىء فعله بعد البيعة ان سرّح الجيوش المجتمعة للجهاد الى بلادهم وقبائلهم ، وكتب الى البلاد بتسريح السجون وتفريق الصدقات فى جميع عمله ، وتسمى بالامير ، ثم ارتحل الى مراكش فـدخلها وأقام بها ، وكتب الى جميع أهل طاعته من الموحدين يطلبهم بالبيعة ، فأتته البيعة من جميع بلاد افريقية والمغرب والاندلس ، ما خـلا قرطبة وبجاية ، فـان ولاتهما وهما أخواه توقفا عن ذلك ، وانتشر خـبر أمير المؤمنين يوسف فى أقطار البلاد ، ودان له من بالعدوتين من العباد ، وفرق الاموال فى القبائل والاجناد .

وفى سنة تسع وخمسين وخمسمائة قـدم عليه أخواه السيد أبو محمد صاحب بجاية ، والسيد أبو عبـد الله صاحب قرطبة تائبين مبايعـين ، وقـدم معهما أشياخ بلديهما ،

وفقهاؤهما . فوصلهم أمير المؤمنين يوسف بالاموال والخلع . وأحسن اليهم .

وفى هذه السنة ثار مردرع الصنهاجى من صنهاجة مفتاح . وضرب السكة باسمه . وكتب فيها « مرزدع الغريب ، نصره الله عن قريب . » وكانت ثورته ببلاد غمارة . فبايعه خلق كثير من غمارة وصنهاجة وأوربة . فافسد تلك الناحية ودخل مدينة تازا وقتل بها خلقا كثيرا وسبى . فبعث اليه أمير المؤمنين يوسف جيشا من الموحدين ، فقتل وحمل رأسه الى مراكش .

وفى سنة ستين وخمسمائة كانت وقعة الجلاب بالاندلس بين السيد أبى سعيد بن عبد المؤمن وجيوش الفرنج مع ابن مردنيش ، وكانت الفرنج ثلاثة عشر ألفا ، فهزم ابن مردنيش وقتل من معه من الفرنج باجمعهم ، وكتب السيد أبو سعيد بالفتح إلى أخيه أمير المؤمنين يوسف .

وفى احدى وستين وخمسمائة عقد أمير المؤمنين يوسف على بجاية لاخيه السيد أبى زكريا ، وعلى أشبيلية للشيخ أبى عبد الله محمد بن ابراهيم ، ثم أدال منه بأخيه السيد أبى ابراهيم ، وأقر الشيخ أبا عبد الله على وزارته ، وعقد على قرطبة لاخيه السيد أبى اسحق ، وأقر السيد أبا سعيد على غرناطة .

ثم نظر الموحدون فى وضع العلامة المكتوبة بخط الخليفة فاختاروا : « الحمد لله وحده » لما وقفوا عليها بخط الامام المهدى فى بعض مخاطباته ، فكانت علامتهم إلى آخر دولتهم . والله أعلم

ثورة سبع بن منغفاد بجبال غمارة

وفى سنة احدى وستين وخمسمائة ثار سبع بن منغفاد ، وسماه ابن أبى زرع يوسف ابن منغفاد بجبل تيزيران من بلاد غمارة . وعظمت الفتنة فى قبائلها ، وجاذبهم فيها جيرانهم من صنهاجة . فبعث إليهم أمير المومنين يوسف بن عبد المؤمن عساكر الموحدين ، إلى نظر الشيخ أبى حفص الهنتاتى ، ثم تعاظمت فتنة غمارة وصنهاجة . فخرج إليهم أمير المؤمنين بنفسه وأوقع بهم واستأصلهم ، وقتل سبع بن منغفاد وحمل رأسه إلى

مراكش وانحسم داؤهم، وعقد يوسف لاخيه السيد أبي علي الحسن على سبتة وسائر بلادهم.

وفى سنة ثلاث وستين اجتمع الموحدون على تجديد البيعة ليوسف بن عبد المومن واللقب بأمير المومنين، وذلك فى جمادى الآخرة منها، وحاطب العرب بافريقية يستدعيهم إلى الغزو ويحرضهم. وكتب إليهم فى ذلك بقصيدة ورسالة مشهورة بين الناس، فكان من احتفالهم ووفودهم عليه ما هو معروف.

وفى سنة أربع وستين بعدها وفد عليه أهل الامصار من افريقية والمغرب والاندلس: القضاة والفقهاء والخطباء والشعراء والاشياخ والاعيان برسم التهنئة والمطالعة بأحوال بلادهم، فوصلت الوفود إلى مراكش. فدخلوا عليه وهنؤه بالخلافة، ووصل الجميع كل على قدره، وأوصاهم بما اقتضاه الحال. وكتب لهم الظهائر بمطالبهم وإصلاح شؤونهم، وانصرفوا شاكرين.

وفى هذه السنة أيضا بعث أمير المومنين الشيخ أبا حفص الهنتاتى فى جيوش الموحدين إلى الاندلس لاستنقاذ بطليوس من حصار العدو، واحتفل أمير المؤمنين فى فى ذلك. فلما انتهوا إلى اشبيلية بلغه أن الموحدين وأهل بطليوس هزموا العدو وأسروا قائد جيشه. فسار الشيخ أبو حفص إلى قرطبة.

وفى سنة خمس وستين بعدها وجه يوسف بن عبد المؤمن أخاه السيد أبا حفص الى الاندلس برسم الجهاد، فعبر البحر من قصر المجاز الى طريف فى عشرين ألفا من الموحدين والمتطوعة، فدوخوا بلاد العدو. وبعث السيد أبو حفص أخاه السيد أبا سعيد الى بطليوس، فعقد الصلح مع الطاغية ابن اذفونش — وهو يومئذ أعظم ملوك فرنج الجزيرة — وانصرف، ونهضوا جميعا إلى مرسية ومعهم ابراهيم بن همشك كان من قواد ابن مردنيش فنزع عنه الى الموحدين فحاصروا ابن مردنيش الثائر بمرسية وأعمالها، واستولوا على أكثر بلاده، واتصل الخبر بالخليفة بمراكش وقد خف الى الجهاد.

وفى سنة ست وستين أمر أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ببناء قنطرة تانسيفت (١) وكان الشروع فى بنائها يوم الاحد ثالث صفر من السنة المذكورة.

---

(١) جاء فى كتاب الروض المعطار أن على بن يوسف بن تاشفين اللمتونى كان قد بنى قنطرة تانسيفت وأن السيل أتى بعد ذلك فهدمها.

الجواز الاول لامير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن
الى الاندلس بقصد الجهاد

لما اتصل بأمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ما اتفق لشقيقه السيد أبى حفص من الاستيلاء على غالب بلاد ابن مردنيش ، وظهور المسلمين على عدوهم بها ، وكان بعض ملوك الفرنج بها لم يزالوا يشغبون على المسلمين بالغارات على أطراف بلادهم ، تاقت نفسه الى العبور الى بلاد الاندلس بقصد اصلاح حالها وجهاد العدو بها ، وقد توافت لديه وهو بمراكش جموع العرب من افريقية صحبة السيد أبى زكريا صاحب بجاية والسيد أبى عمران صاحب تلمسان .

وكان يوم قدومهم عليه يوما مشهودا . فاعترضهم وسائر عساكرهم ، ونهض الى الاندلس فى مائة ألف من العرب والموحدين ، واستخلف على مراكش أخاه السيد أبا عمران ، فاحتل بقرطبة سنة سبع وستين وخمسمائة . ثم ارتحل بعدها الى اشبيلية ولقيه السيد أبو حفص هنالك منصرفا من بعض غزواته .

ولما نزل أمير المؤمنين يوسف باشبيلية خافه محمد بن مردنيش ، وحمل على قلبه فمرض ومات ! وقيل ان أمه سمته لانه كان قد أساء الى خواصه وكبراء دولته ، فنصحته فتهددها . وخافت بطشه فسمته ! ولما مات محمد بن مردنيش جاء أولاده واخوته الى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن — وهو باشبيلية — فسلموا اليه جميع بلاد شرق الاندلس التى كانت لابيهم ، فأحسن اليهم أمير المؤمنين وتزوج أختهم ، وأصبحوا عنده فى أعز منزلة ، وصنع فى وليمتها مهرجانا عظيما يقصر الوصف عنه .

ولما صفت لامير المؤمنين يوسف الاندلس خرج من اشبيلية غازيا بلاد العدو ، فنزل على مدينة له تسمى وبذة ، فاقام محاصرا لها شهورا الى ان اشتد عليهم الحصار وعطشوا . فراسلوه فى تسليم المدينة ، وان يعطيهم الامان على نفوسهم ، فامتنع من ذلك فلما اشتد بهم العطش سمع لهم فى بعض الليالى لغط عظيم وأصوات هائلة ، وذلك انهم اجتمعوا بأسرهم ودعوا الله تعالى فجاءهم مطر عظيم ملأ ما كان عندهم من

الصهاريج ، فارتووا وتقووا على المسلمين ، فانصرف عنهم الى اشبيلية ، بعد ان هادنهم مدة سبع سنين .

فليعتبر الواقف على هذه القضية ، وليعلم ان هؤلاء كفار جاحدون ، ينسبون الى الله تعالى ما لا يليق بـه من التثليث وأنواع الكفر ، ومع ذلك لما انقطع رجاؤهم ، ورجعوا اليه تعالى بالاضطرار الصادق ، رحمهم سبحانه وهو أرحم الراحمين ، فلا ينبغى بعد هذا للمؤمن الموحـد اذا حصل فى شدة ان ييأس من رحمة الله ، فانه لا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون . والسر فى الاضطرار ، فانه عند أرباب البصائر ، هو اسم الله الاعظم الذى اذا دعى بـه أجاب وإذا سئل به أعطى ، اللهم اجعلنا يا مولانا عندك من المرحومين واجعل كل من يرحمنا عندك من المرحومين ، فانت أهل ذلك والقادر عليه .

ثم بلغ أمير المؤمنين خروج العدو الى أرض المسلمين مـع القومس الاحدب ، فخرج اليهم وأوقع بهم بناحية قلعة رباح ، وأثخن فيهم ، ورجع الى اشبيلية ،

وفى هذه السنة أعنى سنة سبـع وستين وخمسمائة ، شرع أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن فى بناء جامع اشبيلية ، فتم وصليت به الجمعة فى ذى الحجة منها !

وفى هذه السنة أيضا عقد أمير المؤمنين الجسر على وادى اشبيلية بالقوارب ، وبنى قصبتها الداخلة ، وبنى الزلايق للسور ، وبنى سور باب جوهر ، وبنى الرصفان المتدرجة بضفتى الوادى ، وجلب الماء من قلعة جابر حتى أدخله اشبيلية ، وأنفق فى ذلك أموالا لا تحصى .

ثم انتقض ابن اذفونش وأغار على بلاد المسلمين فاحتشد الخليفة وسرح السيد أبا حفص اليه فغزاه بعقر داره ، وافتتح قنصرة بالسيف ، وهزم جموعه فى كل جهة .

ثم ارتحل الخليفة من اشبيلية راجعا الى مراكش سنة احـدى وسبعين لخمس سنين من اجازته الى الاندلس ، وعقد على قرطبة لاخيه أبى الحسن ، وعلى اشبيلية لاخيـه أبى علي .

وأصاب مراكش طاعون فهلك من السادة : أبو عمران ، وأبو سعيد ، وأبو زكريا وقـدم الشيخ أبو حفص الهنتاتى من قرطبة فهلك فى طريقه ودفن بمدينة سلا ، وهو جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وافريقية .

واستدعى الخليفة أخويه السيدين أبا علي وأبا الحسن فعقد لابى علي على سجلماسة ، ورجع أبو الحسن الى قرطبة . وعقد لابنى أخيه السيد أبى حفص · لابى زيد منهما على غرناطة ، ولابى محمد على مالقة .

وفى سنة ثلاث وسبعين سطا بذرية بنى جامع وزرائه وغربهم الى ماردة .

وفى سنة خمس وسبعين وخمسمائة عقد لغانم بن محمد بن مردنيش على اسطوله ، واغزاه مدينة اشبونة ، فغنم ورجع .

وفيها كانت وفاة أخيه الوزير السيد أبى حفص بن عبد المؤمن بعد ما أبلى فى الجهاد ، وبالغ فى نكاية العدو ، وقدم اناه من الاندلس فأخبرا الخليفة بانتقاض الطاغية ، واعتزم على الجهاد . وأخذ فى استدعاء العرب من افريقية . والله تعالى أعلم .

غزو امير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بلاد افريقية

وفتح مدينة قفصة والسبب فى ذلك

كانت قفصة من بلاد افريقية قد استبد بها بنو الرند أو اخر دولة صنهاجة من بنى زيرى بن مناد ، كان جدهم عبد الله بن محمد بن الرند عاملا لهم بها ، فتوارثها بنوه من بعده ، فاستبدوا بها آخر الدولة ، ولما غزا عبد المؤمن بلاد افريقية استنزلهم فى جملة من استنزل من الثوار بها . ولما مات عبد المؤمن وبويع ابنه يوسف بلغه سنة أربع وسبعين وخمسمائة ان بعض بنى الرند قد عاد الى قفصة وثار بها فاضطربت لاجل ذلك أحوالها ، فنهض اليها فى سنة خمس وسبعين بعدها . فانتهى الى افريقية ، ونزل على مدينة قفصة ، وضيق عليها بالقتال والحصار حتى دخلها ، وظفر بابن الرند القائم بها فقتله ، وذلك فى سنة ست وسبعين وخمسمائة .

ثم عاد الى مراكش فدخلها فى سنة سبع وسبعين بعدها . هكذا فى القرطاس ، ونحوه لابن خلدون فى أخبار بنى عبد المؤمن .

وذكر عند الكلام على بنى الرند وجها آخر فقال : « كان عبد المؤمن قد ولى على

قفصة عمران بن موسى الصنهاجي . فأساء الى الرعية . فبعثوا عن على بن العزيز بن المعتز الرندى من بجاية وكان بها فى مضيعة يحترف بالخياطة . فقدم عليهم وثاروا بعمران بن موسى عامل الموحدين فقتلوه ، وقدموا مكانه على بن العزيز فساس ملكه وحاط رعيته وأعزاه يوسف بن عبد المؤمن سنة ثلاث وستين وخمسمائة أخاه السيد أبا زكريا ، فحاصره وضيق عليه وأخذه . وأشخصه الى مراكش باهله وماله واستعمله على الاشغال بمدينة سلا الى ان هلك بها ، وفنيت دولة بنى الرند ، والبقاء لله وحده . » اهـ كلامه فالله أعلم أى ذلك كان .

وفى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة خرج أمير المؤمنين يوسف من مراكش لبناء حصن أرْكَنْدِر ، فبناه على المعدن الذى ظهر هنا لك .

الجواز الثانى لامير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن الى الاندلس

برسم الجهاد وما يتصل بذلك من وفاته رحمه الله

لما قدم أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن من فتح قفصة سنة سبع وسبعين وخمسمائة قدم عليه ولاة الاندلس ورؤساؤها بهنؤنه بالاياب . فاكرم وفادتهم وانصرفوا .

ثم بلغه الخبر بأن اذفونش بن سانجة نازل قرطبة وشن الغارات على جهة مالقة ورندة وغرناطة . ثم نزل استجة وتغلب على حصن شقيلة . وأسكن به النصارى وانصرف .

فاستنفر السيد أبو اسحق سائر الناس للغزو ، ونازل الحصن نحوا من أربعين يوما ، ثم بلغه خروج اذفونش من طليطلة بمدده فانكفأ راجعا ، وخرج محمد بن يوسف بن وانودين من اشبيلية فى جموع الموحدين ، ونازل طلبيرة فبرز اليه أهلها فأوقع بهم وانصرف بالغنائم .

فاعتزم الخليفة يوسف بن عبد المومن على معاودة الجهاد ، وولى على الاندلس أمراءه

وقدمهم للاحتشاد . فعقد لابنه السيد أبى زيد على غرناطة ، ولابنه السيد أبى عبد الله على مرسية . ونهض سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وفى القرطاس : كان خروجه من مراكش فى التاريخ المذكور على باب دكالة ، قال برسم غزو افريقية ، فلما وصل الى سلا أتاه أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن جامع من افريقية ، فأعلمه بهدوءها وسكونها ، فصرف عزمه الى الاندلس. فنهض من سلا ضحوة يوم الخميس الموفى ثلاثين من ذى القعدة من السنة المذكورة ، فنزل بظاهرها وبات هناك . ثم نهض يوم الجمعة الموالى له فوصل الى مكناسة يوم الاربعاء السادس من ذى الحجة ، فعيد بها عيد الاضحى خارجها . ثم ارتحل الى فاس فدخلها وأقام بها بقية الشهر .

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة ، ففى اليوم الرابع بها نهض من فاس وسار حتى انتهى الى سبتة ، فأقام بها بقية شهر المحرم ، وأمر الناس بالجواز الى الاندلس ، فجازت قبائل العرب أولا ، ثم قبائل زناتة ، ثم المصامدة ، ثم مغراوة وصنهاجة وأوربة . وأصناف البربر . ثم عبرت جيوش الموحدين والاغزاز والرماة . فلما استكمل الناس الجواز عبر هو فى آخرهم فى الحاشية والعبيد .

وكان جوازه يوم الخميس خامس صفر من السنة المذكورة ، فنزل بجبل الفتح ، ثم ارتحل منه الى الجزيرة الخضراء ، ثم سار الى اشبيلية . فلما أشرف عليها يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر خرج اليه ولده السيد أبو اسحق ومعه فقهاء اشبيلية وأشياخها فبعث اليهم يأمرهم بالوقوف بآخر المنية حتى يصل اليهم ، فلما صلى الظهر وركب اجتاز بهم ، فلما دنا منهم نزلوا عن دوابهم فوقف لهم حتى سلموا عن آخرهم وركبوا .

ثم نهض إلى غزو مدينة شنترين من بلاد غرب الاندلس فانتهى اليها فى السابع من ربيع الاول فنزل عليها . وأداربه الجيوش ، وشدد عليها فى الحصار والقتال ، وبذل المجهود الى ليلة الثانى والعشرين من ربيع المذكور ، فانتقل من موضع نزوله بجوفى شنترين الى غربيها ، فأنكر المسلمون ذلك ولم يعلموا له سببا ، فلما جن الليل وصلى العشاء الآخرة بعث الى ولده السيد أبى اسحق صاحب اشبيلية فأمره بالرحيل من غد تلك الليلة لغزو اشبونة ، وشن الغارات على أنحائها ، وأن يسير اليها فى جيوش الاندلس خاصة . وأن يكون رحيله نهارا ، فأساء الفهم وظن انه أمره بالرحيل ليلا ، وصرخ

الشيطان فى محلة المسلمين ، أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل في هذه الليلة ، وتحدث الناس بذلك وتأهبوا له ، ورحلت طائفة منهم بالليل ، ولما كان قرب الفجر أقلع السيد أبو اسحق وأقلع من كان مواليا له ، وتتابع الناس بالرحيل ، وتسابقوا لاختيار المنازل وأمير المؤمنين مقيم فى مكانه لا علم له بذلك ، فلما أصبح وصلى الصبح وأضاء النهار لم يجد حوله من أهل المحلات أحدا إلّا يسيرا من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله ، وينزلون لنزوله . والا قواد الاندلس فانهم الذين كانوا يسيرون أمام ساقته وخلف محلته من أجل من يتخلف عنها من الضعفاء . فلما طلعت الشمس وتطلع النصارى المحصورون على المحلة من سور البلد ورأوا أمير المؤمنين منفردا فى عبيده وحشمه ، وتحققوا ذلك من جواسيسهم فتحوا البلد ، وخرج جميع من فيه خرجة منكرة ، وهم ينادون : الرى الرى ، أى اقصدوا السلطان ، فضربوا فى محلة العبيد الى ان وصلوا الى أخبية أمير المؤمنين فمزقوها واقتحموها ، فبرز اليهم وقاتلهم بسيفه ، حتى قتل ستة منهم ، ثم طعنوه طعنة نافذة وقتل عليه ثلاث من جواريه كن قد أكببن عليه ! ولما طعن وقع بالارض وتصايح العبيد ونادوا بالفرسان والاجناد فتراجع المسلمون وقاتلوا النصارى حتى أزاحوهم عن الاخبية ، واشتد القتال بينهم ، وتواقفوا ساعة ثم انهزم الفرنج وركبهم المسلمون بالسيف، حتى أدخلوهم المدينة ، وقتل منهم خلق كثير يزيدون على العشرة آلاف ، واستشهد من المسلمين جماعة . وركب أمير المؤمنين يوسف وقد أنفذته الطعنة . وارتحل الناس ولا يدرون أين . ثم اهتدوا بالطبول فقصدوا جهة اشبيلية ، ثم سار أمير المؤمنين يريد العبور الى المغرب فاشتد ألمه ومات بالطريق رحمه الله ، قاله ابن مطروح .

وكانت وفاته يوم السبت العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسمائة قرب الجزيرة الخضراء ، فحمل الى تينملل فدفن بها الى جنب قبر أبيه ، وقيل انه لم يمت حتى وصل الى مراكش . وكان ولده يعقوب الخليفة بعده هو الذى يدخل على أبيه ويخرج ويصرف الامور بين يديه من يوم طعن الى ان مات . قالوا وكتم ولده موته حتى وصل الى مدينة سلا فافشاه .

وكان قبل موته بأشهر كثيرا ما ينشد قول الشاعر ويردده .

طوى الجديدان ما قد كنت أنشره * وأنكرتنى ذوات الاعين النجل
ورثاه الاديب أبو بكر يحيى بن مجبر بقصيدة طويلة أجاد فيها وأولها :
جل الاسى . فأسل دم الاجفان * ماء الشؤن لغير هذا الشان

بقية أخبار أمير المومنين يوسف بن عبد المؤمن وسيرته

قال ابن خلكان : كان يوسف بن عبد المؤمن أبيض تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، مستدير الوجه ، أفوه ، أعين ، الى الطول ما هو ، فى صوته جهارة ، رقيق حواشى الطبع حلو الالفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة . أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم لايامها فى الجاهلية والاسلام ، صرف عنايته الى ذلك ، ولقى فضلاء اشبيلية أيام ولايته بها . وكان فقيها حافظا متفننا . لان أباه هذبه وقرن به وباخوته أكمل رجال الحرب والمعارف . فنشأ فى ظهور الخيل بين أبطال الفرسان . وفى قراءة العلم بين أفاضل العلماء ، وكان ميله الى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله الى الادب وبقية العلوم ، ويقال إنه كان يحفظ صحيح البخارى . وكان يحفظ القرآن الكريم مع جملة صالحة من الفقه ، ثم طمح الى علم الحكمة وبدأ من ذلك بعلم الطب ، وجمع من كتب الحكمة شيئا كثيرا .

وكان ممن صحبه من العلماء بهذا الشان الوزير أبو بكر محمد بن طفيل ، كان متحققا بجميع أجزاء الحكمة ، قرأ على جماعة من أهلها منهم أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة وغيره . ولابن طفيل هذا تصانيف كثيرة .

وكان يوسف بن عبد المؤمن حريصا على الجمع بين علمى الشريعة والحكمة ، ولم يزل يجمع اليه العلماء من كل فن من جميع الاقطار ، ومن جملتهم القاضى أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد المعروف بالحفيد .

وكان يوسف بن عبد المؤمن شديد الملوكية ، بعيد الهمة ، جماعا مناعا ، ضابطا لخراج مملكته ، عارفا بسياسة رعيته . وكان سخيا جوادا فى محل السخاء والجود ،

قد استغنى الناس فى أيامه . وكان من ضبطه وسياسته ، ربما يحضر حتى لا يكاد يغيب ويغيب حتى لا يكاد يحضر ، وله فى غيبته نواب ، وخلفاء وحكام قد فوض الامور اليهم ، لما علم من صلاحهم وأهليتهم لذلك .

قال ابن خلكان : « والدنانير اليوسفية المغربية منسوبة اليه » .

ومما يستطرف من أخباره رحمه الله : ان الاديب ابا العباس أحمد بن عبد السلام الكَرْوانى — وكَرْوان قبيلة من البربر منازلهم بضواحى فاس — كان نهاية فى حفظ الاشعار القديمة والمحدثة ، وتقدم فى هذا الشأن وله فيه تآليف ، وكان مع ذلك صاحب نوادر ، جالس بها عبد المؤمن ، ثم ولده يوسف ، ثم ولده يعقوب .

فمن نوادره : أنه حضر يوما الى باب أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن المذكور ، وحضر اليه أيضا الطبيب سعيد الغمارى ، فقال أمير المؤمنين لبعض خدمه : « انظر من بالباب من الاصحاب » فخرج الخادم ثم عاد اليه ، فقال : « ياسيدى به أحمد الكَرْوانى وسعيد الغمارى » فقال أمير المؤمنين يوسف : «من عجائب الدنيا شاعر من كَرْوان وطبيب من غمارة » فبلغ ذلك الكَرْوانى ، فقال . « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ! أعجب منهما والله . خليفة من كُومية ! » فيقال ان أمير المؤمنين يوسف لما بلغه ذلك قال : « أعاقبه بالحلم عنه ففيه تكذيب له » ومن شعر الكَرْوانى من جملة قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين يوسف المذكور وهو بديع :

ان الامام هو الطبيب وقد شفا * علل البرايا ظاهرا ودخيلا
حمل البسيطة وهى تحمل شخصه * كالروح يوجد حاملا محمولا !

الخبر عن دولـــــة أمير المؤمنين المنصور بالله
يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي

قـال ابن خلدون : « لما توفى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على حصن شنترين فى التاريخ المتقدم بويع ابنه أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، ورجع بالناس الى اشبيلية فاستكمل البيعة ، واستوزر الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى واستنفر الناس للغزو مع أخيه السيد يحيى ، فاستولى على بعض الحصون ، وأثخن فى بلاد الكفار ، ثم أجاز البحر الى الحضرة .

ولقيه بقصر مصمودة السيد أبو زكريا بن السيد أبى حفص ، قادما من تلمسان ، مع مشيخة بنى زغبة من عرب هلال ، ومضى الى مراكش فغير المناكر وبسط العدل ، ونشر الاحكام » اه وفيه نوع مخالفة لما قدمناه .

وقال ابن أبى زرع : لما تمت له البيعة وطاعت له الامة كان أول شىء فعله ان أخرج مائة ألف دينار ذهبا من بيت المال ، ففرقها فى الضعفاء من بيوتات المغرب ، وكتب الى جميع بلاده ، بتسريح السجون ورد المظالم التى ظلمها العمال فى أيـام أبيه ، وأكرم الفقهاء ، وراعى الصلحاء وأهل الفضل ، وأجرى على أكثرهم الانفـاق من بيت المال ، وفرق فى الموحدين وسائر الاجناد أموالا جمة ، وكان أول شىء حـدث فى دولته شأن بنى غانية المسوفيين . أصحاب جزيرة ميورقة وأعمالها ، فلنأت بشىء من ذلك .

خروج علي بن إسحق المسوفي المعروف بابن غانية على يعقوب المنصور

قد تقدم لنا فى أخبـار الدولـة اللمتونية ان أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين اللمتونى كان قـد استعمـل على الجزائر الشرقية من بـلاد الاندلس وهى ميورقة ومنورقـة ويابسة محمـد بن على بن يحيى المسوفى المعروف بابن غـانية ـ وهى أمهم ـ

فتوارثها بنوه من بعده ، الى أيام يوسف بن عبد المؤمن ، فبعث اليه محمد بن اسحق بن محمد المسوفى المذكور بالطاعة ، فقبل ذلك يوسف بن عبد المؤمن ، وبعث اليه قائده على بن الروبرتير ليختبر أمره ، ويعقد له البيعة عليه ، ويؤكد الامر فى ذلك .

وكان لمحمد بن اسحق المذكور عدة اخوة يساهمونه فى الرياسة ، فلما انتهى اليهم ابن الروبرتير ، وعلموا الامر الذى قدم لاجله ، أنكروا على أخيهم ذلك لانه لم يكن أعلمهم بمكاتبته يوسف بن عبد المؤمن فخلصوا نجيا دونه ، وتقبضوا عليه وعلى ابن الروبرتير ، وقدموا مكانه أخاهم على بن اسحق بن محمد ، ثم بلغهم خبر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب المنصور ، فركب على بن اسحق اسطوله وطرق بجاية على حين غفلة من أهلها ، وعليها يومئذ السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن - وكان خارجا فى بعض مذاهبه - فاستولى عليها ابن غانية فى صفر سنة احدى وثمانين وخمسمائة .

وحكى ابن أبى زرع فى استيلاء ابن غانية على بجاية وجها آخر قال : « دخل الميورقى - وهو على بن اسحق المذكور - مدينة بجاية يوم الجمعة السادس من شعبان سنة ثمانين وخمسمائة ، والناس فى صلاة الجمعة .

وكانت أبواب المدن قبل ذلك لا تغلق وقت صلاة الجمعة . فارتقب ابن غانية الناس حتى أحرموا بصلاة الجمعة ، ثم اقتحم عليهم المدينة وعمد الى الجامع الاعظم ، وأدار به الخيل والرجل فمن بايعه خلى سبيله ، ومن توقف عن بيعته ضرب عنقه » قال : « وأقام بها سبعة أشهر ، ثم استرجعت من يده » قال : « ومن ذلك اليوم اتخذ الناس غلق أبواب المدن يوم الجمعة وقت الصلاة » والله أعلم .

ثم استولى على بن اسحق على الجزائر ، ثم على مازونة ، ثم على مليانة ، ثم على القلعة ثم نازل قسنطينة فامتنعت عليه .

واتصل الخبر بالمنصور فسرح السيد أبا زيد بن أبى حفص بن عبد المؤمن وعقد له على حرب ابن غانية ، وعقد لمحمد بن ابراهيم بن جامع على الاساطيل ، والى نظره أبو محمد بن عطوش وأحمد الصقلى . فوصل السيد أبو زيد الى افريقية وشرد ابن غانية عنها الى الصحراء فى أخبار طويلة .

ثم عاود ابن غانية الاجلاب على بلاد افريقية ، وظاهره على ذلك قراقوش الغزى ، من موالى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردى صاحب مصر ، وكان قد تغلب على طرابلس وما والاها .

وبلغ المنصور أن ابن غانية قد استولى على قفصة فنهض بنفسه من حضرة مراكش ثالث شوال سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ووصل الى فاس فاراح بها ، ثم سار الى رباط تازا ، ثم سار على التعبية الى تونس .

وجمع ابن غانية من اليه من الملثمين والعرب وجاء معه قراقوش الغزى صاحب طرابلس ، فسرح اليهم المنصور مقدمة من جيشه لنظر السيد أبى يوسف يعقوب ابن السيد أبى حفص عمر ابن عبد المؤمن ، فلقيهم ابن غانية فى جموعه فانتصر عليهم وانهزم الموحدون ، وقتل جماعة من وجوههم ، وأسر على بن الروبرتير فى آخرين . وامتلأت أيدى العرب من أثاثهم وأسلابهم .

ووصل سرعان الناس الى المنصور وهو بتونس ، فنهض اليهم فى الحال ، ونزل القيروان ، ثم أغذ السير الى الحامة فالتقى الجمعان ، وأنشبوا الحرب فكانت الهزيمة على ابن غانية وأحزابه ، وأفلت من المعركة بذماء نفسه ومعه خليله قراقوش وأتى القتل على أكثرهم .

ثم صبح المنصور مدينة قابس - وكانت فى يد قراقوش - فافتتحها ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه فى البحر الى تونس ، وثنى العنان الي توزر فافتتحها وقتل من وجد بها ، ثم الى قفصة فنازلها أياما ، حتى نزلوا على حكمه فقتل من كان بها من الحشود وهدم سورها واستبقى أهلها ، وجعل أملاكهم بايديهم على حكم المساقاة .

ولما فرغ من أمر قفصة نهض الى عرب افريقية ، ففتك بهم واستباح حللهم وأموالهم وشردهم فى كل وجه ، ثم بعد ذلك جاءوه تائبين خاضعين ، فنقل أهل الفتنة والخلاف منهم الى المغرب الاقصى ، ورجع الى مراكش ، فدخلها فى رجب سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

الخبر عن انتقال العرب من جزيرتهم إلى أرض افريقية
ثم منها إلى المغرب الاقصى والسبب في ذلك

اعلم أن أرض افريقية والمغرب لم تكن للعرب بوطن فى الايام السالفة لا فى الجاهلية ولا فى صدر الاسلام ، وانما كان المغرب وطنا لامة البربر خاصة لا يشاركهم فيه غيرهم.

ولما جاءت الملة الاسلامية وأظهرها الله على الدين كله زحفت جيوش المسلمين من العرب الى أرض المغرب فى جملة ما زحف اليه من أقطار الارض ، لكن العرب الداخلون الى أرض المغرب فى ذلك العصر إنما كانوا يدخلون اليه غزاة مجاهدين على ظهور خيولهم ، فيقضون الوطر من فتح الاقطار والامصار ، ثم ينقلب جمهورهم الى وطنهم ومقرهم من جزيرة العرب ، وان بقى القليل منهم به فانما كانوا يستوطنون منه الامصار دون البادية ، ويسكنون القصور دون الخيام ، فلم تكن العرب تسكن المغرب يومئذ بقبائلهم وخيامهم ، ولا استوطنوه باحيائهم وحللهم ، كما هو شأنهم اليوم . لان الملك الذى حصل لهم والغلب الذى مكنهم الله منه كان يمنعهم من سكنى البادية ، ويعدل بهم الى الحاضرة ولا بد ، فكانت الخيمة بأرض المغرب معدومة رأسا ، أو قليلة جدا لبعض البربر ممن كان يتخذها منهم وهم قليل ، وانما كان يسكن الجمهور منهم بالمداشر وكهوف الجبال ، واستمر الحال على ذلك الى أواسط المائة الخامسة ، فدخلت العرب أرض افريقية واستوطنوها بحللهم وخيامهم .

ثم لما كانت أو اخر المائة السادسة فى دولة يعقوب المنصور رحمه الله ، نقل الكثير منهم الى المغرب الاقصى ، فاستوطنوه بحللهم وخيامهم كذلك . وصارت أرض المغرب منقسمة بين أمتين أمة العرب أهل اللسان العربى ، وأمة البربر أهل اللسان البربرى ، بعد ان كانت بلاده خاصة بالبربر لا يشاركهم فيها غيرهم كما قلنا .

واعلم ان أمة العرب تنقسم اولا الى قسمين : عدنان وقحطان ، ثم ينقسم كل من عدنان وقحطان الى شعبين عظيمين ، فاما عدنان وهم الاسماعيلية ذرية اسماعيل بن ابراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فينقسمون الى ربيعة ومضر ، وأما قحطان وهم اليمانية ذرية

قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام فينقسمون الى حمير وكهلان . هذا هو المعروف المشهور من نسب الفريقين . وقد يذكر النسابون لكل منهما شعوبا أخر ، لكننا لم نعتبرها إما لانقراضها أو لقوة الخلاف فيها أو لقلتها جدا واندراجها فيمن ذكرناه ،

ثم يتشعب كل من هذه الشعوب الاربعة الى قبائل وعمائر وبطون وأفخاذ وفصائل لا حصر لها ، لكننا ننبه على الغرض المقصود منها فنقول : من جملة قبائل مضر ،

بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر .

ومن قبائلها أيضا بنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور المذكور فى النسب السابق . وقد نسبت الخنساء جشم هذا الى جده ، فقالت تهجو دريد بن الصمة :

معاذ الله ينكحنى حبركى * قصير الشبر من جشم بن بكر

ومن قبائلها أيضا بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر المذكور أيضا .

ومن جملة قبائل كهلان القحطانيين : بنو الحرث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد ابن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان . وكهلان هو ابن سبا ابن يشجب بن يعرب بن قحطان .

واعلم ان هؤلاء القبائل الاربعة التى ذكرناها هى التى ذكر المؤرخون أنها انتقلت الى افريقية والمغرب ، وقد يضاف اليهم غيرهم من قبائل العرب ، لكنهم ليسوا بمشهورين كالاربعة المذكورة .

وأما خبر دخولهم الى المغرب والسبب فيه فقد ذكر المؤرخون ان بنى سليم بن منصور وبنى هلال بن عامر لم يزالوا بجزيرة العرب برهة من الدهر الى ان مضى الصدر من دولة بنى العباس ، وكانوا أحياء ناجعة بأرض الحجاز ونجد ، فبنو سليم مما يلى المدينة المنورة ، وبنو هلال فى جبل غزوان عند الطائف ، ثم تحيز بنو سليم والكثير من هلال بن عامر الى البحرين وعمان ، وصاروا جندا للقرامطة ، ثم غلبت القرامطة على بلاد الشام ، وظاهرهم على ذلك بنو سليم وبنو هلال . ثم انتقلت دولة العبيديين من افريقية الى مصر ، وغلبوا القرامطة على الشام وانتزعوه منهم ، وردوهم على اعقابهم الى البحرين ، ونقلوا أشياعهم من بنى سليم وبنى هلال . فانزلوهم بصعيد مصر فى العدوة

الشرقية من بحر النيل فأقاموا هنالك، وكان لهم اضرار بالبلاد ، ولما انتقلت الدولة العبيدية من افريقية الى مصر كما قلنا استناب‍وا على افريقية بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين فملكوها ، وكانوا يخطبون بملوك العبيديين على منابرهم ويضربون السكة بأسمائهم ، ويؤدون اليهم إتاوة معلومة وطاعة معروفة .

ولما انساق ملك افريقية الى المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى كان لــه رغبة فى مذهب أهل السنة خالف فيه أسلافه الذين كانوا على مذهب الشيعة الرافضة ، وكان الخليفة من العبيديين بمصر يومئذ المستنصر بالله معد بن الظاهر ابن الحاكم بن العزيز بن المعز لدين الله . والمعز هذا هو الذى انتقل الى مصر وبنى مدينة القاهرة .

وكان المعز بن باديس الصنهاجى لا تزال المراسلات والهدايا تختلف بينه وبين المستنصر العبيدى صاحب مصر كما كانت اسلافهما ، ثم ان المعز بن باديس ركب ذات يوم لبعض مذاهبه وذلك فى أول ولايته فكبا به فرسه فنادى مستغيثا بالشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فسمعته العامة وكان جمهورهم سنية ، فثاروا بالرافضة وقتلوهم أبرح قتل ، وأعلنوا بالمعتقد الحق ونادوا بشعار الايمان ، وقطعوا من الاذان حى على خير العمل .

وكانت هذه الواقعة فى أيام الظاهر العبيدى والد المستنصر ، فكاتب المعز بن باديس فى ذلك ، فاعتذر اليه بالعامة ، فأغضى عنه .

واستمر ابن باديس على اقامة الدعوة لهم ، والمهاداة معهم ، وهو فى أثناء ذلك يكاتب وزيرهم القائم بأمور دولتهم أبا القاسم علي بن أحمد الجرجرائى ويستميله ، ويعرض ببنى عبيد وشيعتهم ويغض منهم .

ثم هلك الوزير أبو القاسم سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، وولى الوزارة بعده أبو محمد الحسن بن على اليازورى ، أصله من قرى فلسطين ، وكان أبوه فلاحا بها . فلما ولى الوزارة خاطبه المعز بن باديس دون ما كان يخاطب به من قبله من الوزراء . كان يقول فى كتابه اليهم : عبدكم ! وصار يقول : فى كتاب اليازورى : صنيعتكم ! فحقد ذلك عليه ، وصارت القوارص تسرى من بعضهم الى بعض ، إلى أن أظلم الجو بين المعز بن

باديس وبين المستنصر العبيدى ووزيره اليازورى ، فقطع بن باديس الخطبة بهم على منابره سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة ، وأحرق بنود المستنصر . ومحا اسمه من السكة والطرز ، ودعا للقائم العباسى خليفة بغداد ، وجاءه خطابه وكتاب عهده ، فقرئ بجامع القيروان . ونشرت الرايات السود ، وهدمت دور الاسماعيلية .

وبلغ الخبر بذلك كله الى المستنصر بالقاهرة فقامت قيامته ، ففاوض وزيره أبا محمد الحسن بن على اليازورى في أمر ابن باديس ، فأشار عليه بان يسرح له العرب من بنى هلال ، وبنى جشم الذين بالصعيد ، وان يتقدم اليهم بالاصطناع ، ويستميل مشايخهم بالعطاء وتولية أعمال افريقية وتقليدهم أمرها بدلا من صنهاجة الذين بها لينصروا الشيعة ويدافعوا عنهم ، فإن صدقت المخيلة فى ظفرهم بابن باديس وقومه صنهاجة كانوا أولياء للدولة وعمالا بتلك القاصية ، وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة ، وان كانت الاخرى فلها ما بعدها ، وأمر العرب على كل حال أهون على الدولة من أمر صنهاجة الملوك .

فبعث المستنصر وزيره الى هؤلاء الاحياء ، وأرضخ لامرائهم فى العطاء ، ووصل عامتهم ببعير ودينار لكل واحد منهم ، وأباح لهم اجازة النيل ، وقال لهم : « قد أعطيناكم المغرب وملك ابن باديس العبد الآبق ، فلاتفتقرون بعدها ! » .

وكتب اليازورى الى المعز : « أما بعد ، فقد أنفذنا اليكم خيولا فحولا ، وأرسلنا عليها رجالا كهولا ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا » .

فشرهت العرب اذذاك وعبروا النيل الى برقة ، فنزلوا بها واستباحوها ، وافتتحوا أمصارها ، وأعجبتهم البلاد . فكتبوا لاخوانهم الذين بقوا شرقى النيل يرغبونهم فى البلاد ، فأجازوا اليهم بعد ان أعطوا للمستنصر لكل رأس دينارين ، فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه ، وتقارعوا على البلاد ، فحصل لبنى سليم شرقها ، ولبنى هلال غربها ، ثم انتشروا فى أقطار افريقية مثل الجراد ، لا يمرون بشىء إلا أتوا عليه .

وبالجملة فلم تمر إلا مدة يسيرة حتى استولوا على ضواحى افريقية . ونازلوا أمصارها ، واقتضوا من أهلها الاتاوة ، وحصروا ابن باديس فى مصره ، وصاهرهم ببناته تأليفا لهم ، ومع ذلك فلم يجد شيئا . والحديث في ذلك طويل وليس تتبعه من

غرضنا .

قال ابن خلدون : ولهؤلاء الهلاليين فى الحكاية عن دخولهم الى افريقية طرق ، يزعمون ان الشريف بن هاشم كان صاحب الحجاز ومكة ، ويسمونه شكر بن أبى الفتوح ، وانه أصهر الى الحسن بن سرحان فى أخته جازية فأنكحه اياها ، وولدت منه ولدا واسمه محمد ، وانه حدث بينهم وبين الشريف المذكور مغاضبة وفتنة . فاجمعوا الرحلة عن أرض نجد الى افريقية ، وتحيلوا عليه فى استرجاع أختهم جازية المذكورة ، فطالبته بزيارة أبويها ، فأزارها اياهم ، وخرج بها الى حللهم ، وأقام معها مدة الزيارة ، فارتحلوا به وبها . وكتموا رحلتهم عنه وموهوا عليه بانهم يباكرون به للصيد والقنص ، ويروحون به الى بيوتهم بعد بنائها ، فلم يشعر بالرحلة الى ان فارق موضع ملكه ، وصار الى حيث لا يملك أمرها عليهم ، ففارقوه ، ورجع الى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبها داء دخيل ، وانها من بعد ذلك كلفت به مثل ما كلف بها إلى أن ماتت من حبه ، ويتناقلون من أخبارها فى ذلك ما يعفى على خبر قيس وليلى ، ويروون كثيرا من أشعارها ، محكمة المبانى · مثقفة الاطراف ، وفيها المطبوع والمنتحل ، والمصنوع ، لم يفقد فيها من البلاغة شىء ، وانما فقد منها الاعراب فقط ، ولا مدخل له فى البلاغة ·

وفى هذه الاشعار شىء كثير دخلته الصنعة ، وفقدت فيه صحة الرواية ، فلذلك لا يوثق به ، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بآياتهم ووقائعهم مع زناتة وحروبهم وضبط لاسماء رجالاتهم ، وكثير من أحوالهم ، لكنا لا نثق بروايتها ، وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها وغيره ، وهم متفقون على الخبر عن حال جازية هذه والشريف خلفا عن سلف ، وجيلا عن جيل ، ويكاد القادح فيها والمستريب فى أمرها أن يرمى عندهم بالجنون ، لتواترها بينهم .

وهذا الشريف الذى يشيرون اليه هو من الهواشم ، وهو شكر بن أبى الفتوح الحسن بن جعفر بن أبى هاشم محمد بن الحسن بن محمد الاكبر ابن موسى الثانى ابن عبد الله أبى الكرام ابن موسى الجون بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وأبو الفتوح هو الذى خطب لنفسه بمكة أيام الحاكم العبيدى ، وبايع له بنو الجراح أمراء طيء بالشام ، وبعثوا عنه ، فوصل الى احيائهم ، وبايع له كافة العرب ، ثم غلبتهم عساكر الحاكم العبيدى ورجع الى مكة ، وهلك سنة ثلاثين وأربعمائة ، فولى بعده ابنه شكر هذا ، وهلك سنة ثلاث وخمسين ، وولى بعده ابنه محمد الذى يزعم هؤلاء الهلاليون انه من جازية هذه .

وقال ابن حزم : إن شكر بن أبى الفتوح لم يولد له قط ، وانما صار أمر مكة من بعده الى عبد كان له .

وقال ابن خلدون : بل أخبرنى من أثق به من الهلاليين لهذا العهد ، انه وقف على بلاد الشريف شكر بن أبى الفتوح ، وانها بقعة من أرض نجد مما يلى الفرات ، وان ولده بها لهذا العهد والله أعلم .

واعلم ان جازية بنت سرحان هذه كانت من بنى دريد بن اثبج بن أبى ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة ، فهى هلالية اثبجية دريدية .

ومن مزاعمهم : انها لما صارت الى افريقية وفارقت الشريف ابن هاشم المذكور ، خلفه عليها منهم ماضى بن مقرب من رجالات دريد ، فأقامت عنده مدة ، ثم غاضبته ولحقت بأخيها الحسن بن سرحان فمنعها منه ، فقامت عشيرة ماضى بن مقرب معه وقاتلوا الحسن بن سرحان وعشيرته . وثارت الفتنة بينهم وقتل فيها الحسن بن سرحان . واستمرت العداوة بينهم الى أيام الموحدين . فهذا سبب انتقال هؤلاء العرب من الحجاز ونجد الى افريقية .

وأما سبب انتقالهم من افريقية الى المغرب الاقصى ، فقد ذكرنا ان بنى سليم بن منصور وبنى هلال بن عامر اقترعوا على بلاد افريقية ، فكان لبنى سليم شرقها ، ولبنى هلال غربها ، ثم تغلبوا على ضواحيها وامصارها وضايقوا ملوكها بها .

وانضم إلى بنى هلال بن عامر بنو جشم بن معاوية بن بكر ، فعلت أيديهم على الجميع ، واستمر أمرهم على ذلك إلى أن كانت دولة يعقوب المنصور الموحدى رحمه الله ، وثار ابن غانية ببلاد افريقية كما تقدم ، فظاهرته العرب من جشم وهلال على الموحدين ، وأوقعوا بمقدمة المنصور ، فنهض إليهم من تونس وأوقع بالملثمين أولا ثم بالعرب

ثانيا ، وفل جمعهم واتبع آثارهم إلى أن شردهم إلى صحارى برقة ، وانتزع تلك البلاد من أيديهم ، ثم راجعوا بصائرهم ، فأتوه طائعين خاضعين حسبما قدمنا الخبر عن ذلك مستوفى .

وكان الذين قاتلوه أولا ثم راجعوا طاعته ثانيا هم قبائل هلال بن عامر ، وجشم بن معاوية بن بكر كما قلنا ، وهم أصحاب غرب افريقية ، وأما بنو سليم بن منصور فلم يقاتله منهم أحد ، فلذلك بقى بنو سليم بأرض افريقية .

ونقل المنصور رحمه الله بنى هلال وبنى جشم إلى المغرب الاقصى حين أتوه طائعين ، وكان ذلك سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، فانزل قبيلة رياح من بنى هلال ببلاد الهبط ، فيما بين قصر كتامة المعروف بالقصر الكبير إلى أزغار البسيط الافيح هناك إلى ساحل البحر الاخضر ، فاستقروا بها وطاب لهم المقام ، وأنزل قبائل جشم بلاد تامسنا البسيط الافيح ما بين سلا ومراكش ، وهو أوسط بلاد المغرب الاقصى وأبعدها عن الثنايا المفضية إلى القفار لاحاطة جبل درن بها ، فلم ييمموا بعدها قفرا ، ولا أبعدوا رحلة .

واعلم أن هذين البسيطين يسميان اليوم فى عرف عامة أهل المغرب بالغرب والحوز ، فالغرب عبارة عن بلاد الهبط وأزغار وما فى حكمهما ، والحوز عبارة عن بلاد تامسنا وما اتصل بها إلى مراكش ، فكان لرياح بلاد الغرب ، وكان لجشم بلاد الحوز .

ثم اعلم أيضا ان قبيلة رياح هم بنو رياح بن أبى ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر ابن صعصعة ، وهم بطون كثيرة وجلهم قد بقى بارض افريقية ، والذين انتقلوا منهم الى المغرب الاقصى كان رئيسهم فى ذلك العصر مسعود بن سلطان بن زمام الذوادى ، من بنى ذواد بن مرادس بن رياح فاقام معهم مدة ثم جمع جماعة من قومه وفر الى افريقية ، وذلك فى حدود التسعين وخمسمائة ، وأبدأ وأعاد هنالك فى الاجلاب مع الثوار ، الى ان هلك فى بعض تلك المدة .

وأقام الباقون بعد فرار كبيرهم مسعود المذكور ببلاد الهبط وازغار الى ان انقرضت دولة الموحدين . وكان عثمان بن نصر رئيسهم أيام المأمون الموحدى وقتله سنة ثلاثين وستمائة .

ولما تغلب بنو مرين على ضواحى المغرب ضرب الموحدون على رياح هؤلاء البعث

مع عساكرهم ، فقاموا بحماية ضواحيهم ، وانضم اليهم بنو عسكر بن محمد المرينيون حين خالفوا اخوانهم بنى حمامة بن محمد سلف الملوك منهم . فكانت بين الفريقين جولة قتل فيها عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة أبو الملوك المرينين ، وقتل معه ابنه ادريس ، فاوجدت رياح السبيل لبنى مرين على أنفسهم فى طلب الثأر ، فاثخنوا فيهم بعد ان ملكوا المغرب ، واستلحموهم قتلا وسبيا مرة بعد أخرى .

وكان آخر من أوقع بهم السلطان أبو ثابت المرينى سنة سبع وسبعمائة ، تتبعهم بالقتل الى ان لحقوا برؤس الهضاب ، وأسنمة الربا المتوسطة فى المرج المستبحر بأزغار ، فصاروا الى عدد قليل ولحقوا بالقبائل الغارمة ، وذهبت رياح ادراج الرياح . هذا خبرهم على الجملة .

وأما بنو جشم أصحاب تامسنا فان المنصور لما نقلهم اليها نقل معهم قبائل أخر كانوا قد قاتلوه معهم ، ولم يكونوا من نسبهم ، ولكنهم كانوا مندرجين فيهم ، فكان يطلق على الجميع جشم ، وهؤلاء القبائل هم المقدم والعاصم من بنى هلال بن عامر ، ثم من الاثبج منهم ، وقرة من بنى هلال أيضا ، والخلط من بنى عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر . فهؤلاء القبائل ليسوا من جشم كما ترى ، ولكنهم لما انغمروا فيهم وانتقلوا الى المغرب بانتقالهم أطلق على الجميع جشم .

فاما المقدم والعاصم فهما ابنا مشرف بن اثبج بن أبى ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر ابن صعصعة ، وأما قرة فهم بنو قرة بن عبد مناف بن أبى ربيعة بن نهيك بن هلال ، فهؤلاء القبائل الثلاثة أعنى المقدم والعاصم وقرة هلاليون . وأما الخلط فهم بطن من بنى عقيل بالتصغير .

قال أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى : الخلط بنو عوف وبنو معاوية ابنى المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة المذكور فى الانساب المتقدمة . فقد بان لك بهذا ان هذه القبائل الاربع أعنى العاصم ومقدما وقرة والخلط ، ليسوا من بنى جشم بن معاوية بن بكر من حيث النسب ، وان الثلاث الاول من بنى هلال بن عامر ، وان الرابعة وهى الخلط من بنى عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر . وفى معاوية بن بكر يجتمع الجميع كما ذكرناه أولا ،

والله تعالى اعلم .

ولنتكلم الآن على أخبار جشم على الجملة فنقول : لما نزل بنو جشم ببسيط تامسنا أقاموا بها برهة من الدهر ، ثم تميز جمهورهم الى العاصم ومقدم وبني جابر وسفيان والخلط .

فأما مقدم والعاصم فكانوا مع اخوانهم ببسيط تامسنا المذكور . وكان للموحدين عليهم عسكرة وجباية . وكان شيخ العاصم لعهد الموحدين ، ثم عهد المأمون بن المنصور منهم حسن بن زيد ، وكان له أثر في الفتنة التي ثارت بين المأمون وبين يحيى بن الناصر ابن المنصور .

ولما هلك يحيى المذكور سنة ثلاث وثلاثين وستمائة أمر الرشيد بن المأمون بقتل حسن بن زيد المذكور مع قائد وقائد ابني عامر من شيوخ بني جابر . كل منهما اسمه قائد فقتلوا جميعا .

ثم صارت الرياسة لابي عياد وبنيه . وكان رئيسهم لعهد بني مرين عياد بن أبي عياد . وكان له تلون على الدولة في النفرة تارة والاستقامة أخرى ، وفر الى تلمسان ورجع منها أعوام تسعين وستمائة . وفر الى السوس ورجع منه سنة سبع وسبعمائة . ولم يزل هذا دأبه ، وكانت له ولاية مع السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني من قبل ذلك ومقاماته في الجهاد معه مذكورة وبقيت رياسته في بنيه الى ان انقرض أمرهم وتلاشوا . والله خير الوارثين .

وأما بنو جابر بن جشم فكانت لهم شوكة أيضا . وكان لهم أثر في الفتنة الناشئة بين المأمون بن المنصور ، ويحيى بن الناصر بن المنصور . فكانوا شيعة ليحيى . ولما ولى الرشيد بن المأمون أمر بقتل قائد وقائد ابني عامر ، وهما يومئذ شيخا بني جابر فقتلا وقتل معهم حسن بن زيد شيخ العاصم كما تقدم ، وكانوا جميعا معتقلين عند الرشيد

وولى أمر بني جابر بعدهما يعقوب بن محمد بن قيطون . ثم قبض عليه قائد الموحدين أبو الحسن بن يعلو ، وكان ذلك بأمر أبي حفص المرتضى الموحدي . وولى رياسة بني جابر بعده اسمعيل بن يعقوب بن قيطون ثم تحيز بنو جابر هؤلاء عن احياء جشم الى سفح الجبل بتادلا وما اليها يجاورون هنالك صناكة من البربر الساكنين بقنته وهضابه .

فيسهلون الى البسيط تارة ويأوون الى الجبل فى حلف البربر وجوارهم أخرى ، إذا دهمتهم مخافة من السلطان .

قال ابن خلدون : والرياسة فيهم لهذه العصور - يعنى أواخر المائة الثامنة - فى ورديغة من بطونهم ، قال : أدركت شيخا عليهم لعهد السلطان أبى عنان حسين بن علي الورديغى ثم هلك ، وأقيم مقامه ابنه الناصر بن حسين ، ولحق بهم الوزير الحسن بن عمر عند نزوعه عن السلطان أبى سالم المرينى سنة ستين وسبعمائة ، ونهضت إليهم عساكر السلطان فامكنوا منه ، ثم لحق بهم أبو الفضل ابن السلطان أبى سالم عند فراره من مراكش سنة ثمان وستين ، ونازله السلطان عبد العزيز المرينى وأحاط به وبهم ، فلحق ببرابرة صناكة ، ثم أمكنوا منه على مال حمل إليهم ، ولحق بهم أثناء هذه الفتن الامير عبد الرحمن بن أبى يفلوسن المرينى على عهد الوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب ، وطلبه الوزير عمر فأخرجوه عنهم ، وطال بذلك مراس الناصر هذا للفتنة ، فنكرته الدولة وتقبضت عليه وأودعته السجن ، فمكث فيه سنين ثم تجافت عنه الدولة من بعد ذلك وأطلقته ، ثم رجع من المشرق فتقبض عليه الوزير أبو بكر بن غازى المستبد بالمغرب على ولد السلطان عبد العزيز وأودعه السجن ، ونقلوا الرياسة عن بيته إلى غيرهم . والله تعالى مقلب الامور .

وقد يزعم كثير من الناس أن ورديغة من بنى جابر ليسوا من جشم ، وانهم بطن من بطون سدراتة احدى شعوب لواتة من البربر ، ويستدلون على ذلك بموطنهم وجوارهم البربر . والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

وأما سفيان فهم الذين كانت لهم الرياسة والشوكة عند دخول العرب إلى المغرب ، كانت رياستهم يومئذ فى أولاد جرمون على سائر بطون جشم ، واستمروا على ذلك سائر أيام الموحدين ، ولما ضعف أمر بنى عبد المؤمن استكثروا بهم فى حروبهم . فكانت لهم عزة ودالة على الدولة بسبب الكثرة وقرب العهد بالبداوة ، وخبوا ووضعوا فى الفتن مع أعقاب الملوك من بنى عبد المؤمن المتنازعين على الملك ، وظاهروا البعض منهم على البعض ، وساءت آثارهم بالمغرب

وكان شيخهم المشهور على عهد يحيى بن الناصر الموحدى جرمون بن عيسى

السفياني ، وكانت بينهم وبين الخلط عــداوة ، فصارت الخلط شيعة للمأمون وبنيــه ، وصارت سفيان بسبب ذلك شيعة ليحيى بن الناصر منازعه في الخلافــة بمراكش ، ثم قتل الرشيد بن المأمون مسعود بن حميدان شيخ الخلط كما نذكر بعد ، فصاروا إلى يحيى ابن الناصر ، وصارت سفيان إلى الرشيد .

ثم ظهر بنو مرين بالمغرب واتصلت حروبهم مـع الموحدين . ونزع جرمون سنة ثمان وثلاثين وستمائة عن الرشيد ولحق بمحمد بن عبد الحق المريني حياء مما وقـع له مع الرشيد . وذلك أنه نادمه ذات ليلة حتى سكر ، فقام يرقص طربا . ثم حمل عليه وهو سكران وعربـد وأساء الادب . ثم أفاق فندم . وفرّ إلى محمد بن عبد الحق . وهلك سنة تسع وثلاثين بعدها . وعلا كعب ابنه كانون بن جرمون عنـد السعيد بن المأمون ، ثم خالف عليــه عند نهوضه إلى بني مرين سنة ثلاث وأربعين وستمائة . ورجع إلى آزمور فملكها ، وفت ذلك في عضد السعيد فرجع عن حركته وقصد كانون بن جرمون . ففرّ أمامه ثم حضر معــه بعد ذلك حركته إلى تلمسان ، وقتل بحصن تامزردكت قبل مقتل السعيد بيوم واحد . قتلته الخلط في فتنة وقعت بينهم في محلة السعيد . وهي التي جرت عليها تلك الواقعة .

وقام بأمر سفيان من بعــده أخوه يعقوب بن جرمون ، وقتل ابن أخيه محمـد بن كانون ، وحضر مـع عمر المرتضى الموحدي حركة امان ايملولين سنة تسع وأربعين وستمائة ، فرحل يعقوب عن السلطان ، واختل عسكره بسبب ذلك ، فرجـع واتبعــه بنو مرين فـكانت الهزيمة ، ثم عفا له المرتضى عنها ، ثم قتله مسعود وعلي ابنا أخيه كانون بثار أخيهما محمد سنة تسع وخمسين وستمائة . ولحقا بيعقوب بن عبد الحق المريني ، وقدم المرتضى ابنه عبد الرحمن فعجز عن القيام بأمره ، فقدم عمه عبد الله بن جرمون فعجز أيضا ، فقـدم مسعود بن كانون فأقـام شيخا على سفيان ، واستمرت حالهم مـع الموحـدين وبني مرين على هذا النحو من اخـلاص الطاعة والنصرة تارة ، والتمريض فيهما أخرى .

قال ابن خلدون : « واتصلت الرياسة على سفيان في بني جرمون هؤلاء الى عهدنا » قال : « وأدركت شيخا عليهم لعهد السلطان أبي عنان يعقوب بن علي بن منصور بن عيسى

ابن يعقوب بن جرمون بن عيسى.»

وكانت سفيان هؤلاء أحياء حلولا باطراف تامسنا مما يلى آسفى . وغلبتهم الخلط على بسائطها الفسيحة ، وبقى من أحيائهم الحارث والكلابة ينتجعون أرض السوس وقفاره . ويطلبون ضواحى بلاد حاحة من المصامدة ، فبقيت فيهم لذلك شدة وبأس . ورياستهم فى أولاد مطاع من الحرث ، وطال عيثهم فى ضواحى مراكش وافسادهم ، فلما استبد سلطان مراكش الامير عبد الرحمن بن أبى يفلوسن المرينى سنة ست وسبعين وسبعمائة كما نذكر استخلصهم ورفع منزلتهم ، ثم استقدمهم فى بعض أيامه للعرض بخيلهم ورجلهم على العادة ، وشيخهم يومئذ منصور بن يعيش من أولاد مطاع ، فتقبض عليهم أجمعين . وقتل من قتل منهم ، وأودع الآخرين سجونه ، فذهبوا مثلا للآخرين وخضضت شوكتهم والله قادر على ما يشاء .

وأما الخلط فقد كانوا ببسيط تامسنا أولى عدد وقوة ، وكان شيخهم هلال بن حميدان ابن مقدم ، ولما ولى العادل بن المنصور الموحدى خالفوا عليه وهزموا عساكره ، وبعث هلال بيعته الى المأمون بن المنصور سنة خمس وعشرين وستمائة ، وتبعه الموحدون على ذلك ، ثم جاء المأمون فظاهروه على أمره ، وتحيزت أعداؤهم الى يحيى بن الناصر منازعه ، ولم يزل هلال بن حميدان مع المأمون الى ان هلك فى حركته سنته ، وبايع بعده لابنه الرشيد وجاء به الى مراكش ، وهزم سفيان واستباحهم ، ثم هلك هلال بن حميدان فولى مكانه أخوه مسعود بن حميدان ، ثم خالف على الرشيد فاحتال الرشيد عليه حتى وفد عليه بمراكش فقتله فى جماعة من قومه سنة ثنتين وثلاثين وستمائة ، وولى أمر الخلط بعده يحيى بن هلال ، وفر بقومه الى يحيى بن الناصر وحاصروا مراكش ثم استولوا عليها وعاثوا فيها ، وخرج الرشيد الى سجلماسة ، ثم عاد اليهم سنة ثلاث وثلاثين بعدها وغلبهم عليها ، ثم راجعوا طاعة الرشيد وطردوا يحيى بن الناصر الى بنى معقل عرب الصحراء ، فتقبض الرشيد على وشاح وعلى ابنى هلال وسجنهم بآزمور سنة خمس وثلاثين وستمائة ، ثم أطلقهم ثم بعد ذلك غدر بمشيختهم بعد الاستدعاء والتأنيس وقتلهم أجمعين . ثم بعد ذلك حضروا مع السعيد بن المأمون حركته الى بنى عبد الواد أصحاب تلمسان ، وجروا عليه الواقعة حتى قتل فيها بسبب فتنتهم مع سفيان يومئذ ، فلم يزل المرتضى يعمل

الحيلة فيهم الى ان تقبض على أشياخهم سنة ثنتين وخمسين وستمائة فقتلهم ، ولحق عواج بن هلال بن حميدان ببني مرين . وقدم المرتضى عليهم علي بن أبى علي من بيت الرياسة فيهم . ثم رجع عواج الى الموحدين سنة أربع وخمسين وستمائة فأغزاه على بن أبى على فقتل فى غزاته تلك

ثم كانت واقعة أم الرجلين لبنى مرين على المرتضى سنة ستين وستمائة ، فنزع علي ابن أبى علي الى بنى مرين ، ثم صار الخلط كلهم الى بنى مرين . وكانت الرياسة فيهم أول دولة بنى مرين لابى عطية مهلهل بن يحيى الخاطى . وأصهر اليه السلطان يعقوب ابن عبد الحق ، فانكحه مهلهل ابنته عائشة التى كان منها ابنه السلطان أبو سعيد بن يعقوب ، ولم يزل مهلهل كبيرا عليهم الى ان هلك سنة خمس وتسعين وستمائة ، ثم قام بامر الخلط ابنه عطية ، وكان لعهد السلطان أبى سعيد وابنه السلطان أبى الحسن ، وبعثه السلطان أبو الحسن سفيرا عنه الى سلطان مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون .

ولما هلك عطية قام بامر الخلط ابنه عيسى بن عطية ، ثم ابن أخيه زمام بن ابراهيم بن عطية ، وهو الذى بلغ المبالغ من العز والترف والدالة على السلطان ، والقرب من مجالسه الى ان هلك ، فولى أمر الخلط بعده أخوه أحمد بن ابراهيم ، ثم أخوهما سليمان بن ابراهيم . ثم أخوهم مبارك بن ابراهيم على مثل حالهم أيام السلطان أبى عنان المرينى ومن بعده ، الى ان كانت الفتنة بالمغرب بعد مهلك السلطان أبى سالم المرينى ، واستولى على المغرب أخوه السلطان عبد العزيز ، وأقطع ابنه أبا الفضل ناحية مراكش ، فكان مبارك بن ابراهيم بن عطية هذا معه .

ولما تقبض على أبى الفضل تقبض على مبارك المذكور ، وأودع السجن الى ان غلب السلطان عبد العزيز على عامر بن محمد الهنتاتى وقتله ، فقتل معه مبارك بن ابراهيم هذا لما كان يعرف به من صحبته ومداخلته في الفتن كما يذكر فى أخبار بنى مرين . وولى ابنه محمد بن مبارك على قبيل الخلط .

قال ابن خلدون : « إلّا ان الخلط اليوم دثرت كأن لم تكن بما أصابهم من الخصب والترف منذ مائتين من السنين بذلك البسيط الافيح ، زيادة على العز والدعة ، فأكلتهم السنون وذهب بهم الترف ، والله غالب على أمره » اه .

ولما انقرضت الدولة المرينية من المغرب وجاءت دولة الشرفاء السعديين وقام منهم أبو عبد الله محمد الشيخ المعروف بالمهدي انحاشت الخلط اليه ، وأظهروا الخدمة والنصيحة . وغلب محمد الشيخ المذكور على فاس وأخرج أبا حسون الوطاسي عنها ، فذهب أبو حسون المذكور الى دولة الترك بالجزائر واستنصر بهم على السعديين فلبوا دعوته ، وقدم معه منهم عسكر جرار الى فاس فأخرجوا محمد الشيخ السعدي عنها بعد حروب عظيمة جرت الخلط هؤلاء عليه فيها الهزيمة ، فلما استقل بالامر محمد الشيخ المذكور خلع الخلط من الجندية ووظف عليهم الخراج ومحا اسمهم من ديوان الخدمة ، ونقل اعيانهم الى مراكش واتخذهم رهائن عنده .

ولم يزل الامر على ذلك الى دولة السلطان أبي العباس أحمد المنصور السعدي المعروف بالذهبي ، فرأى جلاد الخلط وقتالهم يوم وادي المخازن وابلاءهم البلاء الحسن ، فاختار النصف منهم وردّه الى الجندية ، وأبقى النصف الآخر في غمار الرعية ، ونقلهم الى أزغار فاستوطنوه ، فعاثوا في تلك البلاد وأكثروا فيها الفساد ، ومدوا أيديهم الى أولاد مطاع فنهبوهم ، وضايقوا بني حسن فكثرت الشكاية بهم الى المنصور السعدي ، فضرب عليهم مغرما سبعين ألفا . فلم يزيدوا إلّا شدة ، فضرب عليهم بعثا الى تكرارين من أرض الصحراء فامتنعوا من ذلك ، فبعث اليهم القائد موسى بن أبي جمادة العمري فانتزع منهم الخيل وأبقاهم رجالة ، ثم حكم فيهم السيف فمزقهم كل ممزق ، ومن ثم خمدت شوكتهم ولانت للغامز قناتهم ، ثم ختموا أعمالهم بفعلتهم الشنعاء التي ملأت الافواه وأسالت من الجفون الامواه ، وهي قتلهم ولي الله تعالى المجاهد في سبيله أبا عبد الله سيدي محمد العياشي المالكي رحمه الله . فما زلنا نسمع ان قبيلة الخلط انما سلبوا العز منذ قتلهم للولي المذكور ، وكان ذلك في المحرم سنة احدى وخمسين وألف ، والله تعالى أعلم ،

الخبر عن بنى معقل عرب الصحراء من أرض المغرب

وتحقيق نسبهم وبيان شعوبهم وبطونهم

قال ابن خلدون : « هذا القبيل لهذا العهد من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الاقصى ، مجاورون لبنى عامر من زغبة الهلاليين فى مواطنهم بقبلة تلمسان ، وينتهون الى البحر المحيط من جهة الغرب ، وهم ثلاثة بطون . ذوى عبيد الله ، وذوى منصور ، وذوى حسان .

فذوى عبيد الله منهم هم المجاورون لبنى عامر ، ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت فى التل وما يواجهها من القبلة ، ومواطن ذوى منصور من تاوريرت الى بلاد درعة ، فيستولون على ملوية كلها الى سجلماسة ، وعلى درعة وما يحاذيها من التل ، مثل تازا وغساسة ومكناسة وفاس وبلاد تادلا والمعدن ، ومواطن ذوى حسان من درعة الى البحر المحيط ، وينزل شيوخهم بلاد نول قاعدة السوس ، فيستولون على السوس الاقصى وما اليه وينتجعون كلهم فى الرمال الى مواطن الملثمين من كدالة ومسوفة ولمتونة .

وكان دخولهم إلى المغرب مع الهلاليين فى عدد قليل يقال إنهم لم يبلغوا المائتين ، واعترضتهم بنو سليم فأعجزوهم وتحيزوا إلى الهلاليين منذ عهد قديم ، ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلى ملوية ورمال تافيلالت ، وجاوروا زناتة فى القفار فعفوا وكثروا وأثروا فى صحارى المغرب الاقصى ، فعمروا رماله وتقلبوا فى فيافيه ، وكانوا هنالك أحلافا لزناتة سائر أيامهم ، وبقى منهم بأفريقية جمع قليل اندرجوا فى جملة بنى كعب ابن سليم وداخلوهم حتى كانوا وزراء لهم فى الاستخدام للسلطان واستئلاف العرب . فلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الامصار والمدن أقام بنو معقل هؤلاء فى القفار ، وتفردوا فى البيداء فنموا نموا لا كفاء له ، وملكوا قصور الصحراء التى اختطها زناتة بالقفر مثل قصور السوس غربا . ثم توات ، ثم بودة ، ثم تمنطيت ، ثم واركلان ثم تاسبيبت ثم تيكرارين شرقا ، وكل واحد من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة وبينهم فتن وحروب على رياستها .

فحازت عرب معقل هـذه الاوطان في مجالاتهم ، ووضعوا عليها الاتاوات والضرائب وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكا .

وكانوا فى تلك المـدة السالفة يعطون الصدقات لملوك زناتـة ويأخـدونهم بالدماء والطوائل ، ويسمونها حمل الرحيل ، وكان لهم الخيار فى تعيينها ، ولم يكن هؤلاء العرب يحمون من أطراف المغرب وتلوله حمى ، ولا يعرضون لسابـلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد الصحراء بأذية ولا مكروه ، لمـا كان بالمغرب من اعتزاز الدين وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة من بعدهم .

وكان لهم باراء ذلك اقطاع من الدول يمدون الى أخذه اليد السفلى وعددهم قليل كما قلنا ، وانما كثروا بمن اجتمع اليهم من القبائل من غير نسبهم ، فان فيهم من فزارة بن ذبيان ابن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر ، وفيهم من أشجع بن ريث ابن غطفان احياء كبيرة ، يظعنون مع بنى معقل بجهات سجلماسة ووادى ملوية ، ولهم عدد وذكر ، وفيهم الصبّـاح من الاخضر ، ويقولون انهم من ولد اخضر بن عامر ، وعامر هذا هو — والله أعلم — من ولد رياح الهلاليين ، وفيهم المهاية من عياض احدى بطون الاثبج الهلاليين ، وفهيم العمور من الاثبـج أيضا . وفيهم بطون أخر من بنى هلال وبنى سليم وغيرهم .

وأما أنسابهم عند الجمهور فخفية ومجهولة ، والنسابون من عرب هلال يعدونهم من بطونهم وهو غير صحيح ، وهم — أعنى بنى معقل — يزعمون أن نسبهم فى أهل البيت إلى جعفر بن أبى طالب ، وليس ذلك أيضا بصحيح ، لان الطالبين والهاشميين لم يكونوا أهل باديـــة ونجعة .

هكذا ذكر ابن خلدون ، لكنه لما تكلم على جهينة إحدى بطون قضاعة ، وذكر أنهم نزلوا بلاد الصعيد وملأُوها . قال : « ونزل معهم فى تلك المواطن من اسوان إلى قوص بنو جعفر بن أبى طالب حين غلبهم بنو الحسن على نواحى المدينة وأخرجوهم منها ، فهم يعرفون بينهم بالشرفاء الجعافرة ،ويحترفون فى غالب أحوالهم بالتجارة » اه كلامه . فعلى هذا لايبعد أن تكون طائفة من هؤلاء الجعافرة قد انتقلوا من أرض الصعيد ودخلوا مع بنى هلال إلى بلاد المغرب واوطنوا صحراءه ، وهم بنو معقل المذكورون ،

والناس مصدقون فى أنسابهم ، والله تعالى أعلم بحقائق الامور .

ثم قال ابن خلدون : « والصحيح والله أعلم من أمرهم انهم من عرب اليمن . فان فى اليمن بطنين يسمى كل واحد منهما معقل ، ذكرهما ابن الكلبى وغيره فأحدهما من قضاعة بن مالك بن حمير ، وهو معقل بن كعب بن عليم بن جناب وينتهى نسبه الى قضاعة والآخر من بنى الحرث بن كعب أصحاب نجران ، الذين كان منهم بنو عبد المدان ملوك نجران فى الجاهلية والاسلام . وهو معقل بن كعب بن ربيعة بن كعب بن الحرث بن كعب ، وينتهى نسبه الى كهلان » قال : « والانسب ان يكونوا من هذا البطن الآخر ، وقد عده الاخباريون فى بطون هلال الداخلين الى افريقية لمجاورتهم فى الوطن » قال : ومن املاء نسابهم ان معقلا جدهم له من الولد سجير ومحمد ، فولد سجير : عبيد الله ، وثعلب ، فمن عبيد الله ذوى عبيد الله البطن الكبير منهم ، ومن ثعلب الثعالبة الذين كانوا ببسيط متيجة من نواحى الجزائر ، وولد محمد : مختارا ومنصورا وجلالا وسالما وعثمان . فولد مختار بن محمد حسان وشبانة ، فمن حسان ذوى حسان البطن المذكور اهل السوس الاقصى ، ومن شبانة الشبانات جيرانهم هنالك ، ومن جلال وسالم وعثمان الرقيطات بادية فى ذوى حسان ينتجعون معهم ، وولد منصور بن محمد حسينا وأبا الحسين وهما شقيقان ، وعمران ومنبا وهما شقيقان أيضا وهما الاحلاف ، ويقال لعمران العمارنة ، ولمنبا المنبات ، ثم يقال لجميع البطون الاربعة ولد منصور بن محمد ذوى منصور ، وهم احدى بطونهم الثلاث المذكورة والله تعالى أعلم بغيبه » .

فهذه أصول عرب المغرب الاقصى وكيفية دخولهم اليه واستيطانهم اياه ، وبعض فصولهم قد ذكرناها ملخصة من تاريخ امام الفن أبى زيد عبد الرحمن بن خلدون ، ومن جمهرة الانساب لابن حزم ، وزدنا ما يحتاج منها الى البيان بيانا والله تعالى الموفق .

ولنرجع الى ما كنا بسبيله من أخبار أمير المؤمنين يعقوب المنصور رحمه الله ، فانه لما رجع من افريقية الى مراكش سنة أربع وثمانين وخمسمائة رفع اليه ان أخاه السيد أبا حفص صاحب مرسية الملقب بالرشيد ، وعمه السيد أبا الربيع صاحب تادلا عند ما بلغهما خبر الوقعة التى كانت على مقدمة المنصور بأفريقية حدثا أنفسهما بالتوثب على

الخلافة ، فلما قدما عليه للتهنئة أمر باعتقالهما خلال ما استملى أمرهما ثم قتلهما ، وعقد للسيد أبى الحسن ابن السيد أبى حفص على بجاية وفى سنة خمس وثمانين وخمسمائة شرع المنصور فى ادخال ساقية الماء الى مراكش ، ثم تاقت نفسه الى الجهاد فكان منه ما نذكره .

الجواز الاول ليعقوب المنصور رحمه الله الى الاندلس بقصد الجهاد

قال ابن أبى زرع : وفى سنة خمس وثمانين وخمسمائة تحرك أمير المؤمنين يعقوب المنصور الى الاندلس برسم غزو بلاد غربها ، وهى أولى غزواته ، فعبر من قصر المجاز الى الخضراء يوم الخميس الثالث من ربيع الاول من السنة المذكورة . ثم نهض من الخضراء حتى نزل شنترين ، وشن الغارات على مدينة اشبونة وأنحائها ، فقطع الثمار وحرق الزروع وقتل وسبا وأضرم النيران فى القرى وأبلغ فى النكاية ، وانصرف الى العدوة بثلاثة عشر ألفا من السبى ، فدخل فاسا فى آخر رجب من السنة المذكورة .

مراسلة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب

صاحب مصر ليعقوب المنصور رحمهما الله والتماسه منه الاساطيل للجهاد

كانت الفرنج قد ملكوا سواحل الشام فى آخر الدولة العبيدية منذ تسعين سنة قبل هذا التاريخ ، وملكوا معها بيت المقدس شرفه الله ، فلما استولى السلطان صلاح الدين رحمه الله على ديار مصر والشام اعتزم على جهادهم ، وصار يفتتح حصونها واحدا بعد واحد حتى أتى على جميعها . وافتتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وهدم الكنيسة التى بنواحيه ، وانقضت أمم النصرانية من كل جهة ، وتتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد من كل ناحية لتلك الثغور القريبة من بيت المقدس . واعترضوا اسطول

صلاح الدين فى البحر ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لضعفها يومئـذ عن ممانعتهم فبعث صلاح الدين صريخه إلى المنصور سنة خمس وثمانين وخمسمائة (١) يطلب اعانته بالاساطيل لمنازلة عكاه وصور وطرابلس الشام ، وأوفد عليه أبا الحرث عبد الرحمن بن منقذ من بيت بنى منقذ ملوك شيزر من حصون الشام ، وكان صلاح الدين قد ملكها من أيديهم وأبقى عليهم فى دولته ، فبعث صلاح الدين عبد الرحمن هذا إلى يعقوب المنصور طالبا مدد الاساطيل لتحول فى البحر بين أساطيل الفرنج وبين أمداد النصرانية بالشام ، ولمنازلة الثغور التى ذكرنا .

وبعث معه إلى المنصور بهدية تشتمل على مصحفين كريمين منسوبين ، ومائة درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلا من العود ، وستمائة مثقال من المسك والعنبر وخمسين قوسا عربية بأوتارها . وعشرين من النصول الهندية ، وسروج عدة مثقلة ، فوصل إلى المغرب فصادف المنصور بالاندلس فانتظره بفاس إلى أن رجع فلقيه وأدى الرسالة وقدم الهدية .

وكان الكتاب الذى بعث به صلاح الدين من إنشاء الاديب عبد الرحيم البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل ، وكان عنوان الكتاب من صلاح الدين إلى أمير المسلمين وفى أوله الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب ، وبعده : الحمد لله الذى استعمل على الملة الحنيفية من استعمر الارض ، وأغنى من أهلها من سأله القرض ، وأجرى من أجرى على يده النافلة والفرض ، وزين سماء الملة بدرارى الذرارى التى بعضها من بعض ، وهو كتاب طويل .

ولما وقف عليه المنصور ورأى تجافيهم فيه عن خطابه بأمير المؤمنين لم يعجبه ذلك ، وأسرها فى نفسه ، وحمل الرسول على مناهج البر والكرامة ، ورده الى مرسله ولم يجبه الى حاجته ، ويقال انه جهز له بعد ذلك مائة وثمانين اسطولا ، ومنع النصارى من سواحل الشام . والله تعالى أعلم .

قال ابن خلدون (٢) : وفى هذا دليل على اختصاص ملوك المغرب يومئذ بالاساطيل ،

---

(١) صوابه ست وثمانين (راجع كتاب الروضتين للمقدسى ج ٢ ص ١٧٣)

(٢) هذا النقل غير موجود فى ابن خلدون سواء فى النسخة المطبوعة بالقاهرة سنة =

الجهادية ، وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد بها . وكان ابن منقذ المذكور قد مدح المنصور بقصيدة يقول فيها :

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته * إلى بحر جود ما لأخراه ساحل
إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى * إلى من سمت بالذكر منه الاوائل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل * إلى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقنا * بأن نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصديك العلى فبلغتها * وأدنى عطاياك العلى والفواضل
فلازلت للعلياء والجود بانيا * تبلغك الآمال ما أنت آمل

وعدتها أربعون بيتا . فأعطاه بكل بيت ألفا . وقال له : إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك ، يعنى لا لاجل صلاح الدين .

عود المنصور إلى افريقية والسبب في ذلك

لما قدم المنصور من الاندلس الى فاس وفرغ من شأن ابن منقذ تواترت لديه الاخبار بأن ابن غانية قد ظهر بافريقية ، فنهض اليها من فاس فى ثامن شعبان من تلك السنة ، فدخل تونس فى أول ذى القعدة منها فألفى بلاد افريقية ساكنة وقد فر ابن غانية عنها إلى الصحراء حين سمع بقدومه .

وفى سنة ست وثمانين وخمسمائة استولى الفرنج على مدينة شلب وباجة ويابورة من غرب الاندلس ، وذلك لما علموا أن المنصور قد أبعد عنهم واشتغل بأمر افريقية . فاغتنموا الفرصة فيها ، واتصل الخبر بالمنصور فغاظه ذلك وأعظمه ، وكتب إلى قواد

= ١٢٨٤ أو المطبوعة بالجزائر سنة ١٢٦٣ (١٨٤٧) ولعل المؤلف نقله عن نسخة أخرى خطية وربما تكون هى النسخة المخطوطة التى كان وقف عليها عند أحد عمال الغرب المعروف بولد الضاوية وهى التى استعملها عند جمعه لهذا التاريخ اه .

الاندلس يوبخهم ويأمرهم بغزو بلاد الفرنج ويعلمهم أنه قادم عليهم فى أثر كتابه ، فاجتمع قواد الاندلس إلى محمد بن يوسف والي قرطبة ، فخرج بهم فى جيش كثيف من الموحدين والعرب وأهل الاندلس حتى نزل على شلب فشدد عليها الحصار وتابع عليها القتال حتى فتحها وفتح قصر أبى داس ومدينة باجة ويابورة ورجع إلى قرطبة فدخلها بخمسة عشر ألفا من السبى وثلاثة آلاف أسير قدمهم بين يديه فى القطائن خمسون علجا فى كل قطينة ، وذلك فى شوال سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

وفى هذا الشهر رجع المنصور من افريقية فانتهى إلى تلمسان فأقام بها إلى آخر السنة المذكورة ، وفى فاتح محرم من سنة ثمان وثمانين وهى سنة آكَرْوَاوْ خرج المنصور من تلمسان إلى فاس وهو مريض ، فكان يركب فى آكْرواو ، فدخل فاسا وأقام بها مريضا سبعة أشهر حتى أبل من علته ، ثم نهض إلى مراكش فأقام بها إلى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ، ثم نهض منها إلى الاندلس بقصد الجهاد ، وكان ما نذكره إن شاء الله .

الغزوة الكبرى بالأرك من بلاد الاندلس

قال ابن خلكان : كان يعقوب المنصور رحمه الله قد خافه الفنش صاحب طليطلة وسأله الصلح فصالحه إلى خمس سنين ، فلما انقضت مدة الهدنة ولم يبق منها إلا القليل خرجت طائفة من الفرنج فى جيش كثيف إلى بلاد المسلمين ، فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثا فظيعا ، فانتهى الخبر إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور وهو بمراكش فتجهز لقصدهم فى جيش عرمرم من قبائل الموحدين والعرب ، واحتفل فى ذلك وعبر البحر إلى الاندلس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ، واتصل بالفرنج عبوره إليهم فجمعوا خلقا كثيرا من أقاصى بلادهم وأدانيها وأقبلوا نحوه .

قال ابن خلكان : وقد رأيت بدمشق جزأ بخط الشيخ الحافظ تاج الدين عبد الله بن حمويه السرخسى ، وكان قد سافر إلى مراكش وأقام بها مدة ، وكتب فصولا تتعلق بتلك الدولة ، فمن ذلك فصل يتعلق بهذه الوقعة فينبغى ذكره ههنا .

قال : لما انقضت الهدنة بين أمير المؤمنين يعقوب المنصور وبين الاذفونش الفرنجى صاحب غرب جزيرة الاندلس ، وقاعدة مملكته يومئذ طليطلة ، وذلك فى أواخر سنة تسعين وخمسمائة عزم يعقوب المنصور ـ وهو يومئذ بمراكش ـ على التوجه الى جزيرة الاندلس لمحاربة الفرنج ، وكتب الى ولاة الاطراف وقواد الجيوش بالحضور ، وخرج الى مدينة سلا ليكون اجتماع العساكر بظاهرها . فاتفق انه مرض مرضا شديدا حتى أيس منه أطباؤه ، فتوقف الحال عن تدبير تلك الجيوش . وحمل يعقوب المنصور الى مراكش وهو مريض ، فطمع المجاورون له من العرب وغيرهم فى البلاد وعاثوا فيها ، وأغاروا على النواحى والاطراف ، وكذلك فعل الاذفونش فيما يليه من بلاد المسلمين بالاندلس . واقتضى الحال تفرقة الجيوش التى جمعها يعقوب المنصور شرقا وغربا ، واشتغلوا بالمدافعة والممانعة ، فكثر طمع الاذفونش فى البلاد ، وبعث رسولا الى أمير المؤمنين يعقوب المنصور يتهدد ويتوعد ، ويطلب بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الاندلس ، وكتب اليه رسالة من انشاء وزير له من ضعفاء المسلمين يعرف بابن الفخار ، وهي : « باسمك اللهم فاطر السموات والارض ، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح ، أما بعد ، فانه لا يخفى على ذى ذهن ثاقب ، ولا ذى عقل لازب ، انك أمير الملة الحنيفية ، كما انى أمير الملة النصرانية ، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الاندلس من التخاذل والتواكل ، وإهمال أمر الرعية ، واخلادهم إلى الراحة ، وأنا أسومهم بحكم القهر وخلاء الديار ، وأسبى الذرارى وأمثل بالرجال ، ولا عذر لك فى التخلف عن نصرهم إذا امكنتك يد القدرة ، وأنتم تزعمون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ، لاتستطيعون دفاعا ولا تمكلون امتناعا ، وقد حكى لي عنك أنك أخذت فى الاحتفال ، وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك عاما بعد عام ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فلا أدرى أكان الجبن قد أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك ؟ ثم قيل لي إنك لاتجد إلى جواز البحر سبيلا لعلة لايسوغ لك التقحم معها ، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك ، واعتذر لك وعنك . على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان . وترسل إليّ جملة من عبيدك بالمراكب والشوانى والطرائد

والمسطحات ، وأجوز بجملتى إليك فأقاتلك فى أعز الاماكن لديك ، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جابت إليك ، وهدية عظيمة مثلت بين يديك . وإن كانت لي كانت يدى العليا عليك ، واستحققت إمارة الملتين والحكم على البرين ! والله تعالى يوفق للسعادة ويسهل الارادة ، لارب غيره ولاخير إلّا خيره » .

فلما وصل كتابه الى أمير المؤمنين يعقوب المنصور مزقه وكتب على ظهر قطعة منه ، وكان المنصور يضرب به المثل فى حسن التوقيع كما يأتى فى بقية أخباره . « ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » ثم كتب « الجواب ما ترى لا ما تسمع » فهو أول من تكلم به فأرسله مثلا ، وأنشد متمثلا :

« ولا كتب إلّا المشرفية والقنى * ولا رسل إلّا الخميس العرمرم »

ثم أمر بالاستنفار ، واستدعاء الجيوش من الامصار ، وضرب السرادقات بظاهر البلد من يومه ، وجمع العساكر ، وسار الى البحر المعروف بزقاق سبتة يريد الاندلس .

وقال ابن أبى زرع : خرج أمير المؤمنين يعقوب المنصور من حضرة مراكش يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الاولى سنة احدى وتسعين وخمسمائة يوالى السير ويطوى المناهل ، ولا يلوى على فارس ولا راجل . والجيوش تتابع فى أثره من سائر الاقطار ، فلما انتهى الى قصر المجاز أخذ فى اجازة الجيوش الواردة عليه ، لا يفرغ من طائفة إلّا وقد لحقت بها أخرى ، فأجاز أولا قبائل العرب ، ثم زناتة ، ثم المصامدة ، ثم غمارة ، ثم المتطوعة من قبائل المغرب ، ثم الاغزاز والرماة ، ثم الموحدون ، ثم العبيد ، ثم أجاز أمير المؤمنين فى أثرهم فى موكب عظيم من أشياخ الموحدين وأهل النجدة والزعامة ومعه فقهاء المغرب وصلحاؤه ، واستقر بالجزيرة الخضراء بعد صلاة الجمعة الموفى عشرين من رجب من السنة المذكورة ، فأقام بها يوما واحدا .

ثم نهض الى العدو قبل ان تخمد قرائح المجاهدين وتضعف نياتهم ، فسار حتى بقى بينه وبين حصن الارك الذى كان العدو نازلا بازائه نحو مرحلتين ، فنزل هنالك وذلك يوم الخميس ثالث شعبان من السنة ، فجمع الناس ذلك اليوم وفاوضهم ووعظهم ، ثم اختص أهل الاندلس بمزيد المشورة ، وقال لهم : « إن جميع من استشرته وإن كانوا أولى بأس ومعرفة بالحرب لكنهم لا يعرفون من قتال الفرنج ما تعرفونه أنتم ،

لتمرسكم بهم وتمرسهم بكم » ، فأحالوه فى الرأى على القائد أبى عبد الله بن صناديد ، فعول المنصور رحمه الله فى ذلك على رأيه .

وقال ابن الخطيب فى رقم الحلل : إن أمير المؤمنين المنصور رحمه الله عرض جيشه ، وأخذ فى تقريب القرب الى الله تعالى بين يدى جهاده ، فسرح السجون . وأدر الارزاق ، وعين الصدقات ، ورحل فنزل الارك وقد خيمت بأحوازه محلات العدو يضيق عنها المتسع ، وقام المنصور بعد أن اجتمع الناس فتحلل من المسلمين وقال : « أيها الناس اغفروا لي فيما عسى أن يكون صدر منى » فبكى الناس وقالوا : « منكم يطاب الرضى والغفران » وخطب الخطباء بين يديه محرضين ومذكرين فنشط الناس وطابت النفوس ، ومن الغد صدع المنصور بالنداء وأمر بأخذ السلاح والبروز إلى اللقاء . فكانت التعبئة تحت الغلس .

وحكى ابن أبى زرع أن المنصور بات تلك الليلة عاكفا بمصلاه على الركوع والسجود ، وأنه أغفى اغفاءة فرأى ملكا نزل من السماء فى صورة بشر وبيده راية خضراء وبشره بالفتح ، وأنشده فى ذلك أبياتا بقيت على ذكر المنصور إلى أن استيقظ وقص رؤياه على وجوه الجند ، فازداد الناس طمأنينة وبصيرة .

فلما كان يوم السبت خامس شعبان جلس المنصور فى قبته الحمراء المعدة للجهاد ، ثم دعا بكبير وزرائه الشيخ أبى يحيى بن أبى حفص وقدمه على ذلك الجيش ، وعقد له رايته وقدمه بين يديه فرفرفت على رأسه الرايات ، وقرعت بين يديه الطبول ، وسار فى قبيل هنتاتة وبين يديه القائد ابن صناديد فى جيش الاندلس ، ثم عقد المنصور لجرمون ابن رياح على قبائل العرب ، ولمنديل بن عبد الرحمن المغراوى على قبائل مغراوة ، ولمحيوا ابن أبى بكر بن حمامة المرينى جد الملوك المرينيين على قبائل بنى مرين ، ولجابر بن يوسف العبد الوادى على قبائل بني عبد الواد ، وللعباس بن عطية التوجينى على قبائل بنى توجين ، ولتلجين بن علي على قبائل هسكورة وسائر المصامدة ، ولمحمد بن منغفاد على قبائل غمارة ، وعقد للفقيه الصالح أبى خزر يخلف بن خزر الاوربى على المتطوعة .

وقال ابن خلدون : إن الذى كان على المتطوعة يومئذ هو الشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن أبى حفص ، والكل إلى نظر الشيخ أبى يحيى بن أبى حفص ، وبقى المنصور رحمه الله

فى جيش الموحدين والعبيد ، وأمر الشيخ أبا يحيى بالرحيل والتقدم أمامه الى جهة العدو .

وكان المنصور قد ضفر مع ابن صناديد من الرأى أن يبقى هو متأخرا فى الموحدين والعبيد والحشم على مسافة يخفى بهـا عن أعين العدو . ويقدم الشيـخ أبا يحيى ببعض الرايات والطبول فى هيئة السلطان فيلقى العدو . فإن كانت للمسلمين فهو المطلوب ، وان كانت عليهم كان المنصور ردأ لهم ، ثم يستأنف القتال مع العدو وقد أنفل حده ولانت شوكته .

فسار الشيخ أبو يحيى على هـــذا الترتيب وابن صناديد أمامه فى فرسان الاندلس وحماتها ، فكان الشيخ ابو يحيى إذا أقلع بجيشه عن موضع صباحا حالفه المنصور فيـــه بجيشه مساء ، حتى أشرف الشيخ أبو يحيى على جموع الفرنج وهى يومئــذ إلى جنب حصن الارك ويقال الاركو بزيادة الواو فى آخره ، قد ضربت اخبيتها على ربوة عالية ذات مهاو وأحجار كبار قـــد مـلأت السهل والوعر . ونزل الشيخ أبو يحيى بجيشه فى البسيط ضحوة يوم الاربعاء التاسع من شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسمـائة ، وعند ابن خلكان أن ذلك كان يوم الخميس قال : واقتفى المنصور فى ذلك طريقة أبيه وجده فإنهم أكثر ما كانوا يصافون يوم الخميس ، ومعظم حركاتهم فى صفر ، فعبأ الشيـخ أبو يحيى عساكره تعبئة الحرب ، وعقد الرايات لامراء القبائل ، وأوقف كل قبيلة فى مركزها الذى عـين لها . فجعل عسـكر الاندلس فى الميمنة ، وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب فى الميسرة ، وجعل المتطوعة والاغراز والرماة فى المقدمة وبقى هو فى القلب فى قبيل هنتاتة .

ولما أخذ الناس مراكزهم من حومة القتال خرج جرمون بن رياح يمشى فى صفوف المسلمين ويحضهم على الثبات والصبر ، وبينما الناس على ذلك إذ انفصلت من جيش العدو كتيبة عظيمة من نحو عشرة آلاف فارس كلهم مدجج فى الحديد ، وكانت هذه الكتيبة هي شوكة ذلك الجيش وحده . كان الفنش لعنه الله قد انتخبهم وصلّت أقسته عليهم صلاة النصر ، ورشوهم بماء المعمودية ، وتحالفوا عند الصلبان أن لايبرحوا حتى يقتلوا المسلمين أو يهلكوا دونهم . فلما برزت هذه الكتيبة نادى منادى الشيخ أبى يحيى : معشر المسلمين اثبتوا في مصافكم ، واخلصوا لله تعالى نياتكم ، واذكروا الله عز وجل فى قلوبكم .

وبرز عامر الزعيم من أمراء العرب ، فحض الناس على الصبر وثبتهم . وحملت كتيبة العدو حتى اندقت رماح المسلمين فى صدور خيلها أو كادت ، ثم تقهقرت قليـلا ثم عاودت الحملة فكانت كالاولى ، ثم تهيأت للحملة الثالثة فدفعت حتى خالطت صفوف المسلمين ، وخاص البعض منها إلى الشيخ أبى يحيى يظنونه المنصور فاستشهد رحمه الله بعـد ما أحسن البلاء وقاتل قتالا شديدا واستشهد معه جماعة من المسلمين من هنتاتة والمتطوّعة وغيرهم ، وسمى بنو الشيخ أبى يحيى ببنى الشهيد وعرفوا به من يومئذ ، وأظلم الجو بالغبار واختلطت الرجال بالرجال وانفرد كل قرن بقرنه ، واقبلت العرب والمتطوّعة فأحاطوا بالكتيبة التى دفعت إلى الشيخ أبى يحيى ، وزحفت زناتة والمصامدة وغمارة إلى الربوة التى فيها الفنش وجموعه ، وكانت على ما قيل تنيف على ثلاثمائة ألف بين فارس وراجل ، فتوغل المسلمون فى تلك الاوعـار إليهم وخالطوهم بها ، واشتد القتال واستحر القتل فى الكتيبة التى دفعت أولا وانقضت عليهم العرب والمتطوّعة وهنتاتة فطحنوهم طحنا ، وانكسرت شوكة الفنش بهلاكهم إذ كان اعتماده ومعوله عليهم .

وأسرعت خيل من العرب إلى أمير المؤمنين المنصور فأعلموه بأن الله تعالى قـد فل شوكة العدو وأشرف على الانهزام ، فعندها أمر المنصور بالرايات فرفعت وبالطبول فقرعت ، ورفع المسلمون اصواتهم بالتكبير وتسابقوا لقتال العـدو وخفقت البنود ، وزحف امير المؤمنين نحو المعركة ، فلم يرع الفنش اللعين إلّا الرايات قد أقبلت تخفق من كل جهة وزعقات الطبول والابواق وأصوات المجاهدين بالتكبير قد زلزلت الارض ، فقال ما هذا ؟ فقيل : هذا المنصور قد أقبل فى جيشه ، وما قاتلك سائر اليوم إلّا طلائعه ومقدماتـه ! فقذف الله الرعب فى قلبه ، وخشعت نفوس جموعه ، وزلزلت بهم الارض زلزالها ، فولوا الادبار لايلوون على شىء ، وأسعدهم يومئذ من وجد فى فرسه بقيـة تنجيه . وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، وأحاط بعضهم بحصن الارك يظنـون أن الفنش قد تحصن به ، وكان عدوّ الله قد دخل على باب وخرج على آخر من الناحية الاخرى ، واقتحم المسلمون الحصن عنوة وأضرموا النيران فى أبوابـه واحتووا على جميع ما كان فيه وفى محلة العدو من الاموال والذخائر وأنواع السلاح التى تفوت الحصر .

وقال ابن خلدون . « كان ملوك الفرنج الذين قاتلوا المنصور يومئذ ثلاثة ابن

اذفونش وابن الرند والبيبوج ، قال : واعتصم فلهم بحصن الارك وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم ، فاستنزلهم المنصور على حكمه حتى فودى بهم عددهم من المسلمين .

وفى القرطاس : أن عدد أسارى الارك كانوا أربعة وعشرين الفا . فمن عليهم المنصور وأطلقهم ، قال فعز ذلك على جميع الموحدين وسائر المسلمين . وعدت للمنصور سقطة من سقطات الملوك .

وقال ابن الاثير : « كانت الدائرة يوم الارك أولا على المسلمين ثم عادت على الفرنج وانهزموا أقبح هزيمة ، وكان عدد من قتل من الفرنج أريد من مائة الف ، وغنم المسلمون منهم شيئا كثيرا ، فمن الخيام مائة الف وثلاثة وأربعون الفا ، ومن الخيل ستة واربعون الفا وقيل ثمانون الفا . ومن البغال مائة الف ، ومن الحمير أربعمائة الف»

قال فى نفح الطيب : « جاء بها الكفار لحمل اثقالهم لانهم لا إبل لهم » قال « وأما الجواهر والاموال فلا تحصى ، وبيع الاسير بدرهم . والسيف بنصف درهم ، والفرس بخمسة دراهم ، والحمار بدرهم ، وقسم المنصور الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع » كذا في نفح الطيب .

وفى كامل ابن الاثير : « أن يعقوب المنصور رحمه الله نادى فى عسكره من غنم شيئا فهو له سوى السلاح . وأحصى مـا حمل إليه منـه فكان زيادة على سبعين الف لبس ، واستشهد من المسلمين نحو عشرين الفا »

ثم تقدم المنصور بجيوشه الى بلاد الفرنج وأخـذ يخرب المدن والقرى ، ويفتح الحصون والمعاقل ، ويقتل ويسبى ويأسر ، حتى وصل الى جبل سليمان ، ثم ثنى عنانه راجعا وقد امتلأت أيدى المسلمين من الغنائم ، ولم يعارضه من الفرنج معارض ، حتى وصل الى اشبيلية فاستقر بها .

وأما الفنش فانه لمـا انهزم وصل الى طليطلة فى أسوأ حال ، فحلق رأسه ولحيته ، ونكس صليبه وركب حمارا ، وأقسم أن لا يركب فرسا ولا بغلا ولا ينام على فراش ولا يقرب النساء حتى تنصر النصرانية ، فجمع جموعا عظيمة ، وبلـغ الخبر بذلك الى المنصور فبعث الى بـلاد المغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير اكراه ، فأتاه من المتطوعة والمرتزقة جمع عظيم ، ثم نهض الى الفنش فالتقوا فى ربيع الاول سنة اثنتين

وتسعين وخمسمائة ، فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة ، وغنم المسلمون ما معهم من الاموال والسلاح والدواب وغيرها .

ثم تقدم المنصور الى مدينة طليطلة فحاصرها وقاتلها قتالا شديدا وقطع أشجارها ، وشن الغارات على ما حولها من البلاد ، وفتح فيها عدة حصون مثل قلعة رباح ووادى الحجارة ومجريط وجبل سليمان وإفليج وكثير من أحواز طليطلة .

ثم ارتحل عن طليطلة الى مدينة طلمنكة فدخلها عنوة بالسيف فقتل المقاتلة ، وسبا النساء والذرية ، وغنم أموالها ، وهدم أسوارها ، وأضرم النيران فى جوانبها ، وتركها قاعا صفصفا .

وثنى عنانه الى اشبيلية ، فدخلها غرة صفر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، فرفع إليه فى القاضى أبى الوليد بن رشد المعروف بالحفيد مقالات نسب فيها إلى المرض فى دينه ومعتقده ، وكان أحد فلاسفة الاسلام ، وربما الفى بعضها بخط يده فحبس ، ثم أطلق وأشخص إلى مراكش وبها كانت وفاته رحمه الله .

ثم خرج المنصور من اشبيلية غازيا بلاد ابن اذفونش ، فسار حتى احتل بساحة طليطلة ، وبلغه أن صاحب برشلونة قد أمد ابن اذفونش بعساكره وانهم جميعا بحصن مجريط فنهض إليهم ، ولما أطل عليهم انفضت جموع ابن اذفونش من قبل القتال ، ثم انكفأ المنصور راجعا إلى اشبيلية .

ثم اجتمع ملوك الفرنج وأرسلوا يطلبون الصلح ، فأجابهم إليه وصالحهم على مدة خمس سنين بعد أن كان عازما على الامتناع مريدا لملازمة الجهاد إلى أن يفرغ منهم ، وأتاه خبر علي بن اسحق المسوفى المعروف بابن غانية وأنه دخل افريقية وأراد الاستيلاء عليها ، ففت ذلك فى عزمه وصالحهم على المدة التى ذكرنا .

وعقد على اشبيلية للسيد أبى زيد بن الخليفة ، وعلى مدينة بطليوس للسيد أبى الربيع ابن السيد أبى حفص ، وعلى المغرب للسيد أبى عبد الله ابن السيد أبى حفص ، ثم عبر البحر إلى المغرب فوصل إلى مراكش فى شعبان سنة أربع وتسعين وخمسمائة .

وفى نفح الطيب . أن يعقوب المنصور لما حاصر طليطلة وضيق عليها ولم يبق إلّا فتحها خرجت إليه والدة الاذفونش وبناته ونساؤه وبكين بين يديه وسألنه ابقاء البلد

اليهن ، فرق لهن ومن عليهن به ، ووهب لهن من الاموال والجواهر ما جل ، وردهن مكرمات وعفا بعد القدرة . والله تعالى أعلم .

لطيفة : قال الشيخ محيى الدين بن عربى الحاتمى رحمه الله فى كتاب الفتوحات المكية ما نصه : « ولقد كنت بمدينة فاس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحدين قد عبرت إلى الاندلس لقتال العدو حين استفحل أمره على الاسلام ، فلقيت رجلا من رجال الله ولا أزكى على الله أحدا ، وكان من أخص أودائى ، فسألنى ما تقول فى هـذا الجيش هل يفتح له وينصر فى هذه السنة أم لا ؟ فقلت له : ما عندك فى ذلك ؟ فقال : « ان الله تعالى قـد ذكره فى كتابه ، ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح فى هـذه السنة ، وبشر نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك فى كتابه الذى أنزله عليه ، وهو قوله : « انا فتحنا لك فتحا مبينا » فموضع البشرى فتحا مبينا من غير تكرار الالف فانها لاطلاق الوقوف فى تمام الآية ، فانظر أعدادها بحساب الجمل ، فنظرت فوجدت الفتح يكون فى سنة احدى وتسعين وخمسمائة ، ثم جزت الى الاندلس وقد نصر الله جيش المسلمين ، وفتح الله به قلعة رباح والاركو وكُرْكرا وما انضاف الى هذه القلاع من الولايات . هذا عاينته من الفتح ممن هذه صفته ، فأخذت للفاء ثمانين للتاء ، وأربعمائة ، وللحاء المهملة ثمانية ، وللالف واحـدا ، وللميم أربعين ، وللباء اثنين . ولليا عشرة ، وللنون خمسين ، وأما الالف فقد أخذ عددها ، وكان المجموع احدى وتسعين وخمسمائة ، وهى سنو الهجرة الى هذه السنة فهذا من الفتح الالهى لهذا الشخص » انتهى .

ذكر ما شيده المنصور رحمه الله من الآثار بالمغرب والاندلس

كان يعقوب المنصور رحمه الله لما عزم على المسير الى الاندلس بقصد الجهاد أوصى الى نوابه ووكلائه ببناء قصبة مراكش ، والاعتناء بتشييد قصورها ، فمن آثاره الباقية بها الى الآن بابها المعروف بباب آكناو ، ولا مزيد على ضخامته وارتفاعه ، وأمرهم

ببناء الجامع الاعظم بها المنسوب اليه الى اليوم ، وتشييد منارة الماثل به ، ومنار جامع الكتبيين المضروب به المثل فى الارتفاع وعظم الهيكل . قال ابن سعيد : « طول صومعة الكتبيين بمراكش مائة ذراع وعشر أذرع » .

ولما اجتاز المنصور فى سفره هذا بأرض سلا أمر أيضا ببناء مدينة رباط الفتح ، فأسست سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وأكمل سورها ، وركبت أبوابها . وأمر ببناء المسجد الاعظم بطالعة سلا ومدرسة الجوفية منه . قال صاحب الروض المعطار : « كان يعمل فى بنائه ونقل حجارته وترابه سبعمائة أسير من أسارى الفرنج فى قيودها ، وأمر ببناء جامع حسان ومنارة الاعظم المضروب بـه المثل فى الضخامة وحسن الصنعة ، قالوا ولم يتم بناؤه .

ولما فرغ المنصور من وقعة الارك ، واحتل بمدينة اشبيلية ، أخذ فى اتمام بنـاء جامعها الاعظم وتشييد منارة المشاكل للمنارين المتقدمين ، فهو ثالثة الاثافى بالنسبة لهما ، بل قيل انـه ليس فى بلاد الاسلام منار أعظم منه ، وعمل لهذا المنار تفافيح من أملح ما يكون » . قال فى القرطاس : « بلغت من العظم إلى ما لا يعرف قدره إلّا أن الوسطى منها لم تدخل على باب المنار حتى قلعت الرخامة من أسفله . وزنة العمود الذى ركبت عليه أربعون ربعا من الحديد ، وكان الذى صنعها ورفعها فى أعلى المنار المذكور المعلم أبو الليث الصقلي ، وموّهت تلك التفافيح بمائة ألف دينار ذهبا » .

ولمـا كمل جامع اشبيلية وصلى فيه أمر ببناء حصن البرج على وادى اشبيلية ، وقـد تقدم لنا فى أخبار عبد المؤمن أنه هدم أسوار مدينة فاس ، وأن حافده المنصور هذا شرع فى بنائها ثم أتمها ابنه الناصر من بعده .

ولما رجع المنصور من الاندلس إلى مراكش وجد كل ما أمر به من البناآت قد تم على أكمل حال وأحسنه مثل القصبة والقصور والجامع والصوامع ، وأنفق على ذلك كله من أخماس الغنائم ، وكان قد تغير على الوكلاء والصناع الذين تولوا بناء ذلك ، لأنـه سعى إليه بأنهم احتجنوا الاموال ، وصنعوا للجامع سبعة أبواب على عدد أبواب جهنم ، فلما دخله المنصور وتطوّف به أعجبه ، فسأل عن عدد أبوابـه فقيل إنها سبعة أبواب والثامن هو الذى يدخل منه أمير المؤمنين ، فقال المنصور عند ذلك : « لابـأس بالغـالي

إذا قيل حسن »

واتخذ المنصور (١) رحمه الله فى جامعه هذا لمصلاه به مقصورة عجيبة كانت مدبرة بحيل هندسية بحيث تنصب إذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاه منهـا ، وتختفى إذا انفصلوا عنها .

حكى الشريف الغرناطى شارح الحازمية عن الكاتب البارع أبى الحسن عبد الملك ابن عياش أحد كتاب المنصور قال : « كانت لأبى بكر يحيى بن مجير (٢) الشاعر المشهور وفادة على المنصور فى كل سنة ، فصادف فى احدى وفاداته فراغه من احداث المقصورة التى كان أحدثها بجامعه المتصل بقصره فى حضرة مراكش ، وكانت قد وضعت على حركات هندسية ترتفع بها لخروجه وتنخفض لدخوله ، وكان جميع من بباب المنصور يومئذ من الشعراء والادباء قد نظموا أشعارا أنشدوه اياها فى ذلك ، فلم يزيدوا على شكره وتجزيته الخير فيما جدد من معالم الدين وآثاره ، ولم يكن فيهم من تصدى لوصف الحال حتى قدم أبو بكر بن مجير فأنشد قصيدته التى أولها :

أعلمتنى ألقى عصا التسيار * فى بلدة ليست بدار قرار

واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها :

طورا تكون بمن حوته محيطة ... فكأنها سور من الاسوار
وتكون حينا عنهم مخبوءة ... فكأنها سر من الاسرار
وكأنها علمت مقادير الورى ... فتصرفت لهم على مقدار
فإذا احست بالامام يزورها ... فى قومه قامت إلى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده ... كتكون الهالات للاقمار

فطرب المنصور لسماعها وارتاح لاختراعها .

قال أبو العباس المقرى فى نفح الطيب : وقد بطلت حركات هذه المقصورة الآن ، وبقيت آثارها حسبما شاهدته سنة عشر وألف ، والله وارث الارض ومن عليها .

ومن شعر ابن مجير يصف خيل المنصور من قصيدة مدحه بها قوله :

(١) نسب صاحب الحلل الموشية بناء المسجد والمقصورة لعبد المؤمن .

(٢) توفى بمراكش سنة ٥٨٨ .

له حلبة الخيل العتاق كأنها نشاوى تهادت تطلب العزف والقصفا
عرائس أغنتها الحجول عن الحلى فلم تبغ خلخالا ولا التمست وقفا
فمن يقق كالطرس تحسب أنه وان جردوه فى ملاءته التفا
وأبلق أعطى الليل نصف اهابه وغار عليه الصبح فاحتبس النصفا
وورد تغشى جلده شفق الدجا فإذ حازه دلى له الذيل والعرفا
وأشقر مج الراح صرفا أديمه وأصفر لم يمسح بها جلده صرفا
وأشهب فضي الاديم مدنر عليه خطوط غير مفهمة حرفا
كما خطخط الراهى بمهرق كاتب فجر عليه ذيله وهو ما جفا
تهب على الاعداء منها عواصف ستنسف أرض المشركين بها نسفا
ترى كل طرف كالغزال فتمترى أظبيا ترى تحت العجاجة أم طرفا
وقد كان فى البيداء يألف سربه فربته مهرا وهى تحسبه خشفا
تناوله افظ الجواد لأنه إذا ما أردت الجرى أعطاكه ضعفا

ومما مدح به المنصور رحمه الله قول بعض شعراء عصره حين طلب منه الفنش الصلح فأجابه اليه :

أهل بان يسعى اليه ويرتجى ويزار من أقصى البلاد على الرجا
من قد غدا بالمكرمات مقلدا وموشحا ومختما ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره وتعطرت منه الرياح تأرجا

ودخل عليه الاديب أبو اسحق ابراهيم بن يعقوب الكانمى الاسود الشاعر فأنشده

أزال حجابه عنى وعينى تراه من المهابة فى حجاب
وقربنى تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابى

وكانم بكسر النون جنس من السودان ، وهم بنو عم تكرور ، وليس اسمهما للانتساب لأب أو لأم ، وإنما كانم اسم بلدة بنواحى غانة فسمى هذا الجنس بها ، وكذلك تكرور اسم للارض التى هم بها فسموا بها ، والله أعلم .

بقيـة أخبار المنصور وسيرتـــه

قال ابن أبى ررع : كان المنصور رحمه الله ذا رأى وحزم ودين وسياسة ، قـال : وهو أول من كتب العلامة بيده من ملوك الموحدين : الحمد لله وحـده ، فجرى عملهم على ذلك . وقـد تقدم لنا ان ذلك كان فى دولة أبيه فالله أعلم .

وهو واسطة عقد ملوك الموحـدين الذى ضخم الدولة وشرفها . وكانت أيامه أيام دعة وأمن ورخاء ورفاهية وبهجة ، صنع الله عز وجل فى أيامه الامن بالمشرق والمغرب والاندلس ، فكانت الظعينة تخرج من بلاد نول فتنتهى الى برقة وحدها لاترى من يعرض لها ولا من يسومها بسوء ، ضبط التغور ، وحصن البلاد ، وبنى المساجـد والمدارس فى بلاد افريقية والمغرب والاندلس ، وبنى المارستانات للمرضى والمجانين وأجرى عليهم الانفاق فى جميع أعماله ، وأجرى المرتبات على الفقهاء وطلبة العلم ، كل على قدر مرتبته ، وبنى الصوامع والقناطر ، وحفر الآبار للماء فى البريـة واتخذ عليها المنازل من السوس الاقصى الى سويقة ابن مصكوك ، فكانت أيامه زينة للدهر وشرفا للاسلام وأهله .

وقال ابن خلكان : كان يعقوب المنصور رحمه الله صافى السمرة جدا ، الى الطول ماهو ، جميل الوجه ، أفوه ، أعـين ، شديد الكحل ، ضخم الاعضاء ، جهورى الصوت ، جزل الالفاظ ، من أصدق الناس لهجة ، وأحسنهم حـديثا ، وأكثرهم اصابة بالظن ، مجربا للامور ، ولى وزارة أبيه فبحث عن الاحوال بحثا شافيا ، وطالـع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيـات الامور ، فلما مات أبوه اجتمع رأى أشياخ الموحدين على تقديمه فقام بالامر أحسن قيام ، ورفع راية الجهاد ، ونصب ميزان العـدل ، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ، ونظر فى أمور الدين والورع ، وأقام الحدود حتى فى أهله وعشيرته الاقربين ، كما أقامها فى سائر الناس أجمعين ، فأستقامت الاحوال فى أيامه ، وعظمت الفتوحات ، وكان قـد أمر لاول دولته بقراءة البسملة فى أول الفاتحة فى الصلوات ، وأرسل بذلك الى سائر بـلاد الاسلام التى فى مملكته ،

فأجاب قوم وامتنع آخرون ، وكان ملكا جوادا ، عادلا ، متمسكا بالشرع المطهر ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما ينبغى من غير محاباة ، ويصلى بالناس الصلوات الخمس ، ويلبس الصوف ، ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم بالحق .

قال ابن خلكان : وسمعت عنه حكاية يليق أن نذكرها هنا ، وهى أن الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص كان قد تزوج أخت يعقوب المنصور ، فأقامت عنده ثم جرت بينهما منافرة ، فجاءت الى بيت أخيها يعقوب المنصور ، فسير الشيخ عبد الواحد فى طلبها فامتنعت عليه ، فشكى الشيخ عبد الواحد ذلك الى قاضى الجماعة بمراكش ، وهو أبو عبد الله محمد بن على بن مروان . فاجتمع القاضى المذكور بأمير المؤمنين يعقوب المنصور ، وقال له : « إن الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله » فسكت عنه المنصور ، ومضت أيام ، ثم ان الشيخ أبا محمد اجتمع بالقاضى المذكور فى قصر المنصور بمراكش وقال له : « أنت قاضى المسلمين وقد طلبت أهلى فما جاؤنى » فاجتمع القاضى بالمنصور وقال له : « يا أمير المؤمنين الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية » فسكت المنصور . ثم بعد ذلك بمدة لقى الشيخ عبد الواحد القاضى بالقصر المذكور فقال له : « يا قاضى المسلمين قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة أنا أطلب أهلى وقد منعونى منهم » فاجتمع القاضى بالمنصور ، وقال له : « يامولانا ان الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لاهله ، فإما ان تسير اليه أهله ، واما ان تعزلنى عن القضاء » فسكت المنصور وقيل انه قال له : « يا أبا عبد الله ما هذا إلّا جد كبير » ثم استدعى خادما وأمره سرا بان تحمل أهل الشيخ عبد الواحد اليه ، فحملت اليه فى ذلك اليوم . ولم يتغير على القاضى ولا قال له شيأ يكرهه ، وتبع فى ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لامره ، وهذه حسنة تعد له وللقاضى أيضا فإنه بالغ فى إقامة منار الشرع والعدل .

وكان المنصور يشدد فى إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس ، وقتل فى بعض الاحيان على شرب الخمر ، وقتل العمال الذين تشكوهم الرعايا ، وأمر برفض فروع الفقه واحراق كتب المذاهب وان الفقهاء لا يفتون إلّا من الكتاب والسنة النبوية ، ولا يقلدون أحدا من الائمة المجتهدين . بل تكون أحكامهم بما يؤدى اليه اجتهادهم من

استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والاجماع والقياس .

قال ابن خلكان : ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا الينا وهم على ذلك الطريق ، مثل أبى الخطاب بن دحية وأخيه أبى عمرو ، ومحيي الدين بن عربى نزيل دمشق وغيرهم ، وكان يعاقب على ترك الصلوات . ويأمر بالنداء فى الاسواق بالمبادرة اليها ، فمن غفل عنها أو اشتغل بمعيشته عزره تعزيرا بليغا .

وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطنته ، حتى انه لم يبق بجميع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط الى برقة إلّا من هو فى طاعته وداخل فى ولايته الى غير ذلك من جزيرة الاندلس ، وكان محسنا ، محبا للعلماء ، مقربا للادباء ، مصغيا الى المدح ، مثيبا عليه ، وله ألف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى كتابه الذى سماه صفوة الادب وديوان العرب في مختار الشعر ، وهو مجموع مليح أحسن فى اختياره كل الاحسان .

وكان المنصور يضرب به المثل فى حسن التوقيع واجادته وقد تقدم لنا ما وقع به على كتاب الفنش .

وحكى ابن الخطيب فى رقم الحلل : ان المنصور طلب يوما من قاضيه أن يختار له رجلين لغرضين من تعليم ولد ، وضبط أمر ، فعرفه برجلين ، قال في أحدهما : وهو بحر فى علمه ، وقال في الآخر : وهو برّ فى دينه ، ولما خرج المنصور أحضرهما واختبرهما فقصرا بين يديه ، وأكذبا الدعوى ، فوقع المنصور على رقعة القاضى . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ظهر الفساد فى البر والبحر ، قال ابن الخطيب . وهذا من التوقيع العريق فى الاجادة والصنعة .

وكان مجلس المنصور رحمه الله مجلس الفضلاء والادباء وأرباب المعارف والفنون . حكى أبو الفضل التيفاشى قال : جرت مناظرة بين يدى ملك المغرب يعقوب المنصور ، وكانت بين الفقيه أبى الوليد بن رشد المعروف بالحفيد ، والرئيس الوزير أبى بكر بن زهر بضم الزاى ، وكان الاول قرطبيا ، والثانى اشبيليا ، فقال ابن رشد لابن زهر فى تفضيل قرطبة : « ما أدرى ما تقول غير انه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية »

وهذا الوزير ابن زهر هو أحد أعيان وزراء الدولة الموحدية ، وزر للمنصور

ولابيه من قبله .

قال ابن خلكان : كان ابن زهر من أهل بيت كلهم علماء رؤساء حكماء وزراء ، نالوا المراتب العلية ، وتقدموا عند الملوك . ونفذت أوامرهم ، وكان يتكرر وروده على الحضرة بمراكش فيقيم بها ويرجع الى الاندلس ، ومما قاله بمراكش يتشوق الى ولد له صغير تركه باشبيلية :

ولى واحد مثل فرخ القطا ✭ صغير تخلف قلبى لديه
نأت عنه دارى فياوحشتى ✭ لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوقنى وتشوقته ✭ فيبكى علي وأبكى عليه
لقد تعب الشوق ما بيننا ✭ فمنه الى ومنى اليه

قال العلامة الاديب أبو العباس المقرى فى نفح الطيب : أخبرنى الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة سيدى أبو القاسم بن محمد الوزير الغسانى الاندلسى الاصل ، الفاسى المولد والنشأة ، حكيم حضرة السلطان أبى العباس المنصور بالله السعدى ، ان ابن زهر لما قال هذه الابيات وسمعها يعقوب المنصور رحمه الله أرسل المهندسين الى اشبيلية - يعنى من غير علم من ابن زهر - وأمرهم أن يحيطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته ، ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش ، ففعلوا ما أمرهم به فى أقرب مدة ، وفرشها بمثل فرشه ، وجعل فيها مثل آلاته ، ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه الى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء الى ذلك الموضع فرآه أشبه شىء ببيوته وحارته ، فاحتار لذلك وظن انه نائم وان ذلك أحلام ، فقيل له : ادخل البيت الذى يشبه بيتك ، فدخله فاذا ولده الذى يتشوق اليه يلعب فى البيت ، فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه . « هكذا وإلّا فلا لا » .

ومن أطباء المنصور الوزير الطبيب الشهير أبو بكر بن طفيل من أهل وادى آش ، كان حاذقا بصناعة الطب والجراحات . ومن أطبائه أيضا الحفيد بن رشد المتقدم الذكر . ومن كتابه الكاتب البارع أبو الحسن عبد الملك بن عياش القرطبى النشأة ، اليابورى الاصل . والفقيه البارع أبو الفضل بن طاهر من أهل بجاية ، ومن الفقهاء الذين كانوا يجالسونه ويسامرونه الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجد ، والفقيه القاضى أبو عبد الله بن الصقر ، وغيرهم رحم الله الجميع .

وفاة يعقوب المنصور رحمه الله

قال ابن أبى زرع : لما رجع المنصور من الاندلس الى مراكش أخذ البيعة لولده أبى عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله . فبايعه كافة الموحدين وسائر أهل الامصار والاقطار ، فلما تمت البيعة للناصر المذكور وجلس فى محل الخلافة وجرت الاحكام والاوامر باسمه وعلى يديه فى حياة أبيه دخل المنصور قصره فلزمه .

وقال ابن خلكان : لما وصل المنصور الى مراكش ــ يعنى بعد قدومه من الاندلس ــ أمر باتخاذ الاحواض والروايا وآلات السفر للتوجه الى بلاد افريقية ، فاجتمع اليه مشايخ الموحدين وقالوا له . ياسيدنا قد طالت غيبتنا بالاندلس ، فمنا من له خمس سنين وغير ذلك . فتنعم علينا بالمهلة هذا العام وتكون الحركة فى أول سنة خمس وتسعين وخمسمائة . فأجابهم الى سؤالهم ، وانتقل الى مدينة سلا وشاهد ما فيها من المنتزهات المعدة له .

وكان قد بنى بالقرب من المدينة المذكورة مدينة عظيمة سماها رباط الفتح على هيئة الاسكندرية فى الاتساع وحسن التقسيم واتقان البناء وتحصينه وتحسينه ، وبناها على البحر المحيط الذى هناك ، وهى على نهر سلا مقابلة لها من البر القبلى ، وطاف تلك البلاد وتنزه فيها ثم رجع الى مراكش .

قال ابن خلكان وبعد هذا اختلفت الروايات فى أمره ، فمن الناس من يقول : انه ترك ما كان فيه وتجرد وساح فى الارض حتى انتهى الى بلاد الشرق ، وهو مستخف لا يعرف ومات خاملا ، ومنهم من يقول : انه لما رجع الى مراكش كما ذكرناه توفى فى غرة جمادى الاولى ، وقيل فى ربيع الآخر فى سابع عشره ، وقيل فى غرة صفر ، ولم ينقل شىء من أحواله بعد ذلك الى حين وفاته . وقيل توفى بمدينة سلا .

قال ابن خلكان : ثم حكى لى جمع كثير بدمشق ان بالقرب من المجدل ــ البليدة التى من أعمال البقاع العزيزى ــ قرية يقال لها حمارة ، والى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب ، وكل أهل تلك النواحى متفقون على ذلك وليس عندهم

فيه خلاف ، وهذا القبر بينه وبين المجدل مقدار فرسخين من جهتها القبلية بغرب ، قال : وكان أوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليترحم عليه من يمر به .

قال المقرى فى نفح الطيب : هـذه مقالة عامية لا يثبتها علماء المغرب ، وسبب هذه المقالة تولع العامة به ، فكذبوا فى موته ، وقالوا : انه ترك الملك وحكوا ما شاع الى الآن وذاع مما ليس له أصل ، ثم نقـل عن الشريف الغرناطى مثل ذلك فانظره .

قال مؤلفه عفا الله عنه : وعندى (١) آن إنكار ما حكاه ابن خلكان ليس بجيد ، وهب أن أهل المغرب قالوا ذلك تولعا به فما بال أهل المشرق يتولعون به ويتخذون له المشهد ثم يتفق كبيرهم وصغيرهم على أنه قبر يعقوب ملك المغرب من غير أصل ولا مستند ، هذا بعيد في العادة ، بل لابد أن يكون لذلك أصل والله أعلم بحقيقته . نعم ، ما تزعمه عامة المغرب فى حمة أبى يعقوب التى بقرب مدينة فاس انها منسوبـة ليعقوب المنصور هذا ، وانـه رصد لها عفريتين يوقدان عليها إلى الابد ، وان حرارة مائها بسبب ذلك الايقاد ، وان الشفاء الذى يحصل للمستحمين بها انما هو ببركة يعقوب المنصور ، وجعلوا له زوجة أو بنتا اسمها شافية اشتقاقا من لفظ الشفاء الحاصل بتلك العين كله باطل ، وانما حرارة العين لخاصية أودعها الله فى أصلها ومنبعها ، وكذا الشفاء الحاصل بها انما هو بخاصية فى ذلك الماء . ولعلها ما فيه من الكبريتية ، فانا نرى أصحاب الجرب يلتطخون بالكبريت المعالـج فيشفون ، وكم من عين على وجه الارض فى المشرق المغرب ، وبلاد

---

(١) قول المؤلف وعندى أن إنكار ما حكاه ابن خلكان ليس بجيد الخ فيه نظر لا يخفى على من تتبع أحوال معتقدات العامة فى عظمائها بعد الموت كالشيعة فى أئمتها وغيرهم من الغلاة فى التعظيم لذوى الظهور في السياسة والصلاح ، فقد ذكر المؤلف نفسه أن أصحاب الروكي لا يصدقون بموته ولا زال البعض من أصحاب الكتانى يعتقد حياته ، وكم لهذا فى التاريخ من نظير زد على ذلك أن كـلام مؤرخي المغاربة أولى بالاعتبار فى هذا المقام والحق ما قاله الغرناطي فى شرح المقصورة بعد كلام طويل وكذب الكافة من العامة بوفاته ولهم فى ذلك حكايات يقولونها إلى الآن كلها تخرص وأباطيل اهـ .

المسلمين والكـفار على هذه الحالة كما أخبر بذلك غير واحد .

وقال الجوهرى فى الصحاح الحمة العين الحارة يستشفى بها الاعلاء والمرضى وفى الحديث العـالم كالحمة اه ومثله فى القاموس ، بل ذكـر فيه ان مدينة تفليس ــ وهى قصبة كرجستان عليها سوران ــ قال وحماماتها تنبع ماء حارا بغير نار ،

وقـد ذكر ابن أبى زرع فى القرطاس حمة أبى يعقوب هـذه ، وذكر معها حمتين أخريين فقال : « وبالقرب أيضا من مدينة فاس على مسيرة أربعة أميال منها حمة عظيمة تعرف بحمة خولان ، ماؤها فى أشد ما يكون من السخونة ، وبالقرب أيضا منها حمة وشنانة وحمـة أبى يعقوب وهى من الحمات المشهورة بالمغرب » اه كـلامه فقد ذكر أبا يعقوب بلفظ الكنية فهـو غير يعقوب المنصور قطعا ، ولعله أبو يعقوب الاشقر الآتى ذكره فى احداث المائة السابعة .

ولنرجع الى الكلام على وفاة المنصور عند علماء المغرب فنقول . قال ابن الخطيب فى رقم الحلل : توفى يعقوب المنصور رحمه الله فى الثانى والعشرين من شهر ربيـع الال سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، ودفن بمجلس سكناه من مراكش ، وكذب العامة بموته ولوعا وتمسكا به . فادعوا انه ساح فى الارض اه .

وقال ابن أبى زرع : لما حضرت المنصور الوفاة قال ما ندمت على شيء فعلته فى خلافتي إلّا على ثلاث وددت انى لم أفعلها ، الاولى : ادخال العرب من افريقية الى المغرب مـع انى أعلم انهم أهل فساد . والثانية : بناء رباط الفتح ، أنفقت فيه بيت المـال وهو بعد لا يعمر . والثالثة : اطلاقى أسارى الارك ، ولابد لهم ان يطلبوا بثـارهم .

قلت ما ذكره رحمه الله فى رباط الفتح من انه لا يعمر قد تخلف ظنه فيه ، فهو اليوم من أعمر أمصار المغرب وأحضرها حرسه الله وحرس سـائر أمصار المسلمين من آفات النقصان وطوارق الحدثان .

ولنذكر ما كان في هذه المدة من الاحداث فنقول : فى سنة أربعين وخمسمائة هدم على ابنعيسى بن ميمون ــ وكان من رؤساء البحر فى دولة اللمتونيين ــ صنمقادس ، وقادس هذه هى الجزيرة المسماة فى لسان العامة اليوم بقالص ، وكان بها صنم عظيم على صورة

رجل وبيده مفتاح يقال ان حكماء اليونان اتخذوه طلسما هناك ، كان من خاصيته ان يمنع هبوب الريح فيما جاوره من البحر المحيط . فكانت السفن لاتجرى هناك على ما قيل ، فلما تار ابن ميمون المذكور بالجزيرة المذكورة ظن ان تحت الصنم مالا فهدمه فلم يجد شيأ .

وفى السنة المذكورة توفى أبو على منصور بن ابراهيم المسطاسى دفين آزمور ، وكان كبير الشأن من أهل العلم والعمل ومن أشياخ أبى شعيب السارية .

وفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة توفى الامام الهمام الحافظ البارع أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبى . قال ابن خلكان : توفى بمراكش يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة ، وقيل : فى شهر رمضان من السنة المذكورة ، ودفن بباب آيلان داخل المدينة ، وذلك فى دولة عبد المؤمن بن علي .

وفى سنة تسع وخمسين وخمسمائة توفى الشيخ أبو الحسن على بن اسماعيل بن محمد ابن عبد الله بن حرزهم ، ينتهى نسبه الى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وهو من أهل مدينة فاس ، وبها توفى اخريات شعبان من السنة المذكورة ، وكان فقيها زاهدا صوفيا ، قال أبو الحسن المذكور : « اعتكفت على قراءة الاحياء سنة ، فجردت المسائل التى تنتقد عليه وعزمت على احراق الكتاب ، فنمت فرأيت قائلا يقول : جردوه واضربوه حد الفرية ، فضربت ثمانين سوطا ، فلما استيقظت جعلت اقاب ظهرى ووجدت الالم الشديد من ذلك فتبت الى الله ، ثم تأملت تلك المسائل فوجدتها موافقة للكتاب والسنة » . وقد تقدم لنا ما اتفق له مع السلطان فى جنازة أبى الحكم بن برجان .

وفى سنة إحدى وستين وخمسمائة توفى الشيخ القدوة أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجى الملقب بسارية من أهل مدينة آزمور ، وبها توفى يوم الثلاثاء عاشر ربيع الثانى من السنة المذكورة ، وكان رضى الله عنه شديد المراقبة والورع والخوف من الله تعالى . وكان اذا وقف فى صلاته يطيل القيام ، فلذلك لقب بالسارية ، ونقلت عنه فى الورع والخوف حكايات انظر التشوف .

قال مؤلفه عفا الله عنه كنت زرت ضريح هذا الشيخ سنة ثمانين ومائتين وألف ، ومدحته بقصيدة سلكت فيها مسلك الادباء من النسيب وغيره ، وأنشدتها عند ضريحه

فرأيت لها بركة والحمد لله ، فأحببت أن أذكرها هنا وهى هذه :

لله يا ربع ما هيجت من شجن على الفؤاد ومن ضنى على البدن
وقفت فيك ركابا طالما وقفت على القصور على الاطلال والدمن
أيام فيك حسان ما اشبهها بالشمس حسنا ولا فى اللين بالغصن
وفيك أسد من الملوك عادتها بذل النضار وصون البيض والحصن
يحمون منك عراصا كنت أعهدها مأوى السرور فعادت موقف الحزن
عاثت يد الدهر فيهم منذ أزمنة كأن بأسهم المحذور لم يكن
قوم عرفت نداهم قبل معرفتى نفسى وفاجأنى فى المهد بالمنن
ومذ ترعرعت لم أعاق بغيرهم حتى كأنى رضعت الحب فى اللبن
قضيت حق الشباب فى منازلهم أيامَ عيش لنا أحلى من الوسن
من ظن بالدهر خيرا فهو منخدع فودِّه هدنة تبنى على دخن
لا أنتحى منهلا إلّا شرقت به ولا أحل مكانا ليس بالخشن
ولا أصاحب من هذا الورى بشرا إلّا حصلت على زق من الاحن
حتى توهمت أننى جنيت لهم حرب البسوس واننى أبو الفتن
وما لذى الفضل من ذنب يلام به سوى فضيلته فى دهره الزمن
فعدِّ يا قلب عن شكوى أضيق بها ذرعا فشكواك لي ضرب من الوهن
ولست أحسب هذا الدهر مرعويا ولو تعلقت منه بابن ذى يزن
حلاّ لقد علقت يدى بمن علقت أيدى العفاة به فى الشام واليمن
بأعظم النـاس منزلا ومنزلة وأسمح الناس كفا بالندى الهتن
وأشمخ الناس قدرا فى الورى وعلا وأحكم الناس للمفروض والسنن
ذاك الوليّ الذى كل الأنام غدا يتلو مناقبه فى السرّ والعلن
أبو شعيب الذى من بحره انشعبت جداول اليمن فى الاحياء والمدن
بدر غدا في سماء المجد مكتملا به علا ذكر آزمور فى الوطن
أرض إذا الضرع المحروم يممها ألفى بها بَدل الاهلين والسكن
أود من أجل ثاويها حجارتها وأجعل الترب لي مسكا بلا ثمن

وكيف لا تطبى قلبى منازل من ... به أكون من الاحداث فى جُنن
مُجْلى الغياهب مبذول المواهب مقـ ... ـفوّ المذاهب بالجنيد والقرنى
بحر الحقيقة والغـيث الذى لهجت ... به القبائل فى المقام والظعن
ما زال يرقي الذرى من كل صالحة ... حتى اكتسى شهرة النيران فى القنن
يا خير من أمـه العافى ولاذ به ... أهل الجرائم والاوزار والمحن
انى خدمتك فى شعر عُنيت به ... وليس لولا حلاك الزهر بالحسن
أشكو إليك سقاما أنت مبرئه ... ولست أرجو سواك منه ينعشنى
وشدّ أزرى فإنى كنت معتقدا ... إذا بلغتك قدت الدهر بالرسن
وانظر بفضلك من وافاك معتفيا ... فإن نظرت فكل الخير يشملنى
وأعظم السؤل منك النفس تصلحها ... وطهر القلب مـالأمراض والدرن
وامنحه نورا وتوفيقا ومعرفـة ... أرى بها عملي والبرّ فى قرن
فجد بما رمت من جَدواك يا أملي ... فبحر جودك عذب ليس بالاجن
سقى ضريحك غيث ما يزال به ... بستان أنسك وهو مورق الفنن
بجاه أفضل خلـق الله كلهم ... محمد ذى المزايا الغرّ والمنن
عليـه أزكى صلاة الله ما تليت ... صحف وما نسج القريض ذو لسن
والـآل والصحب والازواج قاطبة ... ومن قفا نهجهم فى كل ما زمن

واعلم ان التعلق بأولياء الله رضى الله عنهم يجب أن يكون مـع استحضار ان الله تعالى هو المطلوب على الحقيقة، والفاعل للاشياء كلها، لا معبود غيره، ولا مرجو سواه، وانما التمسك بأهل الله لاجل التبرك بهم والاستشفاع بهم الى الله تعالى، لانهم أبواب الله والدالون عليه، نفعنا الله بهم وأفاض علينا من مددهم آمين.

وفى سنة تسـع وستين وخمسمائة توفى الشيـخ الفقيه العالم أبو اسحق ابراهيم بن يوسف المعروف بابن قرقول ـ صاحب كتاب مطالع الانوار، الذى وضعه على مثال كتاب مشارق الانوار للقاضى عياض ـ كان من الافاضل، وصحب جماعـة من علماء الاندلس، وتوفى بمدينة فاس يوم الجمعة أول وقت العصر سادس شوال من السنة المذكورة، وكان قد صلى الجمعة في الجامـع ذلك اليوم، فلما حضرته الوفاة تلى سورة

الاخلاص وجعل يكررها بسرعة ، ثم تشهد ثلاث مرات وسقط على وجهه ساجدا فوقع ميتا رحمه الله .

وفى سنة سبعين بعدها توفى الفقيه أبو الحسن على بن عبد الله بن ابراهيم بن محمد الانصارى المعروف بالمتيطى ، ومتيطة قريـة بأحواز الجزيرة الخضراء ، وهو الموثق المشهور ، لازم بمدينة فاس خاله أبا الحجاج المتيطى ، وبين يديه تعلم عقد الشروط ، وله كتاب كبير في الوثائق سماه النهاية والتمام فى معرفة الوثائق والاحكام ، ثم انتقل الى سبتة فاستوطنها ولازم مجالس علمائها بالمناظرة والتفقه ، ومهر فى كتابة الشروط واشتغل بها حتى لم يكن فى وقته أقدر منه عليها ، وكان له فى السجلات اليد الطولى ، وطبع عليها حتى كاد طبعه لا يواتيه فى سواها بل كان طبعه فى ذلك أكثر من فقهه ، ثم ولى القضاء بشريش ، وأصابه خدر لازمـه نحو السنتين ، ثم توفى مستهل شعبان من السنة المذكورة .

وفى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة توفى وحيـد عصره ، وأعجوبة دهره ، الـولى العارف الشيخ أبو يعزى يلنور بن ميمون ، قال قوم : انه من هزميرة ايرجان ، وقيل من بنى صبيح من هسكورة ، مات وقد نيف على المـائة بنحو الثلاثين سنة ، ودفن بجبل إيرجان فى أوائل شوال من السنة المذكورة . كان الشيخ أبو مدين رضى الله عنه يقول: « رأيت أخبار الصالحين من زمن أويس القرنى الى زماننا هذا فما رأيت أعجب من أخبار أبى يعزى » قـال : « ونظرت فى كتب التصوف فما رأيت مثل الاحياء للغزالى » وكان لباس الشيخ أبى يعزى برنسا أسود مرقوعا الى أسفل من ركبتيه ، وجبة من تليس مطرف ، وشاشية من عزف ، وكان يتعيش من نبات الارض ، ولا يشارك النـاس فى معايشهم ، وكان طويلا رقيقا أسود اللون ، وكان إذا جنه الليل دخـل غيضة كثيرة السباع يتعبد فيها ، فـاذا قرب الفجر أعلم أصحابه بـه ، وأحواله رضى الله عنـه وكراماته كثيرة .

وفى سنة ثلاث وسبعين بعدها توفى الشيخ العارف أبو الحسن على بن خلف بن غالب القرشى دفين قصر كتامة ، نشأ بشلب من بلاد الاندلس ، وقرأ بقرطبة ، واستقر آخرا بقصر كتامة وبه توفى فى السنة المذكورة ، وقيـل ان وفاته كانت سنة ثمان وستين

قبل هذا التاريخ والله أعلم. وكان رضى الله عنه متمكنا فى علوم القوم، وكان الاولياء يحضرون مجلسه، وهو من تلامذة أبى العباس بن العريف المتقدم الذكر.

وفى سنة ثمانين وخمسمائة توفى الشيخ أبو عبد الله التاودى المعلم، من أهل مدينة فاس، ومن أصحاب الشيخ ابى يعزى، وكان يعلم الصبيان فيأخذ الاجر من أولاد الاغنياء فيرده على أولاد الفقراء، ومات بفاس فى السنة المذكورة. وهذه النسبة الى بنى تاودى وهى قبيلة بقرب فاس.

وفى سنة احدى وثمانين بعدها توفى الامام المشهور أبو زيد عبد الرحمن بن الخطيب أبى محمد عبد الله بن أحمد السهيلى الخثعمى صاحب كتاب الروض الانف وغيره من التآليف الحسان، وصاحب الابيات المشهورة فى الدعاء وهى :

يا من يرى ما فى الضمير ويسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها ... يا من اليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه فى قول كن ... امنن فان الخير عندك أجمع
ما لى سوى فقرى اليك وسيلة ... فبالافتقار إليك فقرى أدفع
ما لى سوى قرعى لبابك حيلة ... فلئن رددت فأى باب أقرع
ومن الذى أدعو وأهتف باسمه ... ان كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشى لجودك أن تقنط عاصيا ... الفضل أجزل والمواهب أوسع

كان ببلدته سهيل وهى قرية بالقرب من مالقة يتسوغ بالعفاف، ويتبلغ بالكفاف، حتى نمى خبره إلى السلطان بمراكش فطلبه إليها وأحسن إليه، واقبل بوجهه غاية الاقبال عليه. فأقام بها نحو ثلاث سنين، ثم توفى بها يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان من السنة المذكورة، ودفن وقت الظهر خارج باب الرب أحد أبواب مراكش، وكان رحمه الله ضريرا نفعنا الله تعالى به.

وفى سنة تسعين وخمسمائة توفى ولى الله تعالى أبو محمد عبد الحليم بن عبد الله المراسى المعروف بالغماد من صلحاء سلا، كان رحمه الله عبدا صالحا، يدور على المكاتب، ويستوهب الدعاء من الصبيان، ويبكى على نفسه، وله كرامات، وتوفى ببلده المذكور، وقبره معروف ملاصق للمسجد الاعظم قرب بابه الكبير من جهة القبلة.

وفى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة توفى الشيخ أبو يعقوب يوسف بن على المبتلى ، المعدود فى سبعة رجال من صلحاء مراكش . كان رضى الله عنه كبير الشأن ، فاضلا صابرا راضيا على ربه فيما ابتلاه به من داء الجذام ، سقط بعض جسده ذات يوم ، فصنع طعاما كثيرا للفقراء شكرا لله تعالى على ذلك ، وكان يسكن بحارة الجذمى العتيقة قبلى مراكش ، وبها مات فى شهر رجب من السنة المذكورة ، ودفن خارج باب اغمات عند رابطة الغار ، واحتفل الناس لجنازته رضى الله عنه .

وفى سنة أربع وتسعين بعدها توفى الشيخ العارف بالله تعالى ، أبو مدين شعيب بن الحسن الانصارى ، الولى الكبير المشهور . أصله من حصن قطنيانة من عمل اشبيلية ، ثم انتقل الى العدوة فأخذ عن الشيخ ابى الحسن بن حرزهم ، وعن الشيخ ابى يعزى وبه انتفع وعليه تخرج ، وكان الشيخ ابو مدين رضى الله عنه من العارفين الراسخين ، قد خاض من الاحوال بحارا ، ومن المعارف اسرارا ، وجال فى حداثة سنه فى بلاد المغرب من سبتة ومراكش وفاس ، ولازم بفاس الشيخ ابن حرزهم كما قلنا ، ثم سمع بخبر الشيخ ابى يعزى فقصده وأخذ عنه وظهرت عليه بركته .

قال الشيخ أبو مدين : « لما قدمت فاسا لقيت بها الاشياخ ، فسمعت رعاية المحاسبى على أبى الحسن بن حرزهم ، وكتاب السنن للترمذى على أبى الحسن بن غالب ، وأخذت طريقة التصوف على أبى عبد الله الدقاق وأبى الحسن السلاوى » قال : « وكنت أزور الشيخ أبا يعزى مرارا فقال لى جماعة من الفقهاء المجاورين لابى يعزى قد ثبتت عندنا ولاية أبى يعزى ، ولكننا نشاهده يلمس بطون النساء وصدورهن ويتفل عليهن فيبرأن ونحن نرى أن لمسهن حرام ، فان تكلمنا فى هذا هلكنا . وان سكتنا حرنا » ، فقلت لهم : « أرأيتم لو ان ابنة أحدكم أو اخته اصابها داء لا يطلع عليه إلّا الزوج ، ولم يوجد من يعانيه إلّا طبيب يهودى أو نصرانى ، ألستم تجيزون ذلك مع ان دواءه مظنون ، ودواء أبى يعزى أنتم على يقين منه ؟ » فبلغ كلامى أبا يعزى فاستحسنه .

قال محمد بن ابراهيم الانصارى : « خرج الشيخ أبو مدين ألف تلميذ ، وجاءه رجل ليعترض عليه فجلس فى الحلقة فقال له أبو مدين : « لم جئت ؟ » قال . « لأقتبس من نورك » فقال له : « ما الذى فى كمك ؟ » فقال له : « مصحف » فقال له : « افتحه واقرأ

أول سطر يخرج لــك » ففعل ، فخرج له قوله تعالى « الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين » فقال له ابو مدين : « اما يكفيك هذا ؟ » فاعترف الرجل وتاب » وكراماته رضى الله عنه كثيرة .

وكان استوطن فى آخر عمره بجاية ، وكثر عليه الناس ، وظهرت على يده كرامات فوشى به بعض علماء الظاهر عنــد يعقوب المنصور ، وقــال له : « انا نخاف منه على دولتكم ، فان له شبها بالامام المهدى ، واتباعه كثيرون بكل بلد » فوقع منه ذلك ، فكتب لصاحب بجاية يبعثه إليه وأوصاه بالاعتناء به ، وان يحمله إليه خير محمل ففعل .

ولما كان الشيخ ابو مدين رضى الله عنه بالطريق مرض مرض موته ، فلما وصــل وادى يسر قرب تلمسان اشتد به مرضه فنزلوا به هنالك فكان آخر كلامه : الله الحق ، فتوفى ودفن برابطة العباد قرب تلمسان ، وسمع أهــل تلمسان بجنازتــه فحضروها ، وكانت من المشاهد العظيمة .

وفى سنة خمس وتسعين وخمسمائة : توفى الشيخ الفقيه الصالح أبو عبد الله محمــد ابن ابراهيم المهدوى صاحب كتاب الهداية ، أقام نحو اربعين سنة لم تفته صلاة فى جماعة إلّا يوما واحدا لعذر عاقــه عن ذلك ، دخل مدينة فاس ومعه نحو من أربعين الفا من المــال ، فما زال ينفقها فى سبيل الخير حتى لم يبق له إلّا دار سكناه فباعها من بعض اهل فاس واعمره المشترى لها ، فلما خرجت منها جنازته حازها المشترى المذكور ، وكانت وفاته يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الاولى من السنة المذكورة .

واعلم انا قــد قدمنا ان الشيخ ابا مدين كان تلميذا للشيخ ابى يعزى ، وكان الشيخ ابو يعزى تلميذا للشيخ ابى شعيب السارية ، وكان الشيخ ابو شعيب تلميذا للشيخ ابى ينور الدكالى نفعنا الله بجميعهم وأفاض علينا من مددهم آمين .

ولنرجع الى اخبار الدولة الموحدية فنقول .

الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبى عبد الله

محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور بالله

بويع لابى عبد الله محمد الناصر لدين الله فى حياة والده يعقوب المنصور ، ثم جددت له البيعة بعد وفاته وذلك يوم الجمعة الثانى والعشرين من ربيع الاول سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وهو اليوم الذى توفى فيه أبوه . فأقام بمراكش بقية ربيع الاول وجميع الثانى ، ثم نهض فى فاتح جمادى الاولى الى فاس ، فاقام بها بقية السنة المذكورة .

ثم غزا جبال غمارة من أجل علودان الغمارى الثائر بها ففتحها ، ثم رجع الى فاس فأتم بناء سورها الذى كان خربه عبد المؤمن وبنى قصبتها ورتب أمورها . وأقام بها الى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، فعاد الى مراكش وأقام بها الى ان كان ما نذكره .

غزو الناصر بلاد افريقية

وولاية الشيخ أبى محمد بن أبى حفص عليها والسبب فى ذلك

لما هلك المنصور رحمه الله قوى أمر يحيى بن اسحق المسوفى - المعروف بابن غانية بافريقية - واستولى على اعمال قراقوش الغزى صاحب طرابلس . وعلى المهدية ، وتغلب على بلاد الجريد ، ثم نازل تونس سنة تسع وتسعين وخمسمائة وافتتحها عنوة لاربعة أشهر من حصارها فى ختام المائة السادسة ، وقبض على السيد أبى زيد وابنه ومن كان معه من الموحدين ، وطالب أهل تونس بالنفقة التى أنفق . وبسط عليهم العذاب حتى هلك فى الامتحان كثير من بيوتاتهم . ثم دخل فى دعوته أهل القيروان وغيرها من البلاد ، وانتظمت له أعمال افريقية ، وفرق العمال ، وخطب للخليفة العباسى .

واتصل بالناصر وهو بمراكش هذا كله فامتعض لذلك ، وشاور الموحدين فى أمر افريقية ، فأشاروا عليه بمسالمة ابن غانية ، وأشار الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى

حفص بالنهوض اليها والمدافعة عنها ، فعمل على رأيه ، ونهض إليها سنة ستمائة وبعث الاسطول فى البحر لنظر يحيى بن أبى زكريا الهزرجى .

واتصل ذلك بابن غانية فبعث ذخائره وحرمه الى المهدية مع على بن الغانى من قرابته وولاه عليها .

ولما قرب الناصر من افريقية خرج ابن غانية من تونس الى القيروان ، ثم الى قفصة ، واجتمع اليه العرب وأعطوه الرهائن على المظاهرة والدفاع ، وسار الى حامة مطماطة ، ثم الى جبل بنى دمر فتحصن به .

ووصل الناصر الى تونس ، ثم سار فى اتباع ابن غانية الى قفصة ثم الى قابس ، ثم عاد الى المهدية فعسكر عليها ، واتخذ الآلة لحصارها ، وسرح الشيخ أبا محمد عبد الواحد لقتال ابن غانية فى أربعة آلاف من الموحدين سنة اثنتين وستمائة ، فلقيه بجبل تاجورة من نواحى قابس وأوقع به ، وقتل أخاه جبارة بن اسحق ، واستنقذ السيد أبا زيد من معتقله .

وأما الناصر فانه استمر محاصرا للمهدية وبها يومئذ على بن الغانى ، وكان يدعى بالحاج ، وكان شهما محاربا فامتنع على الناصر وأبدى من مكايد الحرب وخدعه ما يقصر عنه الوصف ، وأشجى الموحدين وبالغ فى نكايتهم ، فكانوا يسمونه الحاج الكافر . ثم نزل على الامان وأحسن اليه الناصر احسانا تاما ، وسماه بالحاج الكافى بالياء بدل الراء لما رأى من مراعاته لصاحبه وحسن عهده معه . واستشهد الحاج الكافى هذا فى وقعة العقاب الآتية .

وكان فتح المهدية فى السابع والعشرين من جمدى الاولى سنة ثنتين وستمائة . وولى الناصر عليها محمد بن يغمور الهرغى ، وارتحل عنها فى عشرين من جمدى الثانية ، فدخل تونس غرة رجب وأقام بها بقية السنة . وأكثر التى بعدها .

ولما كان رمضان من سنة ثلاث وستمائة أشاع الناصر الحركة الى المغرب ، واستخلف على افريقية ثقته ووزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص الهنتاتى جد الملوك الحفصيين بعد مراجعة وامتناع .

قال ابن خلدون : امتنع الشيخ أبو محمد الى ان بعث اليه الناصر فى ذلك بابنه يوسف

فأكبر مجيئه وأذعن ، ويقال إن الناصر قال له : « يا أبا محمـــد أنت تعلم ما تجشمناه من المشاق والصوائر فى استنقاذ هـذا القطر ، ولا آمن عليه من عدو متوثب ، ولا يقوم بحمايته إلّا أنا أو أنت ، فامض الى حفظ ممالكنا المغربية وأقيم أنا ، أو أقم أنت وأرجع أنا » . فقنعه الحياء حينئذ وأذعن للاقامة ، واشترط شروطه المعروفة ، وهى ان يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الاحوال ثم يعود الى وطنـه . وأن يحكمه الناصر فيمن يحبسه معه من الجـند ويرضاه من أهل الكفاية ، وأن لا يتعقب أمره فى ولاية ولا عزل ، فقبل الناصر شروطه .

ولما عزم الناصر على النهوض الى المغرب خرج اليه أهل تونس رافعى أصواتهم بين يديه اشفاقا من عود ابن غانية اليهم ، فاستدعى وجوههم وكلمهم بنفسه ، وقال : إنا قـد اخترنا لكم من يقوم مقامنا فيكم وآثرناكم به على شدة حاجتنا اليه وهو فـلان ، فتباشر الناس بولايته . وشيع الناصر الى باجة ورجع واليا على جميع بـلاد افريقية ، واستقل بأمرها ونهيها .

فمن هنا ورثت الملوك الحفصيون سلطنة تونس وافريقية ، وقفل الناصر الى المغرب فدخل مراكش فى ربيع سنة أربع وستمائة . ولما استقر بالحضرة وفـدت عليه الوفود ، وهنأته الشعراء بالفتح . فكان من ذلك ما أنشده ابن مَرْج الكُحْل وهو قوله :

ولمـا توالى الفتح من كل وجهة ✯ ولم تبلغ الاوهام فى الوصف حده
تركنا أمير المؤمنـين لشكره ✯ بما أودع السر الالهى عـنـده
فـلا نعمة إلّا تؤدى حقوقهـا ✯ عـلامته بالحمـد لله وحــده

فاستحسن الكتاب منه ذلك ووقـع أحسن موقـع ، وأشار بذلك الى العلامة السلطانية عند الموحدين . فانها كانت ان يكتب السلطان بيده بخط غليظ فى رأس المنشور: الحمد لله وحده ، وقـد تقدم ذلك والله أعلم .

فتـــح جزيرة ميورقـــة

كانت جزيرة ميورقة لبني غانية المسوفيين من عهد علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني ، وكان يعقوب المنصور قد بعث إليها اسطوله مرارا فامتنعت عليه ، ولما ولي ابنه الناصر وغزا افريقية وجه إليها من ثغر الجزائر اسطولا مع عمه السيد أبي العلاء ، والشيخ أبي سعيد بن أبي حفص فنازلوها ثم اقتحموها عنوة ، وقتلوا صاحبها عبد الله بن اسحق المسوفي .

وانصرف السيد إلى مراكش بعد أن ولي عليها عبد الله بن طاع الله الكومي ، ووفد أهلها على الناصر فأكرم وفادتهم . وولي القضاء عليهم الفقيه الجليل المحدّث أبا محمد عبد الله بن سليمان الانصاري المعروف بابن حوط الله ، ذكره ابن الخطيب في الاحاطة فقال : « كان مشهورا بالعقل والفضل ، معظما عند الملوك معلوم القدر لديهم ، يخطب في مجالس الامراء والمحافل الجمهورية مقدما في ذلك ، ذا بلاعة وفصاحة إلى أبعد مضمار . ولي قضاء اشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة وسلا وميورقة فتظاهر بالعدل ، وعرف بما أبطن من الدين والفضل ، وكان من العلماء العاملين ، مجانبا لأهل البدع والاهواء ، بارع الخط ، حسن التقييد إلى غير ذلك .

ثم ولي الناصر على ميورقة عمه السيد أبا زيد ، وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر وبعد السيد أبي زيد وليها السيد أبو عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ، ثم أبو يحيى بن علي بن أبي عمران التينملي ، ومن يده أخذها النصارى سنة سبع وعشرين وستمائة وكان الحادث بها عظيما .

ثورة ابن الفرس وما كان من أمره

كان عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس من طبقة العلمـــاء بالاندلس ، ويعرف بالمهر ، وحضر مجلس يعقوب المنصور فى بعض الايام وتكلم بما خشى عاقبته فى عقده ، فخرج من المجلس واختفى مدة ، ثم بعد مهلك المنصور ظهر فى بــلاد جزولة وانتحل الامامة ، وادعى انه القحطانى المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه يملأها عدلا كما ملئت جورا الحديث .
وكان مما نسب إليه من الشعر قوله :

قولا لابناء عبد المؤمن بن على * تأهبوا لوقوع الحـادث الجلل
قـــد جاء سيد قحطان وعالمها * ومنتهى القـــول والغلاب للدول
والناس طوع عصاه وهو سائقهم * بالأمر والنهي بحر العلم والعمل
وبادروا أمـــره فـــالله ناصره * والله خادع اهل الزيـــغ والميـــل

فبعث الناصر اليه الجيوش فهزموه ، وقتـــل وسيق راسه الى مراكش فصلب بهــا وسكنت الفتنة .

وقـــد ثار أيضا فى سنة ستمائة رجل من آل البيت من العبيديين واسمه محمد بن عبد الله بن العاضد ــ وهذا العاضد هو آخر خلفاء الشيعة بمصر ــ فثار حافده محمـــد بن عبد الله المذكور بجبال ورغة من احواز فاس ، فظفر به وقتل وعلق راسه بباب الشريعة أحـــد أبواب فاس ، وأحرق جسده فى وسط الباب المذكور ، وكان ذلك فى اليوم الذى كمل فيه بناء سور فاس وبناء الباب المذكور ، وركبت مصارعه فسمى الباب باب المحروق بعد ان كان يسمى باب الشريعة .

ثم فى سنة عشر وستمائة ثار ولد هذا المحروق بجبال غمارة وادعى أنه الفاطمى ، وتابعه خلق كثير من أهل الجبل والبادية ، فبعث اليه الناصر جيشا فظفر به وقتـــل .

وفى سنة احدى وستمائة بنى عامل الريف من قبل الناصر ــ واسمه يعيش ــ سور بادس وكدية وءمليلة حياطة وتحصينا من فجأة العدو .

وفى سنة أربع وستمائة أمر الناصر بتجديد سور مدينة وجدة واصلاحها ، فشرع فى ذلك فى فاتح رجب من السنة المذكورة .

وفيها أيضا أمر الناصر بناء دار الوضوء والسقاية بازاء جامع الاندلس بفاس ، فبنيت وجلب اليها الماء من العين التى خارج باب الحديد ، وأمر ببناء الباب الكبير المدرج الذى بحصن الجامع المذكور وأنفق فى ذلك كله من بيت المال .

وفيها أيضا أمر ببناء مصلى القرويين . وأمر أن لا يصلى بمصلى الاندلس ، فاقام الناس يصلون بعدوة القرويين ثلاث سنين ثم عادوا يصلون بالاندلس والقرويين معا ، كما كانوا أولا بعد أن شهد أنها قديمة .

وفى شوال من السنة المذكورة نهض الناصر من فاس الى مراكش فاقام بها الى ان كان ما نذكره .

غزوة العُقاب التى محص الله فيها المسلمين

ثم اتصلت الاخبار بالناصر وهو بمراكش أن الفنش لعنه الله قد استطال على ثغور المسلمين بالاندلس ، وأنه يغير على قراها وينتهب الاموال ويسبى النساء والذرية ، فأهمه ذلك واقلقه وكتب الى الشيخ ابى محمد عبد الواحد بن ابى حفص صاحب افريقية يستشيره فى الغزو ، فأبى عليه فخالفه وأخذ فى الحركة للجهاد .

وكان الناصر معجبا برأيه ، مستبدا بأموره ، ففرق الاموال على القواد والاجناد ، وكتب الى جميع بلاد افريقية والمغرب وبلاد القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار فأجابه خلق كثير ، وألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجل تخرج للجهاد ، فقدمت عليه الجيوش من سائر الاقطار ، وتسارع الناس اليه خفافا وثقالا من البوادى والامصار .

فلما تكاملت لديه الحشود وتوافت بحضرته الجنود خرج من مراكش فى تاسع عشر شعبان سنة سبع وستمائة ، فانتهى الى قصر المجاز فأقام به وشرع فى إجازة

الجيوش من أوائل شوال الى أواخر ذى القعدة من السنة المذكورة ، ثم عبر فى آخرهم واحتل بطريف يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذى القعدة المذكور ، فتلقاه هنالك قواد الاندلس وفقهاؤها ورؤساؤها ، وأقام بطريف ثلاثا ، ثم نهض الى اشبيلية فى أمم لا تحصى ، وجيوش لا تستقصى ، قد ملأت السهل والوعر .

حكى بعض الثقات من مؤرخى المغرب أنه اجتمع مع الناصر فى هذه الغزوة من أهل المغرب والاندلس ستمائة ألف مقاتل . وكان الناصر رحمه الله قد أعجبه ما رأى من كثرة جنوده ، وأيقن بالظفر . فقسم الناس على خمس فرق ، فجعل العرب فرقة ، وزناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر أصناف قبائل المغرب فرقة ، وجعل المتطوعة فرقة ، وجعل جند الاندلس فرقة ، والموحدين فرقة ، وأمر كل فرقة ان تنزل ناحية ، واهتزت جميع بلاد الفرنج لجوازه ، وتمكن رعبه من قلوبهم ، فأخذوا فى تحصين بلادهم واخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم . وكتب اليه أكثر أمرائهم يسألونه السلم ويطلبون منه العفو ، ووفد عليه منهم ملك يبلونة مستسلما خاضعا طالبا للصلح ، فيقال انه قدم بين يديه كتاب النبى صلى الله عليه وسلم الذى كتبه الى هرقل ملك الروم يستشفع به . وقد كان هذا الكتاب وقع اليه وراثة من بعض سلفه ، فاحتفل الناصر لقدومه ، وصف له الجيوش من باب مدينة قرمونة الى باب اشبيلية أربعين ميلا ، ثم عقد له الصلح ما دامت دولة الموحدين ، وصرفه الى بلاده مكرما مسعفا بجميع مطالبه .

وعند ابن خلدون أن الذى وفد على الناصر فى هذه الغزوة هو البيبوج أحد الملوك الثلاثة الذين شهدوا وقعة الارك . قال : وهو الذى مكر بالناصر يوم العُقاب ، قدم عليه وأظهر له التنصح وبذل له أموالا ، ثم غدر به وجر عليه الهزيمة والله أعلم .

ثم خرج الناصر من اشبيلية غازيا بلاد قشتالة فى أوائل صفر سنة ثمان وستمائة ، فسار حتى نزل حصن سلبطرة وهو حصن منيع وضع على قنة جبل ، وقد تعلق باكناف السحاب ليس له مسلك إلا من طريق واحد فى مضائق وأوعار ، فنزل عليه الناصر وأدار به الجيوش ، ونصب عليه أربعين منجنيقا فهتك أرباضه ، ولم يقدر منه على شيء .

قالوا : وكان وزيره أبو سعيد بن جامع قد تمكن من الناصر ، فاقصى شيوخ

الموحدين وأعيانهم وذوى الحنكة والرأى منهم عن بساطه ، وانفرد هو به فكان يشير على الناصر فى غزوته هذه بآراء كانت سبب الضعف والوهن ، وجلبت الكرة على المسلمين من ذلك أن الناصر لما أعياه أمر الحصن عزم على النهوض عنه الى غيره ، فأشار عليه ابن جامع بأن لا يتجاوزه حتى يفتحه ، فيقال إنـه أقام على ذلك الحصن ثمانية أشهر فنيت فيها أزواد النـاس ، وقلت علوفاتهم ، ونفدت نفقـاتهم ، وكلت عزائمهم . وفسدت نياتهم ، وانقطعت الامداد عن المحلة فغلت بها الاسعار ، ودخل فصل الشتاء فاشتد البرد وأصاب المسلمين كل ضر ، ويقال إنـه من طول مقـام الناصر على ذلك الحصن عشش خطاف فى جانب خبائه وباض وأفرخ وطارت فراخه وهو مقيم على حاله .

واتصـل بالفنش لعنه الله ما آل اليه أمر المسلمين من الضجر وقلة المادة وتشوش البواطن واختلاف الرأى ، فاغتنم الفرصة وبعث الحـاشرين فى مدائنه ودعـا كل من قدر على حمل السلاح من رعيته ، فاجتمع له من ذلك ما لا حصر له .

ثم خالف الناصر الى قلعة رباح فنازلها ، وبها يومئذ أبو الحجاج يوسف بن قادس من قواد الاندلس وزعمائها ، كان قد ترتب فى ذلك الحصن فى جماعة من الحيل لحمايته وضبطه ، فحاصره الفنش وبالغ فى التضييق عليه ، فكان ابن قادس يكتب لامير المؤمنين الناصر يعلمه بحاله ويستمده على عدوه ، وهو على حصن سلبطرة ، فكان الوزير ابن جامع اذا وصلت اليه كتب ابن قادس أخفاها عن النـاصر لئلا يرحل عن الحصن قبل فتحه ، فلما طال الحصار على ابن قادس وفنى ما عنده من الاقوات والسـلاح ويئس من امداد الناصر اياه وخشى على من فى الحصن من النساء والذرية صالح الفنش على تسليم الحصن له وخروج المسلمين آمنين على أنفسهم ، ففعل ، واستولى الفنش على قلعة رباح .

وسار ابن قادس الى الناصر ليجتمع به ويعلمه بالامر على وجهه ، وسار معه صهر له بعد ان عزم ابن قادس عليه أن يرجع فأبى ، وقال : إن قتلت قتلت معك ! ولما وصل الى الوزير ابن جامع أمر بحبسه وحبس صهره معه ، ثم دخل على الناصر فقال له . ان ابن قادس قد دفع الحصن الى العدو ثم قدم عليك وأراد الدخول عليك .

وكان الناصر قد تغير باطنه على أهل الاندلس ، واتهمهم بـكتمان أمر العدو عنه حين كان بمراكش ، فلما قدم ابن قادس فى هذه المرة وقال له ابن جامع ما قال أمر بقتله

فقتل هو وصهره قصعا بالرمـاح رحمهما الله . فحقدت جيوش الاندلس على ابن جامـع وفسدت نياتهم على الناصر ، وأحس ابن جامـع بذلك فأمر بإحضار قوادهم فحضروا بين يديه . فقال اعتزلوا جيش الموحدين فلا حاجة لنا بكم كما قال الله تعالى : لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلّا خبالا . وسننظر بعد هذا فى أمر كل فاجر .

ولما علم الناصر بحال الفنش وما هو عليه من القوة و كثرة الجموع واستيلائه على قلعة رباح التى هى أمنع ثغور المسلمين شق ذلك عليه ، وامتنع من الطعام والشراب حتى مرض من شدة الوجد ، ثم شدد فى قتال سلبطرة وبذل الاموال الجليلة حتى فتحها صلحا وذلك فى أواخر ذى الحجة من سنة ثمان وستمائة ، ثم زحف الفنش الى الناصر ونهض الناصر اليه فالتقى الجمعان بموضع يعرف بحصن العقبان ، فضرب المصاف وضرب للناصر قبته الحمراء المعدة للقتال على رأس ربوة ، وقعد أمامها على درقته وفرسه قائم بازائـه ، ودارت العبيد بالقبه من كل ناحية ومعهم السلاح التام ، ووقفت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد مـع الوزير ابن جامع ، وأقبلت جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المنتشر ، فتقدمت اليهم المتطوعة وحملوا عليهم أجمعون وكانوا مائـة وستين ألفا ، فغابوا فى صفوفهم وانطبقت عليهم جموع الفرنج فاقتتلوا قتالا شديـدا فاستشهد المتطوعة عن آخرهم ، هـذا وعساكر الموحدين والعرب والاندلس ينظرون اليهم لم يتحرك اليهم منهم أحد .

ولما فرغ الفرنـج من المتطوعة حملوا بأجمعهم على عساكر الموحدين والعرب حملة منكـرة . فلما انتشب القتـال بين الفريقين فرت قواد الاندلس وجيوشها لما كانوا قد حقدوه على ابن جامع فى قتل ابن قادس أولا ، وتهديدهم وطرده لهم ثانيا ، فجروا الهزيمة على المسلمين ولا حول ولا قوة إلّا بالله . وتبعهم قبـائل البربر والموحدون والعرب ، وركبتهم الفرنج بالسيف وكشفوهم عن الناصر حتى انتهوا الى الدائرة التى دارت عليه من العبيد والحشم ، فألفوها كالبنيان المرصوص لم يقدروا منها على شىء ، ودفع الفرنج بخيلهم المدرعة على رماح العبيد وهى مشرعة اليهم فدخلوا فيها والناصر قاعد على درقته أمام خبائه يقول : «صدق الرحمن وكذب الشيطان» حتى كادت الفرنج تصل اليه ، وحتى قتل حوله من عبيد الدائرة نحو عشرة آلاف ، ثم أقبل اليه بعض فرسان العرب على فرس

له اشى فقال له : الى متى قعودك يا أمير المؤمنين وقد نفذ حكم الله وتم أمره وفنى المسلمون ؟ فعند ذلك قام الناصر الى جواد له سابق كان أمامه فأراد ان يركبه فترجل العربى عن فرسه وقال له : اركب هذه الحرة فانها لاترضى بعار ، فلعل الله ينجيك عليها فإن فى سلامتك الخير كله . فركبها الناصر ، وركب العربى جواده ، وتقدم امامه فى كبكبة عظيمة من العبيد محيطة بهم ، والفرنج في اعقابهم تقتلهم ونادى منادى الفنش يومئذ : ألا لا أسر إلّا القتل ، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره ، فحكمت سيوف الفرنج فى المسلمين الى الليل .

وكانت هذه الرزية العظيمة يوم الاثنين خامس عشر صفر سنة تسع وستمائة . فذهبت قوة المسلمين بالمغرب والاندلس من يومئذ ولم تنصر لهم بعدها راية مع الفرنج الى أن تدارك الله رمق الاندلس بالسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المرينى رحمه الله كما سنقص خبر ذلك مستوفى عند الوصول اليه ان شاء الله .

قال ابن الخطيب : لما لحق الناصر باشبيلية حمل السيف على طائفة كبيرة ممن توجهت اليهم الظنة . وقال ابن خلدون : ثم رجعت الفرنج الى الاندلس بعد الكائنة للاغارة على بلاد المسلمين ، فلقيهم السيد ابو زكريا بن ابى حفص بن عبد المؤمن قريبا من اشبيلية فهزمهم ، وانتعش المسلمون بها واتصلت الحال على ذلك .

وفاة الناصر رحمه الله

قال ابن ابى زرع . لما قدم الناصر الى مراكش منصرفا من وقعة العُقاب اخذ البيعة لولده يوسف الملقب بالمنتصر ، فبايعه كافة الموحدين ، وخطب له على جميع منابر المغرب والاندلس فى العشر الاواخر من ذى الحجة سنة تسع وستمائة .

ولما تمت له البيعة دخل الناصر قصره واحتجب فيه عن الناس وانغمس فى لذاته مصطبحا ومغتبقا الى شعبان من سنة عشر وستمائة فمات مسموما بتدبير وزرائه عليه فى ذلك ، قال . وكانت وفاته يوم الاربعاء الحادى عشر من شعبان المذكور .

وقال ابن خلكان : تقول المغاربة ان الناصر رحمه الله كان قد أوصى الى عبيده المشتغلين بحراسة بستانه بمراكش ان كل من ظهر لهم بالليل فهو مباح الدم لهم ، ثم أراد أن يختبر قدر امره عندهم فتنكر وجعل يمشى فى البستان ليلا فعند ما رأوه جعلوه غرضا لرماحهم ، فجعل يقول : أنا الخليفة أنا الخليفة ، فما تحققوه حتى فرغوا منه والله أعلم بصحة ذلك .

قلت : الصحيح فى وفاة الناصر ما ذكره الوزير ابن الخطيب فى رقم الحلل قال : « ثم صرف الناصر وجهه الى غزو الاندلس فى عزم لم يبلغ اليه ملك قبله ، ولما احتل رباط الفتح من سلا نزل به الموت فتوفى فى ليلة الثلاثاء عاشر شعبان سنة عشر وستمائة فانحل العزم وتفرقت الجموع (١) والبقاء لله وحده .

---

(١) وذكر صاحب كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب وهو أبو محمد عبد الواحد المراكشى أنه اختلف فى سبب وفاته وأصح ما بلغه فى ذلك أنه أصابته سكتة من ورم فى دماغه وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان فأقام ساكتا لا يتكلم يوم السبت والاحد والاثنين والثلاثاء وأشار عليه الاطباء بالفصد فأبى ذلك وتوفى يوم الاربعاء لعشر خلون من شهر شعبان من سنة ٦١٠ ودفن يوم الخميس ، صلى عليه خاصة الحشم اه .

الخبر عن دولة أمير المؤمنين يوسف المنتصر بالله

ابن الناصر بن المنصور رحمه الله

لما هلك محمد الناصر لدين الله بويع ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب المنصور وهو ابن ست عشرة سنة ، ولقب بالمنتصر بالله ، وغلب عليه الوزير أبو سعيد ابن جامع ومشيخة الموحدين ، فقاموا بأمره ، واستبدوا عليه ، وتأخرت بيعة الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص من افريقية لصغر سن المنتصر ، ثم وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع وصاحب الاشغال عبد العزيز بن أبي زيد فوصلت بيعته حينئذ ، واشتغل المنتصر عن تدبير الامر والجهاد بما يقتضيه الشباب .

وعقد للسادات على عمالات ملكه ، فعقد للسيد أبي ابراهيم اسحق بن يوسف بن عبد المؤمن — ويلقب بالظاهر — على فاس وأعمالها ، وهو اخو المنصور ووالد عمر المرتضى الآتي ذكره . وعقد لعمه السيد أبي اسحق بن المنصور على اشبيلية وما اضيف اليها ، ولعمه أبي عبد الله محمد بن المنصور على بلنسية وشاطبة وأعمالهما ، ولعمه أبي محمد عبد الله ابن المنصور على مرسية ودانية وأعمالهما . وبعث معه الشيخ ابا زيد بن يرجّان وكان من أشياخ الموحدين ودهاتهم

وفي دولة المنتصر هذا فشل أمر الموحدين وذهبت ريحهم ، وأشرفت دولتهم على الهرم ، واستولى الفنش على المعاقل التي أخذها المسلمون ، وهزم حامية الاندلس في كل جهة ، واستبدت السادة بالاطراف ، والتاثت الامور بالاندلس والمغرب أجمع . أما الاندلس فبتكالب العدو عليها وفناء حماتها ؛ وأما المغرب فبخلاء كثير من قراه وأمصاره من وقعة العقاب .

ثم ظهرت بنو مرين بجهة فاس سنة ثلاث عشرة وستمائة . وكانوا موطنين بصحراء فيجيج وما والاها ، فاقتحموا المغرب في هذه السنين لخلائه من الحامية ، واكتسحوا بسائطه بالغارات ، وانحازت رعاياه الى المعاقل والحصون . وكثرت الشكايات بهم الى المنتصر ، وهو مقيم بمراكش ، فكتب الى السيد أبي ابراهيم صاحب

فاس يأمره بغزوهم ، فخرج اليهم وهم ببلاد الريف ، فأوقعوا بـه وقعة شنعاء كانت باكورة فتحهم ، وعاد السيد مفلولا الى فاس ، وأصحابه عراة بين يديه يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف بالمشعلة ، فسميت السنة سنة المشعلة ، وكانوا قد أسروا السيد أبا ابراهيم ثم عرفوه فأطلقوه . ثم صمدت بنو مرين بعدها الى تازا ففلوا حاميتها ، وعظمت شوكتهم بالمغرب على ما نذكره بعد ان شاء الله .

وفى سنة أربع عشرة وستمائة هزم المسلمون بقصر أبى دانس من الاندلس ، وهى من الهزائم الكبار التى تقرب من هزيمة العقاب ، لان العدو كان قد نزل قصر أبى دانس وحاصره ، فخرج اليه جيش اشبيلية وجيش قرطبة وجيش جيان وحشود بلاد غرب الاندلس لاستنقاذ قصر أبى دانس ، وكان ذلك بأمر المنتصر ، فساروا يؤمون العدو ، فلم تقع عينهم على عينه إلّا وقد خامر قلوب المسلمين الرعب وولوا الادبار لما كان قد رسخ فى نفوسهم من بأسه يوم العقاب ، فتكالب العدو بعدها على المسلمين وتمرس بهم وهان عليه أمرهم ، وخشعت نفوسهم له . ولما فروا منه فى هذه الخرجة ركبهم بالسيف وقتلهم عن آخرهم ، ورجع الفنش الى قصر أبى دانس فحاصره حتى اقتحمه عنوة وقتل جميع من به من المسلمين .

وفى سنة ثمان عشرة وستمائة توفي صاحب افريقية الشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن أبى حفص ، فبايع الموحدون بافريقية ابنه أبا زيد عبد الرحمن ، فقام بالامر وأطفأ النائرة ، وأفاض العطاء ومهد النواحى ورتب الامور حتى ورد كتاب المنتصر من مراكش لثلاثة أشهر من ولايته بتأخيره وتولية السيد أبى العلاء الاكبر مكانه ، وهو ادريس ابن يوسف بن عبد المؤمن . فقدم افريقية فى ذى القعدة سنة ثمان عشرة وستمائة ، ووالى الهزائم على ابن غانية الثائر بافريقية حتى شرده الى الصحراء ، وأبو العلاء هذا هو الذى بنى البرجين اللذين على باب المهدية وحصنهما ، وهو الذى بنى برج الذهب باشبيلية أيام ولايته عليها فى دولة أبيه ، وأقام أبو العلاء بافريقية الى ان توفى بتونس منها فى شعبان سنة عشرين وستمائة .

واستولى على افريقية بعده ابنه أبو زيد بن ادريس ، وساءت سيرته فى الناس ، وأقام على ذلك الى دولة العادل عبد الله بن المنصور صاحب مراكش فعزله وولى

مكانه عبد الله بن عبد الواحد بن أبى حفص .

ثم غلب عليه أخوه أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص ، وتداول ملك افريقية بنوه من بعده ، واستبدوا بها واقتطعوها عن نظر بنى عبد المؤمن أصحاب مراكش ، فلم تعد اليهم بعد .

وأما يوسف المنتصر فإنه استمر مقيما بمراكش على لذاته إلى أن توفى ، وكان من خبر وفاته أنه كان مولعا باتخاذ الحيوان واستنتاجه ، فكان يؤتى اليه بأصناف البقر من الاندلس فيرسلها فى بستانه الكبير من حضرة مراكش ، ويحمل بعضها على بعض للتناسل . فخرج ذات يوم للتطوف على تلك البقر والنظر اليها ، فتوسط قطيعا منها وقد ركب فشيا فانكرته بقرة شرود كانت في ذلك القطيع فطعنته فى صدره طعنة أتت عليه من حينه ، وذلك فى عشى يوم السبت الثانى عشر من ذى الحجة سنة عشرين وستمائة ولم يخلف إلّا حملا من جارية له .

قال ابن خلكان : لم يكن فى بنى عبد المؤمن أحسن وجها من المنتصر ، ولا أبلغ فى المخاطبة ، إلّا انه كان مشغوفا براحته ، فلم يبرح عن حضرته فضعفت الدولة فى أيامه والله تعالى أعلم .

الخبر عن دولة أمير المؤمنين عبد الواحد المخلوع ابن يوسف ابن عبد المؤمن رحمه الله

لما هلك المنتصر فى التاريخ المتقدم اجتمع الوزير ابن جامع والموحدون وبايعوا للسيد أبى محمد عبد الواحد بن يوسف وهو أخو المنصور .

قال ابن أبى زرع . بايعوه على كره منه بقبة المنصور من قصبة مراكش وهو يومئذ فى سن الشيخوخة ، وكان عالما فاضلا متورعا ، فاستقام له الامر نحو شهرين ، وخطب له فى جميع أعمال الموحدين ما عدا مرسية . فإن ابن أخيه السيد أبا محمد عبد الله بن المنصور الملقب بالعادل كان واليا عليها ، وكان وزيره بها الشيخ أبا زيد بن يرجان المعروف

بالاصفر . وكان من دهاة الموحدين ، وكان المنصور رحمه الله إذا رآه يستعيذ بالله من شره . ويقول ما دا يجرى على يديك من الفتن يا أصفر . وكان من خبره انه لما بويع المخلوع أمر باطلاق ابن يرجان لانه كان محبوسا على ما عند ابن خلدون ، فأطلق ثم صده ابن جامع عن ذلك ، وأنفذ أخاه أبا اسحق فى الاسطول ليغربه الى ميورقة ، فلاذ ابن يرجان حينئذ بعبد الله بن المنصور صاحب مرسية ، ونزل منه منزلة الوزير وأغراه بالتوثب على الامر ، وشهد له انه سمع من المنصور رحمه الله العهد له بالخلافة من بعد الناصر . وقال له فيما قال : إنك أحق بالخلافة من عبد الواحد ، أنت ولد المنصور وأخو الناصر وعم المنتصر ، ولك الرأى وحسن السياسة والحزم ، ولو دعوت الموحدين الى بيعتك لم يختلف عليك اثنان .

وكان الناس على كره من ابن جامع وولاة الاندلس يومئذ كلهم بنو المنصور ، فاصغى اليه عبد الله هذا ، وكان مترددا فى بيعة عمه ، فبرز الى مجلس حكمه ، واستدعى من بمرسية وأعمالها من الموحدين والفقهاء والاشياخ فدعاهم الى بيعته ، فبايعوه وتسمى بالعادل ، وكان اخوته أبو العلاء الاصغر صاحب قرطبة وأبو الحسن صاحب غرناطة وأبو موسى صاحب مالقة فبايعوه سرا . وكان أبو محمد بن أبى عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن المعروف بالبياسى صاحب جيان وقد عزله المخلوع بعمه أبى الربيع بن أبى حفص فانتقض وبايع للعادل ، وزحف مع أبى العلاء صاحب قرطبة وهو أخو العادل الى اشبيلية وبها عبد العزيز أخو المنصور والمخلوع ، فدخل فى دعوتهم ، وامتنع السيد أبو زيد بن أبى عبد الله أخو البياسى عن بيعة العادل وتمسك بطاعة المخلوع ، وخرج العادل من مرسية الى اشبيلية فدخلها مع أبى زيد بن يرجان ، وبلغ الخبر الى مراكش فاختلف الموحدون على المخلوع ، وبادروا بعزل ابن جامع وتغريبه الى هسكورة لكراهيتهم له ، وجرت خطوب أفضت الى خلع عبد الواحد وقتله .

وفى القرطاس : ان عبد الله العادل كتب الى أشياخ الموحدين الذين بحضرة مراكش يدعوهم الى بيعته وخلع عبد الواحد ، ووعدهم على ذلك الاموال الجزيلة والمنازل الرفيعة والولايات الجليلة ، فسارعوا الى ذلك ، ودخلوا على عبد الواحد وتهددوه بالقتل إلّا أن يخلع نفسه ويبايع للعادل ، فأجابهم إلى ذلك ، فخرجوا عنه ، ووكلوا بالقصر

من يحفظه ، وكان ذلك يوم السبت الحادى والعشرين من شعبان سنة احدى وعشرين وستمائة .

فلما كان يوم الاحد بعده دخلوا على عبد الواحد القصر وأحضروا القاضى والفقهاء والاشياخ فأشهد على نفسه بالخلع وبايع للعادل . ثم دخلوا عليه بعد مضى ثلاث عشرة ليلة من خلعه فخنقوه حتى مات ، وانتهبوا قصره واستولوا على أمواله وحريمه ، فكان عبد الواحد هذا أول من خلع وقتل من بنى عبد المؤمن . وصار أشياخ الموحدين لخلفائهم كالاتراك لبنى العباس ، فكان فعلهم ذلك سببا لذهاب ملكهم وانقراض دولتهم . والله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وكانت وفاة عبد الواحد المخلوع خامس رمضان المعظم سنة احدى وعشرين وستمائة .

الخبر عن دولة أبى محمد عبد الله العادل ابن المنصور رحمه الله

بويع له البيعة الاولى بمرسية من بلاد الاندلس منتصف صفر سنة احدى وعشرين وستمائة ، وتلقب بالعادل فى أحكام الله ثم خلص له الامر وبايعه كافة الموحدين ، وخطب له بحضرة مراكش أواخر شعبان من السنة المذكورة .

وتوقف عن بيعته السيد أبو زيد بن أبى عبد الله أخو البياسى كما ذكرنا آنفا ، وكان واليا على بلنسية وشاطبة ودانية ، ولما رأى السيد أبو محمد البياسى أخاه السيد أبا زيد توقف عن بيعة العادل وضبط بلاده ثار هو ببياسة وما انضاف اليها من قرطبة وجيان وقيجاطة وحصون الثغر الاوسط وتلقب بالظافر . وانما دعى البياسى لقيامه من بياسة ، فوصلت بيعة الموحدين من مراكش الى العادل ومعها كتاب أبى زكريا يحيى ابن الشهيد شيخ هنتاتة بقصة المخلوع وما كان من أمره ، فصادف وصولها هيجان هذه الفتنة فشغل العادل بها عن مراكش ، وبعث أخاه السيد أبا العلاء الاصغر وهو ادريس ابن المنصور فى جيش كثيف الى البياسى فحاصره ببياسة . ولما اشتد عليه الحصار أظهر الطاعة والانقياد وبايع للعادل حتى اذا أفرج عنه أبو العلاء عاد الى النكث . وبعث الى

الفنش يستنصره على العادل ، وضمن له ان ينزل له عن بياسة وقيجاطة ، فكان أول من سن إعطاء الحصون والبلاد للفرنج . فوجه اليه الفنش بجيش من عشرين ألفا . ولما توافت لديه جموع الفرنج نهض من قرطبة يريـد اشبيلية حتى اذا دنا منها خرج اليه السيد أبو العلاء الاصغر - وهو الذى دعى بعد بالمأمون - فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم السيد أبو العلاء واستولى البياسى والفرنج على محلـته بما فيها من أثاث وسلاح ودواب وغير ذلك .

ولمـا رأى العادل مـا وقع بأخيه وجنده خشى أن يتفاقم داء البياسى ويمتد عباب فتنته الى مراكش . فترك أخاه أبا العلاء قبالته وعبر البحر الى العدوة . ولما احتل بقصر المجاز دخل عليه عبد الله بن عبد الواحد بن أبى حفص المدعو بعبوا فقال له العادل كيف حالك ؟ فأنشده :

حال متى علم ابن منصور بها * جاء الزمان الى منها تائبا

فاستحسن ذلك منه وولاه افريقية . وهذا البيت لابى الطيب المتنبى ، وانما تمثل به عبوا لموافقة اسم منصور فيه لاسم والد العادل فحسن التمثيل به .

وانتهى العادل فى سيره الى سلا فأقام بها وبعث عن شيوخ جشم عرب تامسنا ، وكان لابن يرجان عناية واختصاص بهلال بن حميـدان أمير الخلط . فتثاقل جرمون بن عيسى أمير سفيان عن الوصول الى العادل ، ثم بادر العادل الى مراكش وقـاسى في طريقه اليها من العرب شدائد ، ثم دخلها واستوزر أبا زيد بن عبد الواحد بن أبى حفص وتغير لابن يرجان ، ففسد باطنـه وسعى فى افساد الدولة ، وغلب أبو زكريا بن الشهيد شيخ هنتاتة ، ويوسف بن على شيخ تينملل على أمر العادل . ثم خالفت عليه عرب الخلط وهسكورة ، وعاثوا فى نواحى مراكش ، وخربوا بلاد دكالة ، فخرج اليهم ابن يرجان فلم يغن شيأ ، فانفـذ إليهم العـادل عسكرا من الموحدين لنظر ابراهيم بن اسمعيل ابن الشيخ أبى حفص فانهزم وقتـل ، واضطربت الاحوال على العادل ، وخرج ابن الشهيد ويوسف بن علي إلى قبائلهما للحشد ومدافعة هسكورة والعرب ، فاتفقا أيضا على خلع العادل ، واضطربت الامور .

ولما انتهى إلى أبى العـلاء صاحب الاندلس خبر أخيه العادل بمراكش وما هو فيه

من الاصطراب دعا لنفسه باشبيلية فبويع بها ، وأجابه أكثر أهل الاندلس ، وتلقب بالمأمون وبايع له السيد أبو زيد صاحب بلنسية وهو آخو البياسى ، وكان ذلك فى اوائل شوال سنة أربع وعشرين وستمائة .

ولما تمت بيعته كتب الى الموحدين الذين بمراكش يدعوهم الى بيعته ويعلمهم باجتماع أهل الاندلس والموحدين الذين بها عليه ، ووعدهم فى ذلك ومناهم ، فكان منهم بعض توقف ، ثم أجمع رأيهم على مبايعته وخلع أخيه العادل ، فدخلوا عليه قصره وسألوه أن يخلع نفسه فامتنع ، فوثبوا عليه ودسوا رأسه فى خصة ماء كانت هناك وقالوا له : لا نفارقك أو تشهد على نفسك بالخلع . فقال : اصنعوا ما بدا لكم والله لا أموت إلّا أمير المؤمنين . فوضعوا عمامته فى عنقه وخنقوه ورأسه فى الخصة حتى فاظ . وكان خيرا فاضلا رحمه الله ، وكانت وفاته فى الحادى والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة . وكتبوا ببيعتهم الى ابى العلاء المأمون ، وبعثوا بها اليه مع البريد ، ثم بدا لهم فى بيعة المأمون بعد انفصال البريد عنهم فنكثوها . وبايعوا يحيى بن الناصر بن المنصور واضطربت الاحوال بالمغرب والاندلس ، وطما عباب الفتن بهما وكان ما نذكره .

الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاحمة يحيى بن الناصر له

كان المأمون وهو أبو العلاء ادريس بن يعقوب المنصور لما بلغه انتقاض الموحدين والعرب بالحصرة على أخيه وتلاشى أمره دعا لنفسه باشبيلية وبايعه أهل الاندلس والموحدون بالحضرة كما قلنا ، ثم لما انفصل البريد ببيعته من الحضرة ندم الموحدون على ذلك لما يعلمون من شهامته وصرامته وتخلقه بأخلاق الحجاج بن يوسف ، وتخوفوا ان يأخذهم بدم عمه عبد الواحد المخلوع ، ثم أخيه عبد الله العادل ، فاتفق رأيهم على مبايعة يحيى بن الناصر بن المنصور وهو شاب غر كما بقل عذاره ، وانما وقع اختيارهم عليه ليكون أطوع لهم ، فان سنه يومئذ كانت ست عشرة سنة . فبايعوه بجامع المنصور من قصبة مراكش بعد صلاة العصر من يوم الاربعاء الثامن والعشرين من شوال سنة أربع

وعشرين وستمائة ، وامتنع عرب الخلط وقبائل هسكورة من بيعته وقالوا : قد بايعنا المأمون فلا ننكث بيعته ، وتأخر قدوم المأمون الى مراكش وبقي بالاندلس لاسباب يأتي شرحها ، وأقام يحيى بمراكش واستتب أمره بها بعض الشيء . وجهز جيشا من الموحدين والجند الى قتال الخلط وهسكورة ، وهم يومئذ في طاعة المأمون ، فانهزم جيش يحيى وقتل منه خلق كثير وعاد مفلولا الى مراكش ، ثم اطلع يحيى على مداخلة أبي زيد بن يرجان للعرب وهسكورة في الغارة على مراكش ، واطلع على ذلك ايضا أبو زكريا يحيى بن الشهيد فقتل أبا زيد بن يرجان وابنه عبد الله ، ونصب رؤوسهما على باب الكحل وطوف أجسادهما بأسواق المدينة ، ثم اضطربت الاحوال على يحيى وانتقضت البلاد . وغلت الاسعار وعم الخراب والفساد بلاد المغرب . واستحوذ بنو مرين على ضواحيه وضايقوا الموحدين في كثير من أمصاره ، واقتضوا جبايته ونبغت الثوار في الاقطار على ما نذكره .

ثورة محمد بن أبي الطواجين الكتامي بجبال غمارة

ولما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة ثار بجبال غمارة محمد بن أبي الطواجين الكتامي المتنبي ، وكان أبوه من قصر كتامة منقبضا عن الناس . وكان ينتحل صناعة الكيمياء ، فكان يلقب بأبي الطواجين لكثرة الظروف التي كان يستعملها في ذلك بزعمه . وتلقن ذلك عنه ابنه محمد هذا ، ثم ارتحل الى سبتة ونزل على بني سعيد بأحوازها ، وادعى صناعة الكيمياء فتبعه الغوغاء . ثم ادعى النبوة وشرع الشرائع وأظهر أنواعا من الشعبذة فكثر تابعوه ، ثم اطلعوا على خبثه فنبذوا اليه عهده ، وزحفت اليه عساكر سبتة ففر عنهم ، ثم قتله بعض البرابرة غيلة بوادي "لاو" بين بلاد بني سعيد وبلاد بني زيات ، وابن أبي الطواجين هذا هو الذي تسبب في قتل الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه على ما نذكره بعد إن شاء الله .

أخبار الثوار بالاندلس وما آل اليه أمر الموحدين بها

لما ضعف أمر الموحدين بالمغرب وكثرت الفتن فى أقطاره ونواحيه ، وانتزى السادات منهم بنواحى الاندلس كل فى عمله واستظهر كل واحد منهم على أمره بالطاغية ونزلوا له عن كثير من الحصون فسدت من أجل ذلك ضمائر أهل الاندلس عليهم ، وتصدى للثورة على الموحدين محمد بن يوسف بن هود من أعقاب بنى هود الجذاميين ملوك الطوائف بسرقسطة ، وكان يؤمل لها وربما امتحنه الموحدون لذلك مرات ، فخرج فى نفر من الاجناد سنة خمس وعشرين وستمائة ، وجهز اليه والى مرسية يومئذ السيد أبو العباس بن أبى عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن عسكرا فهزمهم ، وزحف الى مرسية فدخلها واعتقل السيد بها ، وخطب للخليفة المستنصر العباسى صاحب بغداد ، وفى ذلك يقول ابن الخطيب فى رقم الحلل عند ذكره لبنى هود هؤلاء :

وكان من أعقابه الامير * محمد بن يوسف الاخير

وكان باسلا شديد البأس * وبايع المستنصر العباس

ثم زحف اليه السيد أبو زيد بن محمد بن أبى حفص بن عبد المؤمن وهو أخو البياسى المتقدم ذكره من شاطبة وكان واليا بها كما مر ، فهزمه ابن هود ورجع الى شاطبة واستجاش بالمأمون ، وهو يومئذ باشبيلية ، فخرج فى العساكر ولقيه ابن هود فانهزم ، واتبعه المأمون الى مرسية فحاصره مدة . وامتنعت عليه فاقلع عنه ورجع الى اشبيلية .

ثم انتقض على السيد أبى زيد ببلنسية زيان بن أبى الحملات مدافع بن أبى الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش ، وخرج عنه الى أبدة وذلك سنة ست وعشرين وستمائة ، وكان بنى مردنيش هؤلاء أهل عصابة وأولى بأس وقوة ، فتوقع أبو زيد اختلال أمره ، وبعث اليه ولاطفه فى الرجوع فأبى ، فخرج أبو زيد من بلنسية ولحق بطاغيه برشلونة ، ودخل فى دين النصرانية والعياذ بالله ، وبايع أهل شاطبة لابن هود . ثم تتابعت بلاد الاندلس على بيعته ، ودخل فى طاعته أهل قرطبة واشبيلية بعد رحيل المأمون عنهم الى مراكش ، ولم يبق للموحدين بالاندلس سلطان .

ثم في سنة تسع وعشرين وستمائة ثار محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر بحصن ارجونة من أعمال قرطبة ، ودعا لابى زكريا الحفصى صاحب افريقية . ثم دخل فى طاعته أهـل قرطبة ، وتنازع ابن الاحمر وابن هود رئاسة الاندلس ، وتجاذبا حبل الملك بها ، وكانت خطوب استولى الطاغية فيها على كثير من حصون الاندلس ، ثم استقر قدم ابن الاحمر فى الملك وأورثه بنيه من بعده والله غالب على أمره .

قدوم أبى العلاء المأمون بن المنصور من الاندلس الى مراكش وما اتفق له فى ذلك

قد تقدم لنا ان الموحدين بمراكش خنقوا العادل وبايعوا أخاه المأمون ، وبعد انفصال البريد بالبيعـة ندموا وبايعوا ابن أخيه يحيى بن النـاصر ، فوصلت بيعة الموحدين الى المأمون ، وهو يومئذ باشبيلية ، فسر بها وأمر باقرائها على منابر الاندلس ، ثم أخذ فى التجهيز والحركة الى مراكش دار ملكهم ، فسار حتى اذا وصل الى الجزيرة الخضراء اتصل به الخبر أن الموحدين قد نكثوا بيعته ، وبايعوا ابن أخيه يحيى ، فوجم لذلك وأطرق مليا ثم أنشد متمثلا بقول حسان رضى الله عنه :

لتسمعن وشيكا فى ديارهم * الله أكبر يا ثارات عثمانا

ثم كتب من حينه الى ملك قشتالة يستنصره على الموحدين ويسأله (١) أن يبعث له جيشا من الفرنج يجوز بهم الى العدوة لقتال يحيى ومن معه من الموحدين . فشرط عليه صاحب قشتالة أن يعطيه عشرة حصون مما يـلى بلاده يختـارها هو ، وأن يبنى بمراكش اذا دخلها لجيش النصارى الذين معه كنيسة يظهرون بها دينهم ويضربون فيهـا نواقيسهم لصلواتهم ، وأن من أسلم منهم لا يقبل منه إسلامه ويرد الى اخوانه فيحكمون فيه

---

(١) انظر ما كتبه المؤلف فى هذه المسألة فى كتاب كشف العرين عن ليوث بنى مرين أثناء كلامه على دولة السلطان تاشفين الموسوس بن أبى الحسن المرينى .

باحكامهم الى غير دلك ، فأسعفه المأمون فى جميع ما طلب منه .

وكان يحيى بن الناصر صاحب مراكش لما رأى اختلال أحواله بها كما قلنا ومبايعة أكثر أهل المغرب لعمه المأمون خرج فارا بنفسه الى تينملل ، وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وستمائة ، ولما فر يحيى عن الحضرة قدم أشياخ الموحدين الدين بها واليا يضبطها للمأمون ريثما يقدم عليهم . وجددوا له البيعة ، وكتبوا اليه يخبرونه بفرار يحيى الى الجبل ، ويرغبون اليه فى القدوم عليهم ، وكتب اليه أيضا هلال ابن حميدان أمير الخلط ، واستمر يحيى معتصما بالجبل أربعة أشهر ، ثم بدا له فعاد الى مراكش وقتل عامل المأمون الذى قدمه الموحدون بها ، واستمر بها نحو سبعة أيام ، ثم خرج الى جبل جليز وعسكر به ، وأقام منتظرا لقدوم المأمون ودفاعه عن مراكش .

ثم بعث صاحب قشتالة الى المأمون جيشا من اثنى عشر ألفا برسم الخدمة معه والمقاتلة دونه على الشروط المتقدمة ، وكان وصولهم اليه فى رمضان سنة ست وعشرين وستمائة ، ثم عبر بهم من الجزيرة الخضراء الى سبتة فى ذى القعدة من السنة المذكورة ، وهو أول من أدخل عسكر الفرنج أرض المغرب واستخدمهم بها . فأراح بسبتة أياما ثم نهض الى مراكش حتى اذا دنا منها لقيه يحيى بجيوش الموحدين وذلك عشى يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الاول من السنة الداخلة ، فانهزم يحيى وفر الى الجبل وقتل كثير من جيشه .

ودخل المأمون حضرة مراكش وبايعه الموحدون ، وصعد المنبر بجامع المنصور - وكان علامة أديبا بليغا - فخطب الناس ولعن المهدى على المنبر وقال : لا تدعوه بالمهدى المعصوم وادعوه بالغوى المذموم ، ألا لا مهدى إلّا عيسى ، وانا قد نبذنا أمره النحس .

ولما انتهى الى آخر خطبته قال : معشر الموحدين لا تظنوا أنى أنا ادريس الذى تندرس دولتكم على يده ، كلا انه سيأتى بعدى ان شاء الله .

ثم نزل وأمر بالكتب الى جميع البلاد بمحو اسم المهدى من السكة والخطبة وتغيير سننه التى ابتدعها للموحدين وجرى عليها سلفهم ، ونعى عليه النداء للصلاة باللغة البربرية وزيادته في أذان الصبح : أصبح ولله الحمد ، وغير ذلك من السنن التى اختص بها المهدى ، وأمر بتدوير الدراهم التى ضربها المهدى مربعة ، وقال : كل ما فعله المهدى

وتابعه عليه أسلافنا فهو بدعة ولا سبيل الى ابقائه ، وأبدأ فى ذلك وأعاد .

ثم دخل قصره فاحتجب عن النـاس ثلاثا ، ثم خرج فى اليوم الرابع فأمر بأشياخ الموحدين وأعيانهم فحضروا بين يديه ، فقال لهم يا معشر الموحدين انكم قـد أظهرتم علينا العناد ، وأكثرتم فى الارض الفساد ، ونقضتم العهود وبذلتم فى حربنا المجهود ، وقتلتم الاخــوان والاعمام ، ولم ترقبوا فيهم إلّا ولاذمام ، ثم أخرج كتاب بيعتهم الذى بعثوا به اليه ، واحتج عليهم بنكثهم الذى نكثوا بعده ، فقامت الحجة عليهم فبهتوا وسقط فى أيديهم والتفت الى قاضيه المكيدى — وكان بازائه قد قدم معه من اشبيلية — فقال لـه : ما ترى أيها القاضى فى أمر هؤلاء الناكثين ؟ فقال يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يقول . « ومن نكث فانما ينكث على نفسه » الآية . فقال المأمون صدق الله العظيم فـإنا نحكم فيهم بحكم الله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » ثم أمر بجميع أشياخ الموحدين وأشرافهم فسحبوا إلى مصارعهم وقتلوا من عند آخرهم ولم يبق على كبيرهم ولا صغيرهم حتى انه أتى بابن أخت له صغير يقال ان سنه كان ثلاث عشرة سنة وكان قد حفظ القرآن ، فلما قدم للقتل قال له : « يا أمير المؤمنين اعف عنى لثلاث » قال ما هن ؟ قال : « صغر سنى ، وقرب رحمى ، وحفظى لكتاب الله العزيز » فيقال ان المأمون نظر الى القاضى كالمستشير له وقال له : « كيف ترى قوة جأش هـذا الغلام وإقدامه على الكلام فى هـذا المقام ؟ » فقال القاضى : « يا أمير المؤمنين انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلّا فاجرا كفارا » وأمر به فقتل رحمـه الله . ثم أمر بالرؤوس فعلقت بدائر سور المدينة .

ذكر ابن أبى زرع انها كانت تنيف على أربعة آلاف رأس وكان الزمان زمان قيظ فنتنت بها المدينة وتأذى الناس بريحها ، فرفع اليه ذلك فقال : « ان ههنا مجانين وان تلك الرؤوس حروز لهم لا يصلح حالهم إلّا بها ، وانها لعطرة عند المحبين ونتنة عند المبغضين ! ثم أنشد :

أهل الحرابة والفساد من الورى * يعزون فى التشبيه للـذكار
ففساده فيـه الصـلاح لغيره * بالقطــع والتعليق فى الاشجـار
فرؤوسهم ذكرى اذا ما أبصرت * فوق الجذوع وفى ذرى الاسوار

وكذا القصاص حياة أرباب النهى * والعدل مألوف بكل جوار
لو عم حلم الله سائر خلقه * ما كان أكثرهم من أهل النار

وهذه الفتكة التى ارتكبها المأمون من الموحدين أنست فتكة الحارث بن ظالم ، والبراض الكنانى ، والحجاف بن حكيم ، وهى التى استأصلت جمهورهم ، وأماتت نخوتهم . وأذن المأمون للنصارى القادمين معه فى بناء الكنيسة وسط مراكش على شرطهم المتقدم . فضربوا بها نواقيسهم . وكانت الكنيسة فى الموضع المعروف بالسجينة .

وقبض على قاضى الجماعة بمراكش وهو أبو محمد عبد الحق بن عبد الحق فقيده ودفعه الى هلال بن حميدان الخلطى فحبسه حتى افتدى منه بستة آلاف دينار .

وأقام المأمون بمراكش خمسة أشهر ، ثم نهض الى الجبل لقتال يحيى بن الناصر ومن معه من الموحدين ، وذلك فى رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة ، فالتقى معه على الموضع المعروف بالكاعة ، فانهزم يحيى وقتل من عسكره ومن أهل الجبل خلق كثير سيق من رؤوسهم الى مراكش أربعة آلاف رأس .

وفى هذه السنة استبد الامير أبو زكريا ابن الشيخ أبى محمد بن أبى حفص الهنتاتى بافريقية وخلع طاعة الموحدين .

وفى سنة ثمان وعشرين بعدها نفذت كتب المأمون الى سائر البلاد بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر . وفيها خرجت بلاد الاندلس كلها من ملك الموحدين ، ونفاهم عنها ابن هود الثائر بها وقتلتهم العامة فى كل وجه .

وفى سنة تسع وعشرين بعدها خرج على المأمون أخوه السيد أبو موسى عمران بن المنصور بمدينة سبتة وتسمى بالمؤيد ، فاتصل الخبر بالمأمون فخرج اليه ، وبلغه فى طريقه ان قبائل بنى فازاز ومكلاتة قد حاصروا مكناسة وعاثوا فى نواحيها ، فسار اليهم وحسم مادة فسادهم ، وعاد الى سبتة فحاصر بها أخاه السيد أبا موسى مدة فلم يقدر منه على شىء ، وكانت سبتة من أحصن مدن المغرب ، ولما طالت غيبة المأمون عن الحضرة اغتنم يحيى بن الناصر الفرصة فنزل من الجبل واقتحمها مع عرب سفيان وشيخهم جرمون ابن عيسى ، ومعهم أبو سعيد بن وانودين شيخ هنتاتة ، وعاثوا فيها وهدموا كنيسة النصارى التى بنيت بها وقتلوا كثيرا من يهودها وسبوا أموالهم ، ودخل يحيى القصر

فحمل منه جميع ما وجده به الى الجبل

واتصل الخبر بالمأمون وهو على حصار سبتة ، فارتحل عنها مسرعا الى مراكش ، وذلك فى ذى الحجة من السنة المذكورة ، ولما ابعد عن سبتة عبر أبو موسى صاحبها الى الاندلس فبايع ابن هود وأعطاه سبتة ، فعوضه ابن هود عنها بالمرية ، فكان السيد أبو موسى بها الى أن مات .

وانتهى الخبر الى المأمون وهو فى طريقه بأن ابن هود قد ملك سبتة ، فتوالت عليه الفجائع فمرض أسفا ومات بوادى العبيد وهو قافل من حصار سبتة . وكانت وفاته فى آخر يوم من سنة تسع وعشرين وستمائة .

وكانت أيامه أيام شقاء وعناء ومنازعة ، افترقت دولة الموحدين فيها فرقتين ، فرقة معه وفرقة مع يحيى بن الناصر .

وكان محق دولة الموحدين واستئصال أركانها وذهاب نخوتها على يده ، قالوا ولو لا ان الامور قد استحالت الى ما ذكر لكان المأمون موافقا لابيه المنصور فى كثير من الخلال ، ومتبعا سننه فى جل الاحوال .

وكان المأمون فصيح اللسان ، فقيها ، حافظا للحديث ، ضابطا للرواية ، عارفا بالقراآت ، حسن الصوت والتلاوة ، مقدما فى علم اللغة والعربية والادب وأيام الناس ، كاتبا بليغا حسن التوقيع لم يزل سائر أيام خلافته يسرد كتب الحديث مثل البخارى والموطأ ، وسنن أبى داود ، وكان مع ذلك شهما حازما مقداما على عظائم الامور ، ولى الخلافة والبلاد تضطرم نارا . والممالك قد تورعتها الثوار . فكان المأمون اذا فكر فى حال الثوار وما آل اليه حال الدولة معهم وما دهاه من كثرتهم ينشد متمثلا :

تكاثرت الظباء على خداش * فما يدرى خداش ما يصيد

يشير الى حاله معهم ، وانه لم يدر ما يتلافى من ذلك والله تعالى أعلم .

الخبر عن دولة أبى محمد عبد الواحد الرشيد بن المأمون
ابن المنصور رحمه الله

لما هلك المأمون بويع ابنه عبد الواحد ولقب بالرشيد .

قال ابن أبى زرع : بويع له بالخلافة بوادى العبيد ثانى يوم من وفاة أبيه وهو يوم الاحد فاتح محرم سنة ثلاثين وستمائة . وسنه يومئذ اربع عشرة سنة ، وكان الذين اخذوا له البيعة كانون بن جرمون السفيانى ، وشعيب بن اوقاريط الهسكورى . وفرنسيل قائد جيش الفرنج ، وانه لما مات المأمون كتمت جاريته موته واسمها حباب ، وكانت فرنجية الاصل ، ومن دهاة النساء وعقلائهن وهى أم الرشيد ، فاستدعت هؤلاء النفر الثلاثة ، وكانوا عمدة جيش المأمون يركب كل واحد منهم فى ازيد من عشرة آلاف من قومه واعوانه ، ولان اهل الحل والعقد من الموحدين قد اتت عليهم فتكة المأمون كما مر ، فجاؤا اليها فأعلمتهم بموت الخليفة ، ورغبت اليهم فى بيعة ابنها الرشيد والقيام معه وبذلت لهم على ذلك اموالا جمة ، ووعدتهم مع ذلك انهم إذا فتحوا الحضرة — وكان يحيى قد استولى عليها كما قلنا — تجعلها لهم فيئا . فبايعوه ، واخذوا البيعة له على من سواهم . فبايع الناس طوعا وكرها خوفا من سيوفهم .

ولما تم امره جعل أباه فى تابوت وقدمه أمامه وسار الى مراكش ، وسمع يحيى وأهل مراكش بما شرطته حباب للقواد الثلاثة من جعل مدينتهم فيئا ، فخرجوا لقتال الرشيد بأجمعهم .

واستخلف يحيى على مراكش ابا سعيد بن وانودين ، والتقى الجمعان فاقتتلوا ، فانهزم يحيى وقتل اكثر من معه ، وصبح الرشيد مراكش فتحصن منه اهلها فأمنهم وصالح قائد الفرنج واصحابه على فيئها بخمسة آلاف دينار .

ودخل الرشيد مراكش واستقر بها ، وكان قد وصل فى صحبته عمه السيد ابو محمد سعد بن المنصور ، فحل من تلك الدولة بمكان . وكان اليه التدبير والحل والعقد وبعد استقرار الرشيد بمراكش قدم عليه عمر بن اوقاريط الهسكورى صحبة اولاد

المأمون الذين كانوا باشبيلية ، ونفاهم ابن هود عنها ، وكان ابن اوقاريط هذا منحرفا عن المأمون ايام حياته ، فتذمم بصحبة هؤلاء الاولاد وقدم على الرشيد فتقبله ، واتصل بالسيد ابى محمد وحسنت منزلته لديه .

ثم لما هلك السيد ابو محمد لحق ابن اوقاريط بقومه ومعتصمه ، وكشف وجه الخلاف ، واخذ بدعوة يحيى بن الناصر ، واستمر له قبائل الموحدين ، ونهض إليهم الرشيد سنة إحدى وثلاثين وستمائة ، واستخلف على الحضرة صهره أبا العلاء إدريس ، وصعد إليهم الجبل فأوقع بيحيى وجموعه بمكانهم من هزرجة واستولى على معسكرهم ، ولحق يحيى ببلاد سجلماسة . وانكفأ الرشيد راجعا إلى حضرته ، واستأمن له كثير من الموحدين الذين كانوا مع يحيى فأمنهم ولحقوا بحضرته ، وكان كبيرهم أبو عثمان سعيد بن زكريا القدميوى ، وجاء الباقون على أثره بعد أن شرطوا عليه إعادة ما كان أزاله المأمون من رسوم المهدى وسننه فأعيدت . واطمأنوا لاعادة رسوم الدعوة المهدية ، واستقامت الاحوال فى هذه الايام ، إلى أن كان ما نذكره

فتنة الخلط مع الرشيد واستيلاؤهم على حضرة مراكش

كان مسعود بن حميدان كبير الخلط قد اغراه عمر بن أوقاريط بالخلاف لصحبة بينهما ، وكان مدلا ببأسه وكثرة جموعه . يقال إن الخلط كانوا يومئذ يناهزون اثنى عشر ألف فارس سوى الرجل والاتباع والحشود ، فمرض مسعود فى الطاعة وتثاقل عن الوفادة إلى الحضرة .

ولما علم بعقد الموحدين واجتماع كلمتهم على الرشيد غاظه ذلك وأخذ فى السعي للفرقة والشتات بينهم ، فاعمل الرشيد الحيلة فى استدعائه ، وصرف عساكره إلى بعض الجهات حتى خلا لمسعود الجو وذهب عنه الريب ، واستقدمه الرشيد فأسرع اللحاق بالحضرة ، وقدم معه معاوية عم عمر بن اوقاريط ، فقبض على معاوية وقتل لحينه . واستدعى الرشيد ابن حميدان إلى المجلس الخلافى للحديث فتقبض عليه

وعلى خمسة وعشرين من أصحابه من كبار الخلط وقتلوا ساعتئذ بعد جولة وهيعة ، وقضى الرشيد حاجة فى نفسه منهم .

ولما بلغ خبر مقتلهم إلى قومهم قدموا عليهم يحيى بن هلال بن حميدان ، وأجلبوا على سائر النواحي ، وأعانوا بدعوة يحيى بن الناصر ، واستقدموه من مكانه بقاصية الصحراء ، وداخلهم فى ذلك عمر بن اوقاريط ، وزحفوا لحصار مراكش ، وخرجت العساكر لقتالهم ومعهم عبد الصمد بن يلولان ، فدافع ابن اوقاريط بجموعه فى تلك العساكر فانهزموا ، وأحيط بجند النصارى فقتلوا ، وتفاقم الأمر بالحضرة وعدمت الاقوات ، واعتزم الرشيد على الخروج إلى جبال الموحدين ، فخرج إليها وسار منها إلى سجلماسة فملكها ، واشتد الحصار على مراكش ، واقتحمها يحيى بن الناصر وأنصاره من الخلط وهسكورة فنهبوها وساء أثرهم فيها ، واضطربت أحوال الخلافة بها ، وتغلب على السلطان السيد أبو ابراهيم بن أبى حفص الملقب بأبى حافة ، وهذه الفتن كانت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة .

هجوم نصارى جنوة على مدينة سبتة وحصارهم اياها

وفى هذه السنة أعنى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة نازل الفرنج الجنويون سبتة باجفان لا تحصى ، ونصبوا عليها المنجنيقات والآلات المعدة للحصار ، واستمروا على ذلك الى ان دخلت سنة ثلاث وثلاثين بعدها ، فلم يقدروا منها على شيء ، ولما اشتد الحصار على أهل سبتة صالحوا الفرنج فى الافراج عنهم بأربعمائة ألف دينار فقبلوا ، وأقلعوا عنهم بعد الحصار الشديد والتضييق العظيم .

عود الرشيد الى مراكش وفرار يحيى عنها
الى بنى معقل ومقتله بهم

وفى هذه السنة أعنى سنة ثلاثة وثلاثين وستمائة خرج الرشيد من سجلماسة بقصد مراكش ، وخاطب جرمون بن عيسى وقومه من سفيان فأجابوه ، وعبروا وادى أم الربيع . وبرز اليه يحيى فى جموعه . والتقى الفريقان فانهزمت جموع يحيى واستحر القتل فيهم ، ودخل الرشيد الى الحضرة ظافرا ، وأشار ابن أوقاريط على الخلط بالاستصراخ بابن هود صاحب الاندلس والاخذ بدعوته ، فنكثوا بيعة يحيى وبعثوا وفدهم الى ابن هود صحبة ابن أوقاريط ، فاستقر هنالك ولم يرجع اليهم قولا ، فعلم الخلط انها حيلة من ابن أوقاريط ، وأنه تخلص من الورطة .

وخرج الرشيد من مراكش وفر الخلط أمامه ، وسار الى فاس فأقام بها أياما ، وفرق فى فقهائها وصلحائها أموالا ورباعا مغلة ، وسرح وزيره السيد أبا محمد الى غمارة وفازاز لجباية أموالهما .

وكان يحيى بن الناصر لما نكث الخلط بيعته لحق بعرب معقل فأجاروه ووعدوه النصرة واشتطوا عليه فى المطالب فآسف بعضهم بالمنع فاغتاله فى جهة تازا ، وسيق رأسه الى الرشيد بفاس ، فبعثه إلى مراكش وأوعز الى نائبه بها أبى على بن عبد العزيز بقتل العرب الذين كانوا فى اعتقاله وهم حسن بن زيد شيخ العاصم ، وقائد وقائد ابنا عامر شيخا بنى جابر فقتلهم ، وانكفأ الرشيد راجعا إلى حضرته سنة أربع وثلاثين وستمائة .

وكان ابن أوقاريط لما فصل إلى ابن هود صاحب الاندلس أقام عنده إلى هذه السنة ، فركب البحر فى اسطول من أساطيل ابن هود وقصد مدينة سلا — وبها يومئذ السيد أبو العلاء صهر الرشيد — فنازلها وكاد يغلب عليها ثم رجع عنها بلا طائل .

وفى سنة خمس وثلاثين بعدها بايع أهل اشبيلية للرشيد ، ونقضوا طاعة ابن هود ، وتولى كبر ذلك أبو عمر بن الجد ، ووصل وفدهم إلى الحضرة ، ومروا فى طريقهم

بسبتة ، فاقتدى أهلها بهم فى بيعة الرشيد ، وقدموا على الحضرة ، وولى عليهم الرشيد أبا علي بن خلاص منهم ، وانصرف وفد اشبيلية وسبتة راضين .

واستقدم الرشيد رؤساء الخلط وكانوا راجعوا طاعته بعد مقتل يحيى فقدموا عليه وتقبض عليهم ، وبعث عساكره فاستباحوا حللهم وأحيائهم ، ثم امر بقتل مشيختهم وقتل معهم ابن اوقاريط ، وكان اهل اشبيلية قد بعثوا به إليه فقطع دابرهم .

وفى سنة ست وثلاثين وستمائة وصلت بيعة محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر الثائر بالاندلس على ابن هود وكان قد بايع اولا ابا زكريا الحفصى صاحب افريقية ثم بدا له فرد البيعة إلى الرشيد .

إستيلاء العدو على قرطبــة

وفى هذه السنة كان استيلاء العدو — دمره الله — على مدينة قرطبة قاعدة بـلاد الاندلس ودار مملكتها ، وذلك يوم الاحــد الثالث والعشرين من شوال من السنة المذكورة .

وفى سنة سبع وثلاثين بعدها انتشر بنو مرين ببلاد المغرب واشتدت شوكتهم به ، وزحف إليهم الرشيد فهزموه ، ثم زحف ثانية وثالثة فهزموه ، واقام فى محاربتهم سنتين ورجع عنهم إلى الحضرة . فاشتد عدوانهم بالمغرب ، وألحوا على مكـناسة حتى اعطوا الاتاوة لبنى حمامة منهم ، واتصل عليهم فى نواحيها .

وفى سنة تسع وثلاثين وستمائة قتل الرشيد كاتبه ابن المومياني لمداخلة له مع بعض السادة وهو عمر بن عبــد العزيز بن يوسف ، ووقف الرشيــد على كتبه بخطه غلط الرسول بها فدفعها بدار الخلافة فوقعت إلى الرشيد فقتله .

وفاة الرشيد رحمه الله

مات الرشيد رحمه الله غريقا فى بعض صهاريج بستانه بحضرة مراكش ، وذلك يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة ، ويقال إنه أخرج من الماء حيا فحم اوقته ومات .

وذكر أبو عبد الله اكنسوس ان غرق الرشيد كان فى البركة الكبرى التى بدار الهناء من أجدال اليوم ، قال : وكان يقال لها البحر الاصغر لأن ملوك بنى عبد المؤمن الذين أنشأوها كانوا يرسلون فيها الزوارق والفلك الصغار بقصد النزهة والفرجة . والله تعالى أعلم .

الخبر عن دولة أبى الحسن السعيد على بن المأمون بن المنصور رحمه الله

لما هلك الرشيد بويع أخوه لابيه أبو الحسن على المدعو السعيد بتعيين أبى محمد بن وانودين ، وتلقب بالمعتضد بالله واستوزر السيد أبا اسحق ابن السيد أبى ابراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن ، ويحيى بن عطوش ، وتقبض على جملة من مشيخة الموحدين واستصفى أموالهم ، واصطنع لنفسه رؤساء العرب من جشم ، واستظهر بجموعهم على أمره ، وكان شيخ سفيان كانون بن جرمون كبير مجلسه ، وكان ضرر بنى مرين قد تفاقم بالمغرب وداؤهم قد أعضل ، فخرج السعيد سنة اثنتين وأربعين وستمائة لتمهيد بلاد المغرب ، فانتهى الى سجلماسة ، وكان صاحبها عبد الله بن زكريا الهزرجى قد انتقض عليه فقتله واستولى عليها ثم رجع حتى نزل المقرمدة من أرض فاس .

وعقد المهادنة مع بنى مرين وقفل الى مراكش ، فكانت هدنة على دخن فلم يلبث إلّا يسيرا حتى عاود النهوض اليهم سنة ثلاثة وأربعين بعدها ، واستخلف السيد أبا زيد ابن السيد أبى ابراهيم أخا الوزير المذكور آنفا على مراكش ، واستعمل أخاهما السيد أبا

حفص وهو المرتضى على سلا ، وسار نحو بنى مرين ، فجمع له أميرهم أبو بكر بن عبد الحق جموع زناتة وصمد نحوه حتى اذا ترا آ الجمعان وتهيأ القوم للقاء خالف كانون بن جرمون الى آزمور فاستولى عليها وغلب الموحدين عليها ، فرجع السعيد أدراجه فى اتباعه ، ففر كانون عنها فاعترضه السعيد فاوقع به ، واستلحم كثيرا من قومه سفيان واستولى على ما كان لهم من مال وماشية ، ولحق كانون ببنى مرين ، ورجع السعيد الى الحضرة .

ثم تقدم الامير أبو بكر بن عبد الحق المرينى الى مكناسة فضايقها ، وخطب طاعة أهلها ، فثارت العامة بمكناسة على واليها من قبل السعيد فقتلوه .

وحذر شيوخها وكبراؤها من سطوته فحولوا الدعوة الى الامير أبى زكريا الحفصى صاحب افريقية ، وكان قد استبد على بنى عبد المؤمن ورام التغلب حتى على كرسيهم بمراكش ، فبايعه أهل مكناسة بمواطأة الامير أبى بكر بن عبد الحق . فانه كان يدعوا اليه فى أول أمره ، وكذا أخوه السلطان يعقوب بن عبد الحق من بعده ثم استقل بنفسه واستبد بأمره عند ما تم له ملك المغرب حسبما نقصه بعد ان شاء الله .

وفى هذه السنة بعث أهل اشبيلية وأهل سبتة بطاعتهم للأمير أبى زكريا الحفصى أيضا ، وبعث أبو علي بن خلاص صاحب سبتة إليه بهدية مع ابنه فى اسطول أنشأه لذلك فغرق عند اقلاعه من المرسى ، وقبل هذه المدة بيسير كان الامير أبو زكريا الحفصى قد تغلب على تلمسان وبايعه صاحبها يغمراسن بن زيان العبد الوادى ، وهو جدّ ملوك بنى زيان أصحاب تلمسان والمغرب الاوسط ، فعظم قدر أبى زكريا بسبب هذه البيعات التى انثالت عليه من سائر الجهات . وحدثته نفسه بالتوثب على كرسى الخلافة بمراكش ، وغص بنو عبد المؤمن بمكانه ، وعظم عليهم استبداده ثم طمعه فى كرسيهم وقرارة عزهم مع أنه ما كان إلّا جدولا من بحرهم وفرعا من دوحتهم ، والامر كله لله .

نهوض السعيد من مراكش إلى غزو الثوار بالمغربين

ومحاصرته يغمراسن بن زيان وما آل إليه الأمر من مقتله رحمه الله

لما بلغ السعيد وهو بمراكش استبداد الامير أبا زكريا بن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى بافريقية ومبايعة أمراء الجهات له أعمل نظره فى الحركة إلى هؤلاء الثوار والنهوض لتدويخ هذه الاقطار .

وكان السعيد شهما حازما يقظا بعيد الهمة ، فنظر فى أعطاف دولته وفاوض الملأ من الموحدين فى تثقيف أطرافها وتقويم أودها ، وحرك هممهم ، وأثار حفائظهم . وأراهم كيف اقتطع عنهم الامر شيئا فشيأ ، فابن أبى حفص اقتطع افريقية ، ويغمراسن ابن زيان اقتطع المغرب الاوسط ثم أقام فيه الدعوة الحفصية ، وابن هود اقتطع الاندلس وأقام فيها دعوة بنى العباس ، وابن الاحمر بالجانب الآخر منها مقيم للدعوة الحفصية أيضا ، وهؤلاء بنو مرين قد تغلبوا على ضواحى المغرب ثم سموا إلى تملك أمصاره ، وإن سكتنا على هذا فيوشك أن يختل الامر ، وتنقرض الدولة ، فتذامروا وتداعوا إلى النهوض إليهم ، فحشد السعيد الجنود ، وجهز العساكر وأزاح عللهم ، واستنفر عرب المغرب وما يليه ، واحتشد كافة المصامدة .

ونهض من مراكش آخر سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبنى مرين أولا ، ثم تلمسان ويغمراسن ثانيا ، ثم افريقية وابن أبى حفص ثالثا .

ولما نزل بوادى بهت أخذ فى عرض عساكره وتمييزها ، فخرج الامير أبو بكر ابن عبد الحق من مكناسة ليلا وحده يتجسس الاخبار فأشرف على جموع السعيد فرأى ما لا قبل له به ، فعاد إلى قومه وأفرج للسعيد عن البلاد ، وتلاحقت به بنو مرين من أماكنها التى كان الامير أبو بكر أنزلهم بها ، واجتمعوا عليه بحصن تازا ، وطامن بلاد الريف .

وتقدم السعيد إلى مكناسة فخرج إليه أهلها يطلبون منه العفو ، وقدموا بين ايديهم الشيخ الصالح أبا علي منصور بن حرزوز ، وتلقوه بالصبيان من المكاتب على رؤوسهم

الالواح وبين ايديهم المصاحف ، وخرج النساء حاسرات يطلبن العفو فعفا عنهم ثم ارتحل الى تازا فى اتباع بنى مرين ، وانتقل أبو بكر بن عبد الحق الى بنى يزناسن ثم راجع نظره فى مسالمة الموحدين والدخول فى أمرهم ، فبعث ببيعته الى السعيد وهو يومئذ بتازا مع جماعة من وجوه بنى مرين فقبلها السعيد وعفا لهم عما سلف ، فسأله وفدهم ان يستكفى بالامير أبى بكر فى أمر تلمسان وصاحبها يغمراسن بن زيان ، وقد كتب اليه الامير أبو بكر أيضا بذلك يقول « يا أمير المؤمنين ارجع الى حضرتك وقونى بالجيش وأنا أكفيك أمر يغمراسن وأفتتح لك تلمسان » ؛ فاستشار السعيد وزراءه فقالوا : « لاتفعل فان الزناتى أخو الزناتى لايخذله ولا يسلمه » ؛ فكتب اليه السعيد بأن يبعث اليه جماعة من قومه يعسكرون معه ، فأمده الامير أبو بكر بخمسمائة من قبائل بنى مرين ، وعقد عليهم لابن عمه أبى عياد بن أبى يحيى بن حمامة وخرجوا تحت رايات السعيد ونهض من تازا يريد تلمسان .

وعند ابن أبى زرع ان السعيد لما فرغ من أمر مكناسة عسكر بظاهر فاس ، وهناك أتته بيعة بنى مرين ، قال : ثم ارتحل السعيد عن فاس فى الرابع عشر من محرم سنة ست وأربعين وستمائة ، وخسف القمر تلك الليلة خسوفا كليا ، وأصبح السعيد غاديا يريد تلمسان ، فلما ركب فرسه انكسر لواؤه المنصورى فتطير ونزل ، ولم يرتحل إلّا فى اليوم السادس عشر من الشهر المذكور .

ولما سمع يغمراسن باقبال السعيد اليه خرج من تلمسان فى عشيرته وقومه من سائر بنى عبد الواد ، وتحملوا بأهليهم وأولادهم الى قلعة تامزردكت قبالة وجدة فاعتصموا بها ، ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير يغمراسن مؤديا للطاعة وساعيا فى مذاهب الخدمة ومتوليا من حاجات الخليفة بتلمسان ما يدعوه اليه ويصرفه فى سبيله ، ومعتذرا تخلف يغمراسن عن الوصول الى حضرة السعيد ، فلج السعيد فى شأنه ولم يعذره ، وأبى الا مباشرة طاعته بنفسه ، وساعده فى ذلك كانون بن جرمون السفيانى صاحب الشورى بمجلسه ومن حضر من الملأ ، وردوا الفقيه عبدون الى يغمراسن ليستقدمه ، فتثاقل يغمراسن عن القدوم خشية على نفسه .

واعتمد السعيد الجبل في عساكره حتى أناخ بها فى ساحة القلعة وأخذ بمخنقهم

ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع ركب مهجرا فى وقت القيلولة على حين غفلة من النـاس ليتطوف بالقلعة ، ويتقرى مكامنهـا ، فبصر به فارس من بنى عبد الواد يعرف بيوسف الشيطان كان أسفـل الجبـل بقصد الحراسة . واتفق ان يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر كانا قريبين منه ، فعرفوا السعيد فانقضوا عليه من بعض الشعـاب أمثال العقبـان ، وطعنه يوسف الشيطـان فكبه عن فرسه ، وعمد يعقوب بن جابر الى وزيره يحيى بن عطوش فقتله ، ثم استلحموا لوقتهم مواليه ناصحـا من العلـوج ، وعنبرا من الخصيان ، وقائد جند النصارى ، وهو أخو القمط ، ووليدا يافعا من ولد السعيد ، ويقال : انما كان ذلـك يوم عبى السعيد العساكر وصعد الجبـل للقتال وتقدم أمام النـاس ، فاقتطعه بعض الشعاب المتوعرة في طريقه ، فتواثب عليه هؤلاء الفرسان . وكان ما ذكرناه. وذلك منسلخ صفر سنة ست وأربعين وستمائة

وانتهى الخبر الى المحلة فارتجت وماجت ، وأخذ أهلها فى الفرار ، وبادر يغمراسن الى السعيد فنزل اليه وهو صريع على الارض ، فحياه وفداه ، وأقسم له على البراءة من دمه ! والسعيد رحمـه الله واجم بمصرعه يجود بنفسه الى ان فاظ ، وانتهب المعسـكر بجملته .

واستولى بنو عبد الواد على ما كان به من الاخبية الحسنة والفازات الرفيعة ، واختص يغمراسن بفسطاط السلطان ، فكان لـه خالصة دون قومه ، واستـولى على الذخيرة التى كانت فيه منها مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه ، يزعمون انه أحد المصاحف التى انتسخت لعهد خلافته ، وانه كان فى خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل ، ثم صار فى ذخائر لمتونة فيما صار اليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالاندلس ، ثم صار الى خزائن الموحدين من يد لمتونة .

قال ابن خلدون : وهو لهذا العهد فى خزائن بنى مرين فيما استولوا عليه من ذخيرة آل زيان ، وذلك عند غلب السلطان أبى الحسن المرينى على تلمسان سنة سبـع وثلاثين وسبعمائة كما نذكره اه .

وقد تقدم لنا الخبر عن هذا المصحف العثمانى وفيه مخالفة لبعض ما هنا ، وسيأتى لنا

فى دولة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المرينى ما يخالف ذلك كله والله أعلم بحقيقة الامر .

ومن الذخائر التى صارت ليغمراسن من فسطاط السعيد العقد المنتظم من خرزات الياقوت الفاخر والدر النفيس المشتمل على مئين متعددة من حصبائه . وكان يسمى بالثعبان .

ثم صار الى بنى مرين أيضا الى ان تلف فى البحر عند غرق الاسطول بالسلطان أبى الحسن بمرسى بجاية مرجعه من تونس حسبما نذكره بعد الى ذخائر من أمثاله وطرف من أشباهه مما يستخلصه الملوك لانفسهم ويعتدونه من ذخائرهم .

ولما سكنت الفتنة وركد عاصف تلك الهيعة نظر يغمراسن فى شأن مواراة الخليفة فجهزه ورفعه على أعواده ، فدفنه بالعبّاد بمقبرة الشيخ أبى مدين رضى الله عنه ثم نظر فى شأن حرمه وأخته تاعزونت الشهيرة الذكر بعد ان جاءها واعتذر اليها مما وقع ، وأصحبهن جملة من مشيخة بنى عبد الواد الى مأمنهن ، فالحقوهن بدرعة من تخوم طاعتهم فكان ليغمراسن بذلك حديث جميل فى الابقاء على الحرم ورعى حقوق الملك . وأما أهل محلة السعيد فانهم بعد نهوضهم تداعوا واجتمعوا الى عبد الله بن السعيد ، وقفلوا قاصدين مراكش .

واتصل الخبر بالامير أبى بكر بن عبد الحق وهو يومئذ ببنى يزناسن ، وقدمت عليه الحصة التى كان وجهها مع السعيد ، فتحقق الخبر ، وانتهز الفرصة فى الموحدين فاعترض عسكرهم بجهات تازا ، فقتل عبد الله بن السعيد واستلبهم واستولى على ما بقى من أثاثهم ، ثم جد السير الى مكناسة فدخلها وملكها ، ولحق فل الموحدين بمراكش ، فبايعوا عمر المرتضى كما نذكره ان شاء الله .

الخبر عن دولة أبى حفص عمر المرتضى ابن السيد أبى ابراهيم ابن يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله

لما توفى أبو الحسن السعيد كان عمر المرتضى واليا من قبله بقصبة رباط الفتح من سلا كما قدمنا، فاجتمع الموحدون بجامع المنصور من قصبة مراكش وعقدوا له البيعة وبعثوا بها اليه. ونهض هو متوجها الى مراكش فلقيه وفدهم أثناء طريقه بتامسنا، واجتمع عليه أشياخ العرب فبايعوه أيضا، واستقام أمره وتلقب بالمرتضى، وعقد ليعقوب بن كانون على بنى جابر، ولعمه يعقوب بن جرمون على عرب سفيان بعد ان كان قومه قدموه عليهم، ودخل الحضرة واستوزر أبا محمد بن يونس من قرابته، وقبض على حاشية السعيد. ثم وصل أخوه السيد أبو اسحق الذى كان وزيرا للسعيد من قبل ناجيا من وقعة تامزردكت آخذا على طريق سجلماسة فاستوزره أيضا وأسند اليه أمره.

واستولى أبو بكر بن عبد الحق أمير بنى مرين بعد مهلك السعيد على رباط تازا ومكناسة، ثم استولى سنة سبع وأربعين وستمائة على فاس وأعمالها، فاقتطع عن المرتضى بلاد الغرب كلها، ولم يبق له إلّا بلاد الحوز من سلا الى السوس.

ولاول دولة المرتضى كان استيلاء العدو على اشبيلية احدى قواعد الاندلس، فان طاغية قشتالة وهو الاصبنيول خذله الله حاصرها سنة خمس وأربعين وستمائة. وفى يوم الاثنين الخامس من شعبان من السنة بعدها ملكها صلحا بعد منازلتها حولا كاملا وخمسة أشهر، وانتقل كرسى المملكة الاسلامية بالاندلس الى غرناطة وذلك فى دولة بنى الاحمر.

وفى سنة تسع وأربعين وستمائة ملك الامير أبو بكر المرينى سلا ورباط الفتح، ووفد على المرتضى بمراكش موسى بن زيان الونكاسى وأخوه على بن زيان من قبيل بنى مرين، وأغروه بقتال بنى عبد الحق فاسعفهم. ولما انتهى الى أمان ايملولين أشاع يعقوب بن جرمون السفيانى قضية الصلح بينهما، وأصبح راحلا وقد استولى الجزع على قلوب الجيش، فانفضوا ووقعت الهزيمة من غير قتال، ووصل المرتضى الى

الحضرة وأغضى ليعقوب عما صدر منه .

وفى سنة خمسين وستمائة استرجع المرتضى سلا ورباط الفتح من يد بنى مرين .

وفى سنة احدى وخمسين بعدها فر من حاشية المرتضى علي بن يدر من بنى باداسن ولحق ببلاد السوس وتحصن ببعض جبالها ثم حاصر تارودانت قاعدة بلاد السوس فاستولى عليها ، واستخدم الشبانات وذوى حسان من عرب معقل ، وأطاعته قبائل جزولة واستفحل أمره ، واستولى على بسائط السوس ، فوجه اليه المرتضى عدة جيوش فهزم البعض وقتل البعض ، ثم جاء أبو دبوس من بعد المرتضى فنهض اليه ، وحاصره ببعض حصونه قرب تارودانت .

ولما اشتد عليه الحصار رغب فى الاقالة ومعاودة الطاعة فقبل ذلك منه أبو دبوس وأقلع عن حصاره وعاد الى الحضرة . ولما استولى بنو مرين على مراكش سنة ثمان وستين وستمائة استبد علي بنى يدر هذا عليهم وتملك قطر السوس ، واستولى على تارودانت وسائر قراه ومعاقله ، وأرهف حده للعرب وسامهم الهضيمة ، فزحفوا إليه وقتلوه فى السنة المذكورة . ثم توارث قطر السوس من بعده جماعة من عشيرته ، واستمر ملكهم عليه إلى زمان السلطان ابى الحسن المرينى فغلبهم عليه وانقرض امرهم .

رجع إلى أخبار عمر المرتضى

وفى سنة اثنتين وخمسين وستمائة خرج ابو الحسن بن يعلو قائد المرتضى فى جيش من الموحدين إلى تامسنا ليكشف احوال العرب ومعه يعقوب بن جرمون السفيانى وعهد إليه المرتضى بالقبض على يعقوب بن محمد بن قيطون شيخ بنى جابر فتقبض عليه وعلى وزيره ابن مسلم وطير بهما إلى الحضرة معتقلين .

وفى سنة ثلاث وخمسين بعدها خرج المرتضى من مراكش لاسترجاع فاس وأعمالها من يد بنى مرين المتغلبين عليها ، واحتفل فى الاحتشاد ، وبالغ فى الاستعداد ، فكان جيشه ثمانين ألف فارس من الموحدين والعرب والاغزاز وأهل الاندلس والفرنج ،

فسار حتى نزل جبل بنى بهلول قبلة فاس . وكانت هيبة بنى مرين وناموسهم قد تمكن من قلوب جيش المرتضى . فكانوا منذ قربوا من أحواز فاس لا ينامون إلّا غرارا ، فانطلق ذات ليلة فرس لبعض الجنديين وجرى بين الاخبية . وجرى الناس خلفه ليأخذوه ، فظن أهل المحلة ان بنى مرين قد أغاروا عليهم ، فركبوا خيولهم ، وماج بعضهم فى بعض ، وانقلبوا منهزمين لا يلوون على شيء .

واتصل الخبر بأبى بكر بن عبد الحق وهو بفاس فخرج للوقت واحتوى على جميع ما فى محلة الموحدين من الاخبية والاثاث والسلاح والمال ، ومر المرتضى على وجهه فدخل مراكش فى جمع قليل من الاشياخ والفرنج واقام بها واعرض عن بنى مرين وتسلى عنهم سائر ايامه وازدادت شوكة الموحدين ضعفا .

واستبد أبو القاسم العزفى بسبتة واستتب أمره بها ، وتوارث الرياسة بها عشيرته من بعده زمانا الى ان غلبهم عليها بنو مرين .

وفى سنة خمس وخمسين وستمائة استولى أبو بكر بن عبد الحق على سجلماسة ، وتقبض على واليها عبد الحق بن اصكوا بمداخلة خديم له يعرف بمحمد القطرانى ، وشرط على الامير أبى بكر ان يكون هو الوالى عليها ، فأمضى له شرطه ، وأنزل معه بها جماعة من رجالات بنى مرين حتى اذا هلك أبو بكر بن عبد الحق أخرجهم محمد القطرانى واستبد بأمر سجلماسة وراجع دعوة المرتضى ، واعتذر اليه ، واشترط عليه الاستبداد فامضى له شرطه الا فى أحكام الشريعة ، وبعث أبا عمر بن حجاج قاضيا من الحضرة وبعض السادة للنظر فى القضية ، وقائدا من النصارى بعسكر للحماية ، فاعمل القاضى ابن حجاج الحيلة فى قتل القطرانى ، وتولى الفتك به قائد النصارى ، واستبد السيد بامر سجلماسة بدعوة المرتضى .

واستفحل أمر بنى مرين أثناء ذلك . ونزل الامير يعقوب بن عبد الحق بسائط تامسنا ، فسرح اليهم المرتضى عساكر الموحدين لنظر يحيى بن عبد الله بن وانودين، فأجفلوا الى وادى أم الربيع ، واتبعهم الموحدون وألحوا عليهم فعطف عليهم بنو مرين واقتتلوا ببطن الوادى فانهزمت عساكر الموحدين ، وغدر بهم بنو جابر ، وكان فى مسيل الوادى كدى يحسر عنها الماء فتبدو كأنها أرجل ، فسميت الواقعة من أجل ذلك بأم

الرّجلين وذلك فى سنة ستين وستمائة . وبقى المرتضى يعالج أمر على بن يدر الثائر بالسوس الى سنة اثنتين وستين وستمائة . فأقبل الامير يعقوب بن عبد الحق فى جموع بنى مرين حتى نزل على مراكش ، واتصلت الحرب بينه وبين الموحدين بظاهرها أياما ، هلك فيها عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق . فبعث المرتضى الى أبيه يعقوب بالتعزية ولاطفه ، وضرب اتاوة يبعث بها اليه فى كل سنة ، فرضى يعقوب وارتحل عنها ؛ وقيل ان مقتل عبد الله بن يعقوب كان سنة ستين قبل وقعة أم الرجلين والله تعالى أعلم.

انتقاض أبى دبوس على المرتضى واستيلاؤه على مراكش
ومقتل المرتضى عقب ذلك

لما ارتحل بنو مرين عن مراكش بعد مهلك عبد الله بن يعقوب فر من الحضرة قائد حروب المرتضى وابن عمه وهو السيد أبو العلاء ادريس الملقب بأبى دبوس ابن السيد أبى عبد الله محمد ابن السيد أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، لسعاية تمكنت فيه عند المرتضى ، وانه يطلب الامر لنفسه ، فأحس أبو دبوس بالشر ولحق بيعقوب بن عبد الحق فأدركه عند مقدمه إلى فاس قافلا من منازلة مراكش ؛ فأقبل عليه الامير يعقوب وبالغ فى إكرامه ؛ فطلب منه أبو دبوس الاعانة على حرب المرتضى ، وكان بطلا محربا وضمن له فتح مراكش واشترط له المقاسمة فيما يغلب عليه من السلطان وما يستفيده من الذخيرة والمال . فأمده الامير يعقوب بخمسة آلاف من بنى مرين ، وبالكفاية من المال ، وبالمستجاد من آلة الحرب من طبول وبنود ونحو ذلك ، وكتب له مع ذلك إلى عرب جشم - وأميرهم يومئذ علي بن أبى علي الخلطى - أن يكونوا معه يدا واحدة ، فسار أبو دبوس حتى وصل إلى سلا فكتب منها إلى العرب وأشياخ الموحدين والمصامدة الذين فى طاعة المرتضى يدعوهم إلى بيعته ، ويعدهم ويمنيهم ؛ فتلقته وفود العرب والهساكرة وصنهاجة آزمور ببعض الطريق فبايعوه ، وساروا معه حتى نزل بلاد هسكورة . ثم كتب إلى خاصته من وزراء المرتضى أن يعلموه بحال البلد والدولة

فراجعوه ان أسرع السير وأقبل ولا تخش شيأ ، فإنا قد فرقنا الجند فى أطراف البلاد وهذا وقت انتهاز الفرصة . فزحف أبو دبوس إلى مراكش حتى إذا انتهى إلى اغمات وجد بها الوزير أبا زيد بن يكيت فى جيش من حاميتها ، فناجزه الحرب فانهزم ابن يكيت وقتل عامة أصحابه .

وسار أبو دبوس يؤم مراكش ومعه عرب سفيان وبنى جابر وكبيرهم يومئذ علوش بن كانون السفيانى ، فلما دنوا من مراكش أغار علوش على باب الشريعة منها والناس فى صلاة الجمعة حتى ركز رمحه بمصراع الباب . ودخلت سنة خمس وستين وستمائة والمرتضى بمراكش غافل عن شأن أبى دَبّوس ، والاسوار خالية من الحامية والحراس . فقصد أبو دبوس باب اغمات وتسور البلد من هنالك ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، وصمد إلى القصبة فاقتحمها من باب الطبول واستولى عليها .

وقال ابن أبى زرع : إن دخول أبى دبوس مراكش كان من باب الصالحة وذلك ضحى يوم السبت الثانى والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة ، والصالحة التى أضيف إليها هذا الباب هى بستان كبير من جملة بساتين أجدال دار الخلافة بمراكش ولا زال هذا البستان مشهورا بهذا الاسم إلى الآن ، وهو من إنشاء عبد المؤمن بن علي رحمه الله . فقد ذكر الشيخ أبو عبد الله محمد بن عَذارِى الاندلسى فى كتاب البيان المعرب عن أخبار المغرب : ان بستان المسرة الذى بظاهر جنان الصالحة أنشأه عبد المؤمن بن علي كبير الموحدين . قال : وهو بستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها فيه كل فاكهة تشتهى ، وجلب إليه الماء من أغمات واستنبط له عيونا كثيرة .

قال ابن اليسع : وما خرجت أنا من مراكش فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة إلا وهذا البستان الذى غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين ألف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمراكش . اه

قلت : ولشهرة هذا البستان وموقعه من الناس لهجت به صبيانهم وسجعوا به فيقولون : « ياجرادة مالحة ، أين بت سارحة ، فى جنان الصالحة » فى أسجاع غير هذه تجرى على ألسنة الصبيان . والله أعلم .

رجــع إلى خبر أبي دبوس

قــال ابن أبى زرع : لما اقتحم أبو دبوس مراكش سار حتى وقف بباب البنود من القصبة فغلقت الابواب دونه ، وقام عبيد المخزن عليها يقاتلونه .

ولما رأى المرتضى أن أبا دبوس قــد التحف معه كساء دار الملك خرج من القصر ناجيا بنفسه من باب الفاتحة ومعه الوزير أبو زيد بن يعلو الكومى ، وأبو موسى ابن عزوز الهنتاتى ، فلحق بهنتاتة ، ثم انتقل منها إلى كدميوة ، ثم إلى شفشاوة ، ثم لحق آخرا بآزمور ونزل على صهر له من بنى عطوش كان واليا عليها من قبله . وكان ابن عطوش هذا قــد أسره العدو فافتكه المرتضى بمال جسيم وزوجــه ابنته وولاه آزمور . فلما وقعت عليه الكائنة بمراكش ذهب إليه مستجيرا به ومطمئنا إليه فكان من جزائه له أن قبض عليه وقيده ، وكتب إلى أبى دبوس يعلمه بشأنه، فكتب أبو دبوس إليه يستكشفه فى شأن الذخيرة فأنكر المرتضى أن يكون قد ادخر شيئا وحلف على ذلك ومت إليه بالرحم حتى كاد أبو دبوس يعطف عليه ، ثم أغراه خاصته به فوجــه إليه من قتله فى الطريق وأتى إليه برأسه ، وصار ابن عطوش بفعلته هذه أظلم من الخيفقان .

وكان مقتــل المرتضى فى العشر الاواخر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة . وكان رحمه الله ينتمى إلى التصوف والزهد والورع ، وتسمى بثالث العمرين ، وكان مولعا بالسماع لا يكاد يخلو منه ليلا ولا نهارا ، وكان فى أيامــه رخاء مفرط لم ير أهــل مراكش مثله .

وقال ابن الخطيب : كان المرتضى فاضلا خيرا عفيفا ، مغمد السيف ، مائــلا إلى الهدنة رحمه الله .

الخبر عن دولة أبي العلاء إدريس الواثق بالله المعروف بأبي دبوس

لما اقتحم أبو دبوس حضرة الخلافة على المرتضى وفر المرتضى عنها ملكها أبو دبوس واستتب أمره بها وبايعه كافة الموحدين وأهل العقد والحل من الوزراء والفقهاء والاشياخ، وكان ذلك بجامع المنصور يوم الاحد الثالث والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة، واستقل أبو دبوس بمملكة مراكش وأعمالها، وتلقب بالواثق بالله، والمعتمد على الله، وبذل العطاء، ونظر في الولايات، ورفع المكوس عن الرعية

ولما اتصل بالامير يعقوب بن عبد الحق ما كان من أبي دبوس واستيلائه على المملكة كتب اليه يهنئه بالفتح، ويطلب منه ان يمكنه من الشرط الذى شرط له، فلما وصل إليه الكتاب أدركته النخوة، وغلب عليه الكبر، وقال للرسول: قل ليعقوب بن عبد الحق يغتنم سلامته، ويبعث الى ببيعته حتى أقره على ما بيده، والا عزوته بجنود لا قبل له بها، فعاد الرسول الى الامير يعقوب، وأبلغه الخبر، ودفع اليه كتاب أبي دبوس فاذا هو يخاطبه مخاطبة الخلفاء لعمالهم، والرؤساء لخدمهم، فتحقق الامير يعقوب نكثه وغدره، فنهض اليه فى جموع بنى مرين وعساكر المغرب

فلما أشرف على مراكش خام أبو دبوس عن اللقاء وتحصن بداره، ولجأ الى أسواره، فتقدم الامير يعقوب حتى نزل على مراكش وحاصرها أياما. وعاث في نواحيها، وانتسف ما حولها.

ولما رأى أبو دبوس ما نزل به منه كتب الى قريعه يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان، يطلب منه ان يشغل عنه الامير يعقوب بما وراءه من أعمال فاس والمغرب، وأسنى له الهدية فى ذلك، وأكد العهد فى الموالاة والمناصرة، فاجابه يغمراسن الى ذلك، ونهض من حينه فشن الغارات على ثغور المغرب، وأضرم نار الفتنة بها.

واتصل ذلك بالامير يعقوب وهو محاصر لمراكش، فرجع عوده على بدئه، وسار الى يغمراسن فناجزه الحرب، وانتصف منه على ما ينبغي وحسم مادة فساده.

ثم كر راجعا الى مراكش فى شعبان سنة ست وستين وستمائة، ولما عبر وادى

أم الربيع شن الغارات على النواحى ، وبث السرايا فى الجهات ، وطال عيثه فى البلاد، وأبدأ فى ذلك وأعاد ، حتى ضاقت صدور بنى عبد المؤمن بمراكش وتكدر عيشهم ، فحرضهم أولياؤهم من عرب جشم ، وأعروهم باستنهاض أبى دبوس لمدافعة عدوه ، ووعدوهم النصرة من أنفسهم . فتحرك أبو دبوس لذلك ، واشرأبت نفسه الى القتال ، فحشد وأبلغ ، وبرز من الحضرة فى جيوش ضخمة وجموع وافرة .

ولما علم الامير يعقوب بخروجه ودنوه منه أظهر من نفسه العجز عن لقائه ، وكر راجعا الى جهة بلاده ، يستجره بذلك ليبعد عن الحضرة ومددها . وتمادى أبو دبوس فى اتباعه حتى انتهى الى وادى ودغفو ، فكر عليه الامير يعقوب والتحم القتال ، وقامت الحرب على ساق ، فلم نمض الاساعة حتى انهزم الموحدون ، وأطلق أبو دبوس عنانه للفرار يريد مراكش ، فأدركته خيل بنى مرين ، وتناولته رماحهم ، وخر صريعا لليدين وللفم ، واحتز رأسه وجىء به الى الامير يعقوب فسجد شكرا لله تعالى . ثم بعث به الى فاس ، وتقدم هو الى مراكش فاستولى عليها فى أوائل محرم سنة ثمان وستين وستمائة ، وفر الموحدون الذين كانوا بمراكش الى جبل تينملل ، فبايعوا اسحق ابن أبى ابراهيم أخا المرتضى ، فبقى ذبالة هنالك الى سنة أربع وسبعين وستمائة فقبض عليه ، وجىء به الى السلطان يعقوب بن عبد الحق هو وابن عمه السيد أبو سعيد بن أبى الربيع ووزيره القبائلى وأولاده فقتلوا جميعا ، وانقرضت دولة بنى عبد المؤمن من الارض ، وذهبت محاسن مراكش يومئذ بذهاب دولتهم ، والبقاء لله وحده لارب غيره ولا معبود سواه .

ولنذكر ما كان فى هذه المدة من الاحداث :

ففى سنة احدى وستمائة توفى الشيخ أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجى المعروف بالسبتى دفين مراكش ، وذلك يوم الاثنين الثالث من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، ودفن خارج باب تاغزوت ، وكان شيخه أبو عبد الله الفخار من أصحاب القاضى أبى الفضل عياض .

وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه جميل الصورة أبيض اللون ، حسن الثياب ، فصيح اللسان ، قادرا على الكلام ، لا يناظره أحد إلّا أفحمه . حتى كأن مواقع الحجج

من الكتاب والسنة موضوعة على طرف لسانه ، وكان مع ذلك حليما صبورا عطوفا ، يحسن الى من يؤذيه ، ويحلم عمن يسفه عليه برا باليتامى والمساكين ، رحيما بهم ، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الاسواق والطرقات ، ويحض الناس على الصدقة ، ويأتى بما جاء فى فضلها من الآيات والآثار فتنثال عليه من كل جانب ، فيفرقها على المساكين وينصرف ، وكان له مع الله تعالى فى التوكل عليه عقد أكيد ، ومقام حميد ، قد ظهر أثره على روضته المباركة بعد وفاته .

حدث أبو القاسم عبد الرحمن بن ابراهيم الخزرجى قال : بعثنى أبو الوليد بن رشد من قرطبه ، وقال لى : اذا رأيت أبا العباس السبتى بمراكش . فانظر مذهبه واعلمنى به ، قال : فجالست مع السبتى كثيرا الى ان حصلت مذهبه ، فاعلمته بذلك ، فقال لى أبو الوليد هذا رجل مذهبه ان الوجود ينفعل بالجود .

وقال الوزير ابن الخطيب كان سيدى أبو العباس السبتى رضى الله عنه مقصودا فى حياته ، مستغاثا به فى الازمات ، وحاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة ، ومبنى أمره على انفعال العالم عن الجود ، وكونه حكمة فى تأثر الوجود ، له فى ذلك أخبار ذائعة ، وأمثال باهرة .

ولما توفى ظهر هذا الاثر على تربته ، وانسحبت على مكانه عادة حياته ، ووقع الاجماع على تسليم هذه الدعوى ، وتخطى الناس مباشرة قبره بالصدقة الى بعثها له من اماكنهم على بعد المدى ، وانقطاع الاماكن القصى ، تحملهم اجنحة نياتهم ، فتهوى اليه بمقاصدهم من كل فج عميق ، فيجدون الثمرة المعروفة ، والكرامة المشهورة .

وفى سنة عشر وستمائة كان الوباء العظيم بالمغرب والاندلس .

وفى سنة ست عشرة وستمائة توفى الشيخ الفقيه الصالح ابو اسحق ابراهيم بن محمد السلمى البلفيقى ، ينتهى نسبه الى العباس بن مرداس السلمى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان ابو اسحق رحمه الله من كبار العلماء العاملين ، والزهاد المحققين ، مثابرا على الاجتهاد والانقطاع إلى الله تعالى ، وظهرت عليه ببلده المرية من عدوة الاندلس كرامات واجتمع عليه خلق كثير ، وشاع ذكره هنالك ، فوشوا به الى الخليفة صاحب مراكش ، وهو يوسف المنتصر الموحدى ، فكتب الى عامله على

المريه يأمره بتوجيهه الشيخ ابى اسحق مكرما غير مروع

ولمـا عزم العامل على توجيهه قام العامة والاتباع دون الشيخ وأرادوا ان يحولوا بينه وبين العامل . فقال لهم الشيخ : « طاعة السلطان واجبة » ولما انتهى إلى مراكش ودخل على المنتصر هابه واجله وندم على ما كان منه إليه ، ثم بالغ فى إكرامه . وبعـد ذلك مرض الشيخ ابو إسحق وتوفى فى السنة المذكورة واحتفل النـاس لجنازتـه وحضرها الامراء والكبراء ، وكسر العـامة نعشه واقتسموا اعواده تبركا بـه ، وقبره مشهور بمراكش بسوق الدقيق منها ، وبقرب ضريحه مسجد جامع ينسب إليـه والعامة تقول جامع سيدى اسحق بدون لفظ الكنية وليس كذلك

وفى سنة سبع عشرة وستمائة كان الجراد والقحط والغلاء الشديد بالمغرب وفيها ألف الفقيه أبو يعقوب يوسف بن يحيى التـادلى المراكشى الدار عرف بابن الزيـات كتابه المسمى بالتشوف الى رجال التصوف ، وذكر فيه انـه لم يتعرض لذكر أحد من أولياء زمانه الأحياء غير انه ذكر ان من جملة أولياء زمانه الذين كانوا فى قيد الحياة الشيخ الصالح الصوفى أبا محمد صالح بن ينصارن بن عفيان الدكالى ثم الماجرى نزيل رباط أسفى . قال . وهو الآن لا يفتر من الجهاد ، والمحافظة على المواصلة والاوراد ، ومن كلامه الفقير ليس له نهاية إلّا الموت . قال : وحدثنى عنه تلامذته بعجائب من الكرامات والكلام على الخواطر ، وهو على سنن المشائخ الاول رضى الله عنه .

وفى سنة اثنتين وعشرين وستمائة توفى الشيخ أبو محمد عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه ، وقيل فيما بعد ذلك الى سنة خمس وعشرين ، وتوفى رضى الله عنه شهيدا بجبل العلم من جبال غمارة وقبره هنالك مشهور من أعظم مزارات المغرب

وكان سبب شهادته ان محمدا بن أبى الطواجين الكتامى كان قد ثار بتلك البـلاد وانتحل صناعة الكيمياء ، ثم ادعى النبوة حسبما سلف وتبعه على ضـلالته طغام غمارة والبربر . فكان عدو الله يغص بمكان الشيخ رضى الله عنه ، لما آتاه الله من شرف التقوى والاستقامة المؤيد بشرف النسب الصميم والعنصر الكريم ، وسول له الشيطان انه لا يتم أمر مخرقته فى تلك الناحية إلّا بقتل الشيـخ فدس له جماعة من أتباعه وأشياعه فرصدوا الشيخ حتى نزل من خلوته فى سحر من الاسحار الى عين هنالك قرب الجبـل المذكور

فتوصأ منها وولى راجعا الى محل عبادته وارتقاب فجره فعدوا عليه وقتلوه ، ومن الشائع انه ألقى عليهم ضباب كثيف أضلهم عن الطريق ودفعوا الى شواهق ترددوا منهـا فى مهاوى سحيقة تمزقت فيها أشلاؤهم ولم يرجع منهم مخبر

والشيخ عبد السلام هذا هو ابن مشيش بن أبى بكـر بن على بن حرمة بن عيسى بن سلام بتشديد اللام بن مزوار بفتح الميم وبالراء المهملة أخيرا ابن حيدرة واسمه على بن محمد بن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم .

وفى هذه السنة أيضا استأسد العدو الكافر على المسلمين بالاندلس وتوالت له عليهم الهزائم بمواضع متعددة واستولى على كثير من الحصون واستلحم منهم عدة ألوف حتى خلت المساجد والاسواق

وفى سنة أربـع وعشرين وستمائة اشتد الغلاء بالمغرب والاندلس حتى بيع القفيز من القمح بخمسة عشر دينارا ، وعم الجراد بلاد المغرب .

وفى سنة ست وعشرين وستمائة كان السيل العظيم بفاس هـدم من سورها القبلى نحو مسافتين وهدم من جامع الاندلس ثلاثة بلاطات وهدم دورا كثيرة وفنادق متعددة من عدوة الاندلس

وفى سنة ثلاثين وستمائة كان الغلاء ببلاد المغرب وكثر بها الجوع والوباء حتى بلـغ القفيز من القمح ثمانين دينارا وخلت الامصار من أهلها .

وفى سنة خمس وثلاثـين وستمائة عاود الغــلاء والوباء أرض المغرب فأكل الناس بعضهم بعضا وكان يـــدفن فى الحفير الواحد المائة من الناس .

وفى سنة ست وأربعين وستمائة وقــع الحريق بأسواق فاس فاحترقت حارة باب السلسلة باسرها الى حمام الرحمة وبالله تعالى العصمة والتوفيق

تم الجزء الثانى

ويليه الجزء الثالث أوله ابتداء دولة بنى مرين

فهرس الموضوعات

— الدولـــــة المرابطية —

— الدولـــــة الموحدية —

فهرس الاعلام والقبائل

حرف (أ)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ض)

حرف ﴿ط﴾

حرف ﴿ظ﴾

حرف ﴿ع﴾

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

فهرس الاماكن

حرف (ا)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ط)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (ه)

حرف (و)

حرف (ي)

فهرس الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٥	١٢	وهـا	وبهـا
٢٦	١٢	صاحت	صاحب
٣١	١	اندشر	انتشر
٣٣	٣	الاغراض	الاعراض
٤٦	١١	فعلى	عـلى
٦٧	١٩	والاوطار	والاقطار
٧٥	٢٣	الميدس	البيدق
٨٧	١٢	وتياتا	وثباتا
٩٠	٥	بغررة	بغرزة
٩١	٦	فتنافسو	فتنافسوا
٩٥	٢٠	مقنل	مقتل
٩٦	٢٢	قتح	فتح
١١١	١٢	ابى الحكام	ابى الحكم
١١٥	٨	الى اصيب	الى ان اصيب
١٢٠	٢	وبروى	ويروى
١٢١	١٨	يغـد	يغـذ
١٢٩	١٧	فبايعوه	فبايعه
١٤٥	٦	زحف	زحفت
»	٧	الى ارض المغرب	الى المغرب
١٤٨	١	بن	ابن

صفحة	سطر	خطأ	الصواب
١٧٣	١٤	للتاء واربعمائة	وللتاء اربعمائة
١٧٤	٦	ومدريسة الجوفية	ومدرسته الجوفية
١٧٥	٣	ىحىث	بحيث
١٩٣	١٠	وىكم	فيكم
١٩٥	٢٠	هدا	هذا
٢١٠	١٢	العىاس	العباسى
»	١٩	ىىى	بنو
٢٢٨	١١	على نبى	على بن